المملكة العربية السعودية
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
الدراسات العليا
المعهد العالي للقضاء

نسخة لا تصار
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة شؤون المكتبات
المكتبة المركزية
الرقم العام: ٤٨٤٧٥
رقم التصنيف:
٣٠١٠٢٠٠٠٠٠١١٥٣

السياسة الخارجية

للدولة الإسلامية في عهد النبوة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

اعداد
عبدالله بن ناصر بن سلطان السحيباني

اشراف
الأستاذ الدكتور
محمد الحسيني حنفي

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

١٩٧٩م / ١٣٩٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحيــــة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، خلــق الناس من ذكر وأنثى ، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وجعل أكرمهـــم عند الله أتقاهم .

والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، المبعـــوث رحمة للعالمين . بلغ الرسالة الى خاصة قومه ، ثم تجاوزهم الى سائر العــرب وتجاوز ذلك أيضا الى الدول والممالك التي كانت موجودة في زمانه ، عليـــه الصلاة والسلام ، فبعث اليهم بالرسل والسفراء . حاملين الكتب التي يدعوهـــم فيها الى الله والدخول في الاسلام بأسلوب الواثق من تأييد الله سبحــــانه وتعالى له ، ونصرته اياه لأنه يدعو الى الحق والى صراط مستقيم .

ورضى الله عن الصحابة والتابعين ، وعن كل من جاهد لاعلاء كلمة اللــه وبعـــــــد :-

فبعد نجاحى في الدراسة التمهيدية للماجستير بالمعهد العــــالى للقضاء . جعلت أستعرض الموضوعات التي يمكن أن أختار منها موضوعا أسجله لرسالة الماجستير فوقع اختيارى على موضوع " السياسة الخارجية للدولة الاسلامية في عهد النبوة " والسبب في رغبة نفسى وتعلق ذهنى بهذا الموضــــــوع هو : ما له من أهميــــة قصوى تبدو من خلال الاعتبارات الآتيـــة :-

أولا : أن الحكومة الاسلامية لا يمكن أن تعتبر حكومة اسلامية بالمعنى الكامل الشامل الا اذا التزمت بتطبيق الاسلام قولا وعملا فى سياستها الخارجية الى جانب تطبيقه فى سياستها الداخلية .

ثانيا : أنه لكى يعد أى نظام أو أية أحكام نظما أو أحكاما اسلامية لابد وأن تكون مأخوذة من دليل شرعى ، بل أكثر من ذلك تحديدا أن نقول :- لابد وأن نعود الى المصدر الرئيسى للشريعة الاسلامية القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

وعلى ذلك فانه لكى نعرف السياسة الخارجية للدولة الاسلامية لابد وأن نتتبع أولا وبالذات ما نزل به الوحى فى هذا الصدد ، وما نزل به الوحى نعرفه من القرآن الكريم ، ومن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله ، وتصرفاته فى شتى المواقف ، لأنه (ما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى) [1] .

وعليه فان عهد النبوة هو أولى العهود بالرجوع اليه فى هذا الصدد ، والتماس السياسة الخارجية منه .

ثالثا : أن كثيرا من الناس يعتقدون خطأ أن الاسلام لا شأن له بالسياسة الخارجية كما يظهر ذلك على ألسنة بعض الكتاب ، وبعض الحكام فى بعض الدول الاسلامية . فهم يظنون أن الاسلام انما تناول الجانب

---

(١) سورة النجم آية (٤) .

الديني ، وربط تناول الجانب الاجتماعي داخل المجتمع الاسلامـي ، ثم لا شأن له فيما تجاوز هذا ، ولما كان هذا الظن فيه أكبر الاساءة الى الاسلام لأنه يجعل المسلمين ينصرفون عن تطبيق جانب خطـير وهام من جوانب الاسلام فانه يكون من المهم التعريف بهذا الجانـب وابرازه حتى يقف من يهمهم الأمر من رجال الاسلام على كيفية تنظيمـه لأمور السياسة الخارجية بطريقة هي بلا ريب أفضل وأحكم من الطـرق التي ينظم بها فقهاء القانون الوضعي السياسة الخارجية سواء مـن الناحية العلمية أم من الناحية العملية ، وحين يتم التعريف بالسياسة الخارجية للدولة الاسلامية ، وتظهر مزاياها عند ذلك لا يكون هنـاك عذر لمعتذر من حكام المسلمين ان هو انصرف عن تطبيق السياسـة الاسلامية الى الأخذ بالنظم الوضعيـة .

واني من أجل ذلك آثرت أن يكون بحثي في " السياسة الخارجية للدولة الاسلامية في عهد النبوة " العهد الذي هو عهد التشريـع الطاهـر .

وكل ما أطمع فيه أن يكون هذا البحث المتواضع مذكرا للعلمـاء ، ولافتا لأنظارهم الى هذا الموضوع المهم ، والمجال الخطير من المجـالات السياسية . واني على ثقة تامة ان شاء الله أن علماءنا الأفاضل ، وأساتذتنـا الكرام عندما يهتمون بهذا الموضوع فانهم سوف يشبعونه بحثا ودراسة .

ولست بهذا أنكر ما كتبه بعض الباحثين المسلمين عن علاقة الدول الاسلامية بغيرها من الدول ، لست أنكر ذلك ، ولكنه يعتبر قليلا بالنسبة لأهمية هـذا

الموضوع ، وخطورته ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى وهى الأهم فان هذه البحوث قد تأثرت كثيرا بالقانون الدولى اقتباسا منه ، واقرارا له ، فهى الى وصف واقع السياسة الخارجية للدول الاسلامية أقرب منها بحثا مجردا مستمدا من المصادر الأصلية للشريعة الاسلامية .

هذا وقد كان منهجى فى البحث . هو الاعتماد على كتب السنة ، ثم كتب السيرة والمغازى فى المقام الأول ، ثم المراجع الأصلية فى التاريخ الاسلامى بصفة عامة فى المقام الثانى ، ولم أخترع أى اتجاه فى السياسة الخارجية ، بل كان ما قلته عن رأيى الخاص استنباطا وأخذا مما وقع فعلا فى عهد النبوة استمدادا من المراجع التى أشرت اليها ، ولم أهمل الكتب والمؤلفات المعاصرة فى السياسة الاسلامية ، بل أستطيع القول أننى نظرت فى أهمها وأوسعها شهرة وأكثرها تداولا بين الباحثين مما وضعه من لهم شهرة علمية غير منكوره ، فاستوعبته ، واسترشدت بما ورد فيه من أفكار ، وربما اتفقت مع أرباب هذه المؤلفات المعاصرة فى فكرهم ، وربما اختلفت معهم فى البعض ، وفى جميع الحالات أشرت اليها بالهامش رعاية للأمانة العلمية .

هذا ولا يفوتنى أن أشكر أصحاب الفضيلة العلماء الأجلاء الذين تلقيت عنهم العلم والدراسة سواء فى هذا المعهد أو فى الكلية أو فى أى مرحلة من مراحل العلم والدراسة الا أننى أخص صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور عبد العال عطوة بمزيد من الشكر والثناء اذ سهل لى الطريق الأول من طرق البحث ، وشجعنى على المضى فى استكمال الموضوع .

وأما فضيلة الاستاذ الدكتور محمد الحسيني حنفي فله فضل لن أنساه . كيف أنسى وهو لم يأل جهدا في سبيل توجيهي وارشادى ويعلم الله كم كنت أتقدم اليه وقد انسدت أبواب المعرفة أمامى فما ألبث أن أجد السبيل الى المعرفة والتحصيل أثناء جلوسى معه ، فجزاه الله عنى وعن طلاب العلم خير الجزاء .

ولأصحاب الفضيلة أعضاء لجنة المناقشة فضل كبير فى هذا البحث . اذ هم الذين قد يبدون ملاحظات على ما كتبه الباحث وأشرف عليه المشرف وبعد تلافى ما يبدونه من ملاحظات والأخذ بما يتفضلون به من توجيهات يكون الموضوع قد وفّى حقه ، وبلغ تمامه ، وذلك بفضل الله ، ثم بفضلهم فأجزل لهم الفضل يا رب العالمين .

وانى لأسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل من جانبى اسهاما حقيقيا فى ابراز جانب عظيم من جوانب الشريعة الاسلامية . يمكن للأمة الاسلامية الاستفادة منه ، وأن يكون حائزا على رضا كل طالع وباحث ، كما أسأله تعالى أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه الكريم وألا يكون آخر عمل ، بل يثبت خطاى على طريق العلم الذى هو أشرف طريق فيه أمضى بقية حياتى وعليه يكون مماتى ، وعسى أن تكون فى زمرة العلماء بمشيئته انه سميع قريب مجيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

خطـــة البحـــــث

تشتمل الرسالة على مقدمة وأربعة أبواب وخاتمـــــة .

وكانت خطتى فى البحث كالآتـى :-

أولا - المقدمة :

حاولت فيها أن ألتمس تعريفا للدولة الاسلامية من أقوال فقهـــــاء الاسلام ، ثم بينت أركان الدولة مأخوذة من التعريف . والأركان هى : الشعب، والأرض ، والسلطـــة .

وقبل تعريف الدولة فى الفقه الاسلامى نقلت تعريفها عند فقهـــــاء القانون ليرى المطلع على التعريفين أنهما متفقان فى الجوهر على الرغم مـــن الفارق الزمنى بينهما .

ثم تكلمت عن نشأة الدولة ، وبينت أن الدولة الاسلامية تكاملت أركانهـــا بعد هجرته عليه الصلاة والسلام الى المدينة حيث أصبح للدولة اقليم بعـــد أن تكونت السلطة ، وبعد أن وجد الشعب .

وعند كلامى عن تعريف الدولة ، وحديثى عن نشأتها وبيان أركانهـــا كنت أذكر ما قاله فقهاء القانون الدولى فى هذا الشأن ، وما أردت بـذلك الا بيان أن الدولة الاسلامية تنطبق عليها المفاهيم الدولية المعاصرة ، ليعلـــم بذلك أولئك الذين يدعون عقم الفقه الاسلامى وجموده أنه برئ مما يقولون .

ثم تكلمت عن مصادر السياسة الدولية فى الاسلام ، وبينت أن مصادر الأحكام فى الشريعة الاسلامية واحدة ، وأن المصدرين الرئيسيين وهما الكتاب الكريم ، والسنة المطهرة فيهما اشارة الى أحكام ذلك الفن أعنى السياسة الخارجية ، وأنهما مصدران لا يمكن أن ينضب معينهما المذب الصافى مهما اختلف طلب الواردين .

ثم ذكرت مصادر الأحكام فى القانون الدولى ، ليرى القارئ مدى الفرق بينهما .

ثانيا - الباب الأول :

موضوعه " الجوانب الرئيسية فى العلاقات الدولية " ويشتمل على ثلاثه فصول :

الفصل الأول : القواعد الأساسية وهى : العدل ، المعاملة بالمثل ، الوفاء بالعهد ، نصرة الضعفاء ، تكريم الاسلام للانسانية وأعتبار الناس أمة واحدة ، حرية الاعتقاد ، وقد تكلمت عن كل قاعدة من هذه القواعد .

الفصل الثانى : يشتمل على المعاهدات فى الاسلام . تعريفها ، وبيان أدلة شروعيتها من القرآن والسنة ، وبيان الشروط التى يجب أن تتوفر فى المعاهدات لتصبح لازمة .

الفصل الثالث : يشتمل على الرسل والسفراء فى الاسلام . بينت فيه تاريخ التمثيل السياسى ، وموقف الاسلام من التمثيل السياسى وأنه يقره ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث بسفرائه الى ملوك العالم ، وقادته المعروفين فى ذلك

الوقت ، وأنه استقبل مبعوثين كذلك ، ثم بينت موقف الاسلام من الامتيازات السياسية ، وأنه يكفل للمبعوثين السياسيين الحماية التامة لأنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وأنه يعامل المبعوثين السياسيين من الناحية المالية بمثل المعاملة التي يعامل بها سفراء الدولة الاسلامية ثم بينت الصفات التي يجب أن يتحلى بها السفراء والمبعوثون . ثم بينت الاصل في العلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول .

ثالثا - الباب الثاني :

موضوعه " سياسة الدولة الاسلامية من حين نشأتها الى صلح الحديبية ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : سياسة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود في المدينة تكلمت فيه عن الوضع السياسي في المدينة قبل مقدمه عليه الصلاة والسلام ثم بينت سياسته مع اليهود وأنه عقد معهم عهدا بموجبه يعيشون بسلام ، ويدافعون عن المدينة ضد أي عدوان ، وأنه صلى الله عليه وسلم تكفل لهم بحرية العقيدة ، ثم بينت نهاية هذا الاتفاق ، وأنه الغدر والخيانة من اليهود لعنهم الله .

الفصل الثاني : بينت فيه سياسته صلى الله عليه وسلم مع العرب المجاورين حول المدينة ، وأنه عقد معهم الاتفاقيات ليأمن جانبهم ويطمئن على أنهم لن يكونوا مع الأعداء عليه .

الفصل الثالث : بينت سياسته صلى الله عليه وسلم مع قريش بعد أن نـــزل الاذن بالقتـــال ، وبينت الأسباب التى دعت المسلمين الى أن يخوضـــوا الحرب ضد قريش وأن قريشـــا هى السبب فى اشعال فتيل الحرب دائمـــا معه صلى الله عليه وسلم .

رابعـا ـ الباب الثالث :

وموضوعه : سياسة النبى صلى الله عليه وسلم من صلح الحديبية الـــى فتح مكة . ويشتمل على ثلاثة فصـــول :

الفصل الأول : بينت فيه الأحداث التى أدت الى عقد صلح الحديبيـــــة وما حصل من التفاوض قبل الوصول الى هذا الاتفاق ، ثم ذكرت بنـــود هـذا الاتفـــاق .

وفى الفصل الثانى : تحدثت عن آثار صلح الحديبية وذلك بعد أن أمن صلـــى الله عليه وسلم جانب قريش . فانه أخذ يعمل لنشـــر دعوته خارج نطـــــاق الجزيرة العربية ، وبعث برسله وسفرائه الى ملوك العالم ، وقادته المعروفـــين فى ذلك الوقت ، وبعث معهم الرسائل التى يدعوهم فيها الى الله وبينت الأثـــر الذى حصل من جراء تلك الرســـائل .

وفى الفصل الثالث : بينت الأسباب التى أدت الى نقض العهد ، وموقف قـــريش من تلك الأسباب ، والاجراء الذى اتخذه صلى الله عليه وسلم بعد أن علم عـــن نقض العهد ، وزحفه الى مكة ، وفتحه لها .

خامسا - الباب الرابـــع :

وموضوعه : سياسة النبى صلى الله عليه وسلم من فتح مكة الى أن انتقل الى الرفيـــق الأعلى ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصـــول :

الفصل الأول : سياسته صلى الله عليه وسلم مع الروم . بينت فيه موقـــف الروم من الاسلام ، وبينت فيه الأحداث التى أدت الى غزوة تبوك والآثـــار التى حصلت من جراء تلك الغزوة .

وفى الفصل الثانى : بينت سياسته صلى الله عليه وسلم مع المشركين ونـــزول سورة " براءة " واعلانها على المشركين فى موسم الحج .

وفى الفصل الثالث : بينت أن وفود العرب أخذت تتوافد على المدينة المنورة معلنة البيعة والولاء لله ولرسوله ، وذلك بعد أن تبين لها أن الدولـــة الاسلامية قد قضت على خصومها وأنها أصبحت سيدة الموقف فى جميع أنحـــاء الجزيرة العربيـــة .

أما الخاتمـــة فقد تناولت فيها موضوعين :

الأول : بيان استقلال السياسة الخارجية الاسلامية كما قررها الرسول عليـــه الصلاة والسلام عن أى نظام دولى آخر فى القديم وفى الحديث .

وأما الثانى : فهو بيان معالم السياسة الخارجية التى اتبعها النبى صلى اللـــه عليه وسلم استنباطا مما عرضته فى الرســـالة .

المقــــدمة

--*-*-*-*-*-*

تشتمــــل على :

أولا : تعريف الدولـــة .

اركانهـــا .

نشأتهـــا .

ثانيا : مصادر السياسة الدولية فى الاسلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

قبل الدخول فى الموضوع ينبغى أن نلقى نظرة على الدولة : تعريفها ، أركانها ، نشأتها . لأن السياسة سواء كانت داخلية أو خارجية هى من أعمال الدولة ، فاذا لم توجد الدولة فان السياسة الخارجية لا وجود لها .

أولا - تعريف الدولة :

نظرا لأنه لم يؤثر عن المتقدمين من علماء الفقه الاسلامى تعريف للدولة فلابد لنا من البداية بتعريف الدولة عند فقهاء القانون الدولى ، وبعد ذلك وبعد أن نعرف العناصر التى يشتمل عليها التعريف يمكن أن نلتمس تعريفا للدولة فى الفقه الاسلامى .

عرف فقهاء القانون الدولى الدولة بأنها (جماعة دائمة مستقلة من الأفراد يقيمون على وجه الدوام فى اقليم معين وتسيطر عليهم هيئة منظمة ذات سيادة)[1] .

هذا وليس هناك تعريف للدولة مجمع عليه من قبل رجال القانون الدولى العام . والسبب فى ذلك (ظهور أشكال حديثة ومستحدثة من الدول

---

(١) القانون الدولى العام ، د. أبو هيف ص ١٠٩ وبحوث ودراسات فى القانون الدولى العام - أحمد عبد القادر جمال . ص ١ .

الاتحادية والدولة ناقصة الأهلية) (١) .

لكن كل التعاريف على اختلاف عباراتها ترشد بيسر وسهولة الى العناصر الأساسية والأركان الثابتة التي ترتكز عليها الدولة عند قيامها ، وهذه العناصر هـــي :ـ الأرض ، والشعـــب ، والسلطة .

تعريف الدولة في الفقه الاسلامي :

اصطلح رجال الفقه الاسلامي على اطلاق لفظ ـ دار الاسلام ـ علـــى الدولة الاسلامية ، واذا رجعنا الى تعريف دار الاسلام وجدناه تعريفا شامــلا لعناصر الدولة التي اتفق عليها فقهاء القانون الدولي .

يقول الامام السرخسي : (دار الاسلام اسم للموضع الذي يكون تحـت يد المسلمين ، وعلامة ذلك أن يأمن فيها المسلمون) (٢) .

وعرفها عبد الوهاب خلاف (بأنها الدار التي تسود فيها أحكام الاسلام ويأمن فيها المسلمون على الاطلاق) (٣) .

ان هذه التعاريف لدار الاسلام مشتملة على أركان الدولة الأساســية ، وهي الاقليم الذي عبر عنه السرخسي بالموضع ، والسلطة التي عبر عنها باليد ، أما العنصر الثالث وهو الشعب فانه يفهم ضمنا .

---

(١) مبادئ القانون الدولي العام د محمد حافظ غانم ص ١٢٥ .
(٢) شرح السير الكبير . السرخسي جـ ٤ ص ١٢٥٤ .
(٣) السياسة الشرعية . عبد الوهاب خلاف ص ٦٩ .

عناصر الدولة :

عناصر الدولة ثلاثة : ١ - الشعب ٢ - الاقليم ٣ - السلطة .

العنصر الأول : الشعب

يلزم لوجود الدولة وجود العنصر الانساني وهو الشعب ، اذ لا معنى لوجود دولة بدون شعب من ذكور واناث ليس لعددهم حد محدود يقيمون اقامة مستقرة ، ويرتبطون بالدولة ارتباط انتماء وولاء ، وهؤلاء يعرفون بالمواطنين يتمتعون بجميع الحقوق حيث تربطهم بالدولة رابطة الجنسية ، بينما قد يعيش بين أولئك أجانب لهم حقوق وعليهم واجبات يعنى القانون الدولى الخاص ببيانها ، واذا كانت الرابطة بين الدولة وشعبها وبين أفراد الشعب بعضه مع بعض هى هذه الرابطة السياسية القانونية رابطة الجنسية ، فما هى الرابطة التى تربط الشعوب الاسلامية بعضها مع بعض وتدعوهم الى الولاء لسلطة حاكمة تسير بهم على منهج الله وشرعه ؟

(ان رابطة الجنسية كما هو معروف فى علم القانون - كانت رابطة مجهولة وقت ظهور الاسلام فى جميع النظم التى كانت قائمة آنذاك ، والسبب فى ذلك واضح لا يحتاج الى المزيد من البيان .

فالتجمع الانسانى فى صورة الدولة لم يكن قائما ، ورابطة الجنسية لم تنشأ الا مع نشوء الدولة واستقرارها واجتماع جميع أركانها ، أما الرابطة التى كانت معلومة ومستقرة فى الوقت الذى ظهر فيه الاسلام فكانت رابطة العشيرة ورابطة القبيلة ، ولما نشأ الاسلام أنشأ رابطة جديدة لها قوتها

الروحية وهى رابطة الأخوة الاسلامية وهى الرابطة التى تكتسب بواسطة الاشتراك فى العقيدة الدينية الواحدة وهى العقيدة الاسلامية ، فالانتماء الى الاسلام يربط بين المسلمين جميعا برباط روحى وثيق يؤلف بين قلوبهم ويجمع بينهم فى أخوة اسلامية) (١) .

ولقد جاء الاسلام ليقرر أن هناك رابطة واحدة تربط بين الناس ألا وهى رابطة العقيدة ، عقيدة الايمان بالله وحده والاحتكام الى شريعته ونبذ ما سواها فلا مودة ولا صلة ولا قرابة اذا تباينت العقائد مهما كانت القرابة الدموية قوية عميقة (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم) (٢) .

وقد يقيم مع المسلمين فى دولة الاسلام من لا يدين بدينهم فهل يعد من رعايا الدولة الاسلامية ؟ وهل يقر على الانتماء اليها ؟

(لقد قسم فقهاء السياسة المسلمون سكان الدولة الاسلامية الى أنواع ثلاثة : (١) مسلمين (٢) وذميين (٣) ومستأمنين . ويشمل المسلمون والذميون (٣) رعايا أو مواطنى الدولة الاسلامية لأنهم يقيمون فيها اقامة دائمة . . . واذا كان ارتباط المسلمين بالدولة ارتباط جنسية ودين ،

---

(١) أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية . د حامد سلطان ص٢١٧.

(٢) سورة المجادلة آية (٢٢) .

(٣) الذمة لغة العهد ، والضمان والأمان ، ومعنى عقد الذمة : اقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة .

فان ارتباط الذميين قاصر على الوطنية والجنسية [١] . . . والمستأمنـــون ـ الأجانب ـ وهم الأشخاص الذين يدخلون الديار الاسلامية ، لمدة محدودة وليس بنيتهم الاقامة الدائمة فاذا دامت اقامة الشخص عومل معاملة أهل الذمـة وكان الاسلام أول من اعترف بحقوق الأجانب ـ المستأمنين ـ ولم تصـــل الانسانية الى اقرار هذه الحقوق فى ظل القوانين الوضعية الا فى القــــرن العشـــرين .

---

(١) هكذا يرى المؤلف الذى نقلنا عبارته أن الجنسية عنصر من عناصر الانتماء للدولة الاسلامية وقد بينا أن الدولة الاسلامية من حين نشأتها والـــى عهد قريب لم تعرف عنصر الجنسية وانما انتماء الذمى للدولة الاسلاميـــة انما هو لخضوعه لها والتزامه بأحكامها ، وانتماء المسلم للدولـــــة الاسلامية بالتزامه للاسلام . ولعل المؤلف يتكلم عن الدول الاسلاميـــة المعاصـــرة .

(٢) النظام السياسى فى الاسلام د عبد الكريم عثمان ص ١٤٦ .

العنصر الثاني : الاقليم

يلزم لوجود الدولة وجود اقليم تقيم عليه رعيتها بصفة دائمة نسبيا وليس لهذا الاقليم حد معين من حيث الطول والعرض ، لكن يلزم أن يكون من الاتساع في حد معقول يمكن الدولة من اقامة المرافق العامة والخدمات الرئيسية لأفراد الشعب ، وكذلك ليس من اللازم اتصال أرضه بعضها ببعض فقد يتكون الاقليم من عدة جزر كأندونيسيا واليابان ، وقد يتكون من اقليمين منفصلين كما في باكستان سابقا وقد لا ينحصر في قارة واحدة فلا شيء في ذلك انما المهم هو استمرار الاقامة في الاقليم اقامة معترفا بها ، ولابد من كون الاقامة شرعية فلا اعتبار لدولة قامت على أرض مغتصبة وشردت أهلها ، فدولة اليهود في نظر المسلمين ونظر بعض دول العالم التي لا تخضع للسياسة الصهيونية ليست بدولة شرعية (فالشعب اليهودي المشتت في أنحاء العالم لم يكن في نظر القانون الدولي دولة قبل وجود اسرائيل (١) أما بعدها فليس بدولة أيضا اذ يشترط ألا يكون الاقليم محل نزاع بين شعبها من ناحية وبين الدول الأخرى المتاخمة فبمجرد اعلان قيام دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ م اعترضت الدول العربية وامتنعت الى الآن عن الاعتراف بها لأن الاقليم الذي تدعيه اقليم عربي فلسطيني أصلا اغتصبته عصابات اسرائيلية بتواطؤ مع الدولة التي كانت منتدبة على فلسطين وهي انجلترا) (٢) .

---

(١) يحسن التعبير بما يسمى بدولة اليهود في فلسطين .

(٢) الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام علي علي منصور ص ١٠٣ .

طرق اكتساب الأقليم :

بعد أن تبين لنا أنه لا وجود لدولة بدون اقليم ، ينبغى معرفة الطرق التى يكتسب فيها الاقليم ، ففى القانون الدولى (تكتسب الملكية الاقليمية وفقا لقواعد القانون الدولى التقليدية) اما بصفة أصلية اذا كان الاقليم غير مملوك من قبل لدولة ما ، واما نقلا عن الغير اذا كان مملوكا أصلا لدولة أخرى ولاكتساب الملكية بصفة أصلية طريقتان هما :- الاستيلاء والاضافة . ولاكتسابها نقلا عن الغير ثلاث طرق :-هى التنازل والفتح ووضع اليد)[1] .

أما بالنسبة للدولة الاسلامية فان اقليمها يزيد وينقص بناء على حركة الدعوة والجهاد (ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[2] وقد قامت الدولة الاسلامية أول ما قامت فى عهده صلى الله عليه وسلم على رقعة بسيطة من الأرض لا تتجاوز مساحتها رأى العين طولا وعرضا ، ثم ما لبثت أن امتدت واتسعت حتى شملت ما يجاوز الستين فى المائة من مساحة الأرض المعروفة آنذاك .

وقد قسم المسلمون الأرض بادىء ذى بدء الى قسمين ، دار الاسلام ويراد بها الدولة الاسلامية ودار الحرب ويراد بها الاقاليم التى لا سلطان للدولة الاسلامية عليها (ويدخل فى عموم الدولة الاسلامية كل اقليم اسلامى ،

---

(١) القانون الدولى العام د. أبو هيف ص ٣٢٦ .
(٢) سورة الاعراف آية ١٢٧ .

وذلك لأن الولاية من الله تعالى ، ودين الحق الذى أمر به هو الاسلام. والمسلمون جميعا أمة واحدة وعلى ذلك فان كل اقليم اسلامى يعد من الدولة الاسلامية وولايته اسلامية خالصة ، وأى اقليم يختار أهله أو أكثرهم الاسلام دينا فانه ينتقل من كونه - دار حرب - الى دار سلام ، واذا أسلمت أقليمة فان ولايتها تعد من حيث الحكم الشرعى ولاية اسلامية بمعنى أنهم يعدون فى ولاية المسلمين ، ويعتبر الاعتداء عليهم اعتداء على دار اسلام) (١) وكذلك أى أقليم يختار أهله البقاء على دينهم والخضوع لأحكام الاسلام ولسلطة المسلمين فان ذلك الاقليم يكون بذلك جزءا من دار الاسلام ولو لم يكن أهله مسلمين) (٢)

العنصر الثالث : السلطة

والمراد بالسلطة : الهيئة الحاكمة التى تتولى شئون الرعية والاقليم بالحماية والحفظ ويكون لها من القوة ما تحمى به الاقليم ، وتدافع به عن الشعب ، وتقيم العدل بين أفراد الرعية ومن المؤكد أن وجود الهيئة الحاكمة هو الأساس فى تكوين الدولة ، ووجود هذه الهيئة أمر لا غرض منه دفعا للفوضى ومنعا للفساد (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (٣) .

---

(١) أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية د حامد سلطان ص ٢٣١ .
(٢) أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الاسلام د عبد الكريم زيدان ص ٢١ .
(٣) سورة البقرة آية (٢٥١) .

وقد أجمع المسلمون على وجوب وجود هيئة حاكمة تأخذ للضعيف وتردع القوى المعتدى قال أبو يعلى :- (نصب الامام واجب ، والوجه فى ذلك أن الصحابة رضى الله عنهم لما اختلفوا فى السقيفة[1] فقالت الأنصار .. منا أمير ومنكم أمير ، ودفعهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وقالا ان العرب لا تدين الا لهذا الحى من قريش ، وورد فى ذلك أخبار ، فلولا أن الامارة واجبة لما ساغت تلك المناظرة والمحاورة عليها . ولقال قائل :- ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرها[2]) .

وقال الماوردى :- الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالاجماع ، وان شذ عنهم الأصم[3]) .

شكل النظام والسلطة :

بعد أن عرفنا وجوب اقامة السلطة وضرورة وجود حكومة وأنه لا يمكن الأمر أن يقوم ويتم الا بسلطان يحكم بالعدل ، ويمنع الظلم ، بقى أن نعرف شكل هذه السلطة أو هذه الحكومة (وقد تتخذ الهيئات الحاكمة أشكالا سياسية مختلفة ملكيات وجمهوريات ديمقراطيات أو دكتاتوريات) ولا يهتم القانون الدولى بالشكل السياسى للسلطة الحاكمة مادامت هذه السلطات

---

(١) المراد بالسقيفة ، سقيفة بنى ساعدة ، وهى الظلة ، كانوا يجلسون تحتها وفيها بويع ابو بكر الصديق رضى الله عنه ، معجم البلدان ، جـ٣ ط٢٢٨ .
(٢) الاحكام السلطانية ، لابى يعلى ص ١٩ .
(٣) " " ، للماوردى ص ٥ .

لها السيطرة الكاملة على اقليمها وتقوم بالوظائف الكفيلة ببقاء الدولة واستمرارها (١)) .

من هذه النصوص يتضح أن القانون الدولي لا يهتم بشكل السلطة ونوعيتها بقدر ما يهتم باحكام القبضة على الشعب والتمكين من بقاء الدولة ، وصد أي قوة أخرى مضادة ، ولو كانت حركة اصلاحية .

ومن وجهة نظر الاسلام كما عبر عنها فقهاء السياسة الشرعية لا يشترط شكلا معينا للحكومة الاسلامية ، والمهم في الأمر هو تطبيق الاسلام وتنفيذ أحكامه بواسطة الامام العادل ومساعديه ، والامام هو الرئيس الأعلى للدولة الاسلامية ، وقد عني الفقهاء ببيان شروطه وطرق تنصيبه ، ولابد أن يكون ملتزما في حكمه بأحكام الاسلام ، ومبادئ الشورى ، فالحاكم المسلم ليس له أن يستبد برأيه . بل عليه أن يستشير فيما يعرض له أهل الرأي وذوي الخبرة من علماء المسلمين ، والمهم في الشورى ليس هو شكلها بتكوين مجالس ذات شكل معين أو عدد معين بل المهم أن يكون المستشارون من أهل العدالة والثقة .

والمسلمون بعد هذا ملزمون بطاعة ولي الأمر مادام يسير على الحدود التي بينها الله ورسوله . وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :-

(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، الا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٢) .

---

(١) مبادئ القانون الدولي العام د حامد سلطان ص ١٢٨ .
(٢) صحيح مسلم .

نشأة الدولـــة :

الدولة شخص اعتبارى بموجب المصطلحات التى تواضع عليها علمـــاء القانون الدولى وكل شخص حادث لابد وأن يمر بالمراحل والأحوال التى تعرض لكل حادث من قوة وضعف وحياة وموت . ويشترط رجال القانون لنشوء الدولـة أن تستكمل عناصرها وأركانها السابق ذكرها وهى الاقليم ، والشعب ، والسلطة ، (وهذا يتم على احدى صورتين :

الصورة الأولى ، نشوء جديد قد تنشأ الدولة من عناصر جديدة باستقرار مجموعة من الناس على اقليم غير مسكون ، أو مسكون بقبائل همجية ، أو بشعب ضعيـف وتتوفر لديهم الرغبة فى تكوين تنظيم سياسى مستقل وهذه ظاهرة تاريخيـة يمكن ارجاع نشـوء أغلب الدول القديمة اليها وحصولها نادر فى العصـر الحديث .

الصورة الثانية ، نشوء دولة من عناصر قديمة وهذا يكون نتيجة انفصال ولا يـة أو مستعمرة عن الدولة الأصل واستقلالها كما حصل عند تحرير ولايات أمريكـا الشماليـة) (١) .

ولو أردنا أن نطبق هذه المفاهيم على الدولة الاسلامية ، فاننا اذا ألقينا نظرة على مجتمع المدينة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم اليها ، نجـده مجتمعا اشتعلت فيه الحروب الطاحنة ، وكثرت المنازعات ، وأصبحت - يثـرب - مسرحا للنزاع الدائم والتنافر المستمر بين أهلها جميعا . سواء بين العـرب

---

(١) مبادىء القانون الدولى العام د محمد حافظ غانم ص ٢٦٦ .

أوسهم وخزرجهم ، أو بين قبائل اليهود بعضها مع بعض ، أو بين العرب واليهود . الا أن كفة العرب كانت راجحة على كفة اليهود ولهم من السلطة والاستقلال بالرأى ما ليس لليهود . ومن أشهر الوقائع التى وقعت بين العرب أنفسهم يوم بعاث (١) المشهور الذى كان بين الأوس والخزرج وقد أتجهت رغبة هاتين القبيلتين العظيمتين بعد هذه الواقعة المشهورة الى الاصطلاح والانتظام تحت قيادة رجل منهم هو عبد الله بن أبى بن سلول سيد الخزرج غير أنه حدث أن قصد حجاجهم مكة ، واجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم بالعقبة (٢) ، ثم بايعوه ، وقبلوا دعوته ، كما رغبوا فى العام التالى بهجرته الى بلدهم حين طلب منهم ذلك ، وتعهدوا له بحمايته ، فلما رجعوا الى قومهم دعوهم الى نصرة الاسلام والدخول فى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقيت دعوتهم قبولا منهم ، وعدلوا بذلك عن تمليك ابن أبى (٣) .

بعد ذلك نجد أن الدولة الاسلامية الأولى قد استكملت عناصرها بهجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة . اذ أن هجرته كانت بمثابة حجر الأساس لانشاء أول دولة اسلامية . فالمدينة كانت تمثل الاقليم الذى تقوم عليه

---

(١) بعاث بالضم : موضع فى نواحى المدينة كانت فيه مواقع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . معجم البلدان ج ١ ص ٤٥١ .

(٢) العقبة بالتحريك : هو الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه . وأما العقبة التى بويع فيها النبى صلى الله عليه وسلم بمكه فهى عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين ، وعندها مسجد ، وفيها ترمى جمرة العقبة . معجم البلدان ج ٤ ص ١٣٤ .

(٣) أنظر: وفاء الوفاء ج ١ ص ٥٥ وابن خلدون ج ١ ص ٢٩٠ .

الدولة ، وسكان المدينة يمثلون الجماعة من السكان الذين يخضعون لنظـــــام السلطة وأوامرها ، وكان صلى الله عليه وسلم يمثل السلطة العليـــا في جميـــع شئون الدولـــــة .

ثانيا - مصادر السياسة الدولية فى الاسلام :

ليس هناك مجال للشك فى أن النظام الذى أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه فى المدينة المنورة يمكن أن يوصف بأنه سياسى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى حديث وأنه عليه الصلاة والسلام أسس أول ادارة للحكم بالمدينة المنورة وهذه الادارة شاملة لنواحى الدين والدنيا معا الداخلية منها والخارجية على حد سواء ، وكانت تلك الادارة بصورتها الشاملة تسير وفقا للقواعد والانظمة التى قررها الدين الاسلامى الذى هو خاتم الأديان السماوية . والقرآن الكريم يشتمل على كل ما يتطلبه الناس فى حياتهم . فهو يشتمل على أصول الشريعة ، وقواعد الحلال والحرام . لكن أحكامه لم تكن كلها تفصيلية اللهم الا ما يختص بشئون العقائد ، وأصول العبادات ، وأما ما سوى ذلك من الأحكام فان قواعده جاءت سلسلة مرنة تعطى أئمة الدين ، وعلماء الشريعة الفرصة لاستنباط الأحكام واستخراجها لعل ما يستجد من أقضية ويطرأ من حوادث وهذا هو السر فى خلود الشريعة الاسلامية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان .

ومن بين الأحكام التى لم يفصلها القرآن الكريم ، وأجمل القول فيها اجمالا أضاء لمجتهدى الأمة الطريق لتفريعها أحكام العلاقات الدولية والسياسية الخارجية " وهى التى تتعلق بمعاملة الدولة الاسلامية لغيرها من الدول ، ومعاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ، ويقصد بها تحديد علاقة الدولة الاسلامية بغيرها من الدول فى السلم وفى الحرب ، وتحديد علاقة

المسلمين بغيرهم فى بلاد الدول الاسلامية ، وآياتها نحو خمس وعشرين آية " (١) .

ومن المتفق عليه بين علماء المسلمين . أن مصادر التنظيم السياسى فى الاسلام لا تختلف عن بقية مصادر أحكام الشريعة الأخرى .

ومصادر الأحكام الشرعية عند علماء الأصول هى (الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس . وهذه الأصول الأربعة اتفق جمهور المسلمين على الاستدلال بها ، واتفقوا أيضا على أنها مرتبة فى الاستدلال بهذا الترتيب (٢) ".

هذا وسأتكلم عن الكتاب والسنة لأنهما المصدران الرئيسيان ، وعن الاجتهاد (وذلك لأن الاجتهاد يشمل أكثر من مصدر . اذ تكاد أكثر المصادر الأخرى تدخل تحت الاجتهاد) (٣)

القــرآن الكريـــم :

(القرآن الكريم ، هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى ، والمنقول الينا بطريق التواتر حفظا وكتابة ، والمبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس) (٤)

---

(١) علم أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ٣٢ .
(٢) علم أصول الفقه عبد الوهاب خلاف ص ٢٢ .
(٣) نظام الحكم فى الاسلام فاروق النبهان ص ٢٩٧ .
(٤) المدخل لدراسة الفقه الاسلامى د . محمد الحسينى حنفى ص ٢٢٤ .

والقرآن هو أساس مصادر الأحكام في الشريعة الاسلامية . بين فيه تعالى أحكام دينه ، وقواعد شريعته ، وما فيه من الأحكام والبيان لم يكن قاصرا على ما يصلح شئون قبيلة دون قبيلة ، أو جماعة دون أخرى . بل هو عام لكل البشرية . فما من حكم الا وضحوفيه ، وما من مشكلة الا ولها فيه الحل الشافي سواء بالنص الصريح ، أو بالاشارة والتلميح . ومن بين هذه الأحكام أحكام السياسة الدولية . ويستغرب بعض الناس شمول القرآن الكريم لأحكام العلاقات الدولية ، ويكاد البعض منهم ينازع في ذلك . لكن لا مجال لنزاعهم ، ولا فائدة من جدالهم . اذ ورد الرد عليهم مسبقا في كتاب الله تعالى اذ يقول : (ما فرطنا في الكتاب من شئ) (١) .

ولعل لبعض أولئك المنازعين وأخص منهم أصحاب النوايا الطيبة شئ من العذر لما قالوا . وذلك لأن (نظام الاسلام السياسي قد تعطل فينا منذ أمد غير يسير . فلا يكاد اليوم يسمع بتلك المصطلحات - أي السياسية والدستورية - ففي القرآن الكريم كثير من الكلمات نقرؤها كل يوم ولكن لا نكاد نعرف أنها من المصطلحات الدستورية . كالسلطان ، والملك ، والحكم ، والأمر والولاية . فلا يدرك مغزى هذه الكلمات الدستوري الصحيح الا القليل من الناس) (٢) .

ومما ورد في القرآن الكريم من أحكام القانون الدولي العام قاعدة المعاملة بالمثل . وقد نص القرآن الكريم على هذه القاعدة في أكثر من موضع .

---

(١) سورة الأنعام آية ٦ .
(٢) تدوين الدستور الاسلامي أبو الأعلى المودودي ص ١١ .

يقول الله تعالى : " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " (١) .

وقال جل ذكره : " الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " (٢) .

وقال تعالى : " وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة " (٣) .

وقال أيضا : " وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " (٤) .

ومما ورد فى القرآن الكريم من الأنظمة الدولية قاعدة : احترام المعاهدات فقد اعتنى القرآن الكريم بالمعاهدات عناية شديدة ، وكره الاخلال بها ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى " ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . . . " (٥)

وقوله تعالى : " وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون " (٦) .

وفى سورة " براءة " بعد أن أعلن تعالى البراءة من المشركين قال :- " الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين " (٧) .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٠ .
(٢) سورة البقرة آية ١٩٤ .
(٣) سورة التوبة آية ٣٦ .
(٤) سورة النحل آية ١٢٦ .
(٥) سورة المائدة آية ١ .
(٦) سورة النحل آية ٩٠ .
(٧) سورة براءة آية ٤ .

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجبا لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال : " فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة " وهذا بعينه هو الذي أوجبه في قتل مسلم خطأ " (١) .

ومن الأنظمة الدولية في القرآن الكريم الحياد في الحرب قال تعالى : " فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ، ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ، الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا " (٢) .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : " ويحبب الله المسلمين في انتهاج هذه الخطة مع المحايدين المتحرجين فيكشف لهم عن الفرض الثاني الممكن في الموقف ، فلقد كان من الممكن بدل أن يقفوا هكذا على الحياد متحرجين أن يسلطهم الله على المسلمين فيقاتلونهم مع أعدائهم المحاربين . فأما وقد كفهم الله عنهم على هذا النحو فالسلم أولى ، وتركهم وشأنهم هو السبيل (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) (٣) .

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي محمد الخضري بك ص ٦٤ .
(٢) سورة النساء آية ٨٧ .
(٣) في ظلال القرآن سيد قطب جـ ٢ ص ٧٣٣ .

ومما ورد في القرآن الكريم من الأنظمة الدولية قاعدة " احترام اراضي المعاهدين وحدودهم الاقليمية " وذلك (أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب ابعاد المنافقين الذين يشتغلون سرا ضدهم قال " الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق " وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وأنها تحمي الواصل اليها) (١) .

ومن الأنظمة الدولية في القرآن الكريم " الرفق بالأسرى والاحسان اليهم " قال تعالى مادحا عباده المؤمنين بسبب اتخاذهم هذا المنهج مع الأسرى " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا " (٢) .

هذه بعض نصوص الأنظمة الدولية في القرآن الكريم وهي كما نلاحظ أنظمة لا يمكن أن يتطاول اليها القانون الدولي الوضعي .

المصدر الثاني : السنة :

ويراد بها أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأفعاله ، وتقريراته وهو في ذلك كله لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم " ألا اني أوتيت القرآن ومثله معه " (٣) واذا ألقينا نظرة على أفعاله صلى الله عليه وسلم ، وعلى منهجه

---

(١) تاريخ التشريع الاسلامي محمد الخضري بك ص ٦٥ .
(٢) سورة النساء آية (٦) .
(٣) رواه أحمد ج ٤ ص ١٣١ .

فى ادارة شئون المدينة وجدنا أن تلك الأعمال لا تخرج عن نطاق أعمال رئيس الدولة الأعلى ، وكان أول عمل قام به صلى الله عليه وسلم عندما جاء الى المدينة - تحقيق وحدة يثرب الوطنية - (حيث أنه صلى الله عليه وسلم وضع دستورا لتنظيم الحياة العامة فى المدينة ، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية ، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم ، وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة . ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب غير هذه الدولة الاسلامية ، فانما تقوم الدول أولا ، ثم يتطور أمرها الى وضع دستور . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ما كاد يستقر فى المدينة ، وما كاد العام الأول من هجرته اليها ينتهى حتى كتب هذه الصحيفة) (١) .

وبعد أن اطمأن صلى الله عليه وسلم على وحدة يثرب الوطنية بدأ فى التفكير فى خطة الدفاع عنها وحمايتها ، وبدأ فى نشر الدعوة المبعوث بها ، وأعلن الحرب على من وقف فى طريق نشر هذه الدعوة وعقد المعاهدات ، والاتفاقيات مع القبائل العربية ، ولما وجد الوقت مناسبا بعث البعوث الى ملوك العالم ، وقادته المعروفين فى ذلك الوقت يدعوهم الى الاسلام ، والدخول فى دعوته ، واستقبل الوفود القادمة اليه ، وكان بعضها قد جاء من أجل الاسلام ، والبعض الآخر يحمل الرسائل ردا على رسائله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مكة والمدينة   احمد الشريف   ص ٣٧٨ .

وكتب الحديث والسيرة مليئة بما يدل على أن السنة مصدر خصب لقواعد الأنظمة الدولية . ولعل في مقدمة تلك الكتب كتاب السير الكبير للفقيه المشهور محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الامام أبي حنيفه رحمهما الله وقد تنبه علماء القانون الدولي لما كتبه هذا الفقيه في كتابه هذا فبدءوا بالأخذ منه ، والرجوع اليه (وقد سبق هذا الفقيه الاسلامي في كتابه هذا كثيرا من فقهاء القانون الدولي المعاصر . خاصة غروسيوس الهولندي الذي عاش في القرن السابع عشر الميلادي والذي يسمى أبا القانون الدولي ، لأنه كتب بحوثا لها صلة بالقانون الدولي فالشيباني يعتبر أسبق منه في هذه الناحية ، وقد أدرك بعض رجال القانون الدولي الدور الذي قام به الشيباني في مجال العلاقات الدولية فأسسوا في مدينة عرتنجن بألمانيا (جمعية الشيباني للحقوق الدولية) (١) .

وكذلك نجد في كتب أئمة الفقه الاسلامي أنهم تطرقوا لهذا الموضوع وللامام ابن القيم رحمه الله كتاب يكاد يكون فريدا في نوعه وهو أحكام أهل الذمة تكلم فيه عن هذا الموضوع .

ولو تتبعنا أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله في كثير من المواقف وهي مسجلة في كتب الحديث والسير لأخذنا منها قواعد وقوانين للأنظمة الدولية تفوق تلك الأنظمة الوضعية .

---

(١) انظر شرح السير الكبير تقديم صلاح الدين المنجد ص ١٤ .

المصدر الثالث : الاجتهاد :

وهو اتفاق مجتهدى علماء الاسلام على حكم شرعى . فقد تتعرض الدولة الاسلامية بعد انقطاع الوحى بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض المشاكل خاصة فيما يتعلق بعلاقاتها مع غيرها من الدول ولا يوجد لتلك المشاكل نصوص صريحة فى الكتاب ولا فى السنة لحل هذه المشاكل . ففى هذه الحالة يتعين اللجوء الى الاجتهاد لاستنباط الحكم الملائم على الأسس المنصوص عليها فى القرآن والسنة ، ومن يرجع الى فقه السياسة الشرعية فى المصنفات التى وضعها علماء السياسة الشرعية المسلمون الأعلام من أمثال الماوردى وأبى يعلى والشيبانى وابن خلدون يجد فيها من القواعد المتعلقة بالعلاقات الدولية الاسلامية استنبطها الخلفاء والعلماء المسلمون بطريق الاجتهاد . فعلينا أن نرجع الى أقوال وأفعال قادة الاسلام وأمرائه ولا سيما الخلفاء الراشدون اذ هم الذين اتسعت على أيديهم رقعة الدولة الاسلامية وحصل لهم اللقاء الأوسع نطاقا مع مختلف الشعوب والقبائل ، وحاربوا من حاربوا وسالموا من سالموا ، وتبادلوا السفراء والرسائل ، وعقدوا الاتفاقيات والعهود وهم فى كل أعمالهم تحروا وحرصوا أن يسلكوا طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رسمه لهم . وهم الذين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنتهم . حيث قال فى الحديث الصحيح " عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى "(١) فلنرجع الى سيرهم لنستن بسنتهم ونقتدى بآرائهم ، ولنبن عليها قواعد علاقاتنا مع الأمم والدول فى هذا العصر الذى أصبحت فيه الأمم والشعوب على اختلاف أجناسها ، وتعدد ألوانها ولغاتها ، وتباعد أوطانها

---

(١) رواه ، ابن ماجة ج ١ ص ٢٠ .

كالعائلة الواحدة فى البيت الواحد ، حاجة الفرد فيه ومصلحته مرتبطة مع الآخرين .

لا يكاد يعيش فرد بدون مساعدة الآخرين (والاجتهاد هو المصدر الوحيد الكفيل بأن ينشىء الأحكام الشرعية الجديدة التى تحكم الأوضاع الدنيوية الجديدة ، أو تلك التى تستجد فى المستقبل ، وأنه هو المصدر الذى يحتفظ بالقدرة على مواجهة الزمان فى تطوره ، والمكان فى اختلافه ، والبيئة فى تنوعها ، والظروف فى تغيرها ، وأنه بذلك يجعل أحكام الشريعة الاسلامية وعلى الأخص فى شئون المعاملات ملائمة مع الواقع ، ومتجاوبة مع الحاضر . ولعل الدليل الأكيد على ذلك يظهر بوضوح كامل فى نطاق الأحكام التى تهدف الى ضبط العلاقات بين مختلف الجماعات الانسانية على اختلاف الزمان والمكان ، وهى تلك الأحكام التى نطلق عليها الآن اصطلاح - القانون الدولى -) (١) .

من هذه المصادر تتضح لنا السياسة الاسلامية فى الشئون الخارجية ونستطيع الوقوف على نهجها وقواعدها ، وأصولها ، وبامكاننا أن نضعها موضع التنفيذ اذا حررنا أنفسنا من قيود السياسة التبعية السياسة التى تعتمد على القهر والظلم والمماطلة ، والتى هى من ايحاء الطبقات الحاكمة فى العصور الغابرة . فهى لا تعدو أن تكون تركة موروثه عن الاستعمار الغربى .

---

(١) أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية د حامد سلطان ص ٨٧ .

وبعد أن اتضحت لنا مصادر السياسة الاسلامية . أشير بصفة موجزة الى مصادر القانون الدولى .

مصادر الأحكام فى القانون الدولى (١)

المصدر الأول.الاتفاقيات الدولية العامة والخاصة التى تضع قواعد معترفا بها صراحة من جانب الدول المتنازعة .

وتكون عامة . اذا كانت بين جماعة من الدول تتفق على انشاء قواعد وأنظمة لحكم علاقة دولية تتصل بمصالح المجتمع الدولى .

وتكون خاصة . اذا كانت بين عدد معين من الدول لا يتعدى أثر هذا الاتفاق سواها من الدول .

المصدر الثانى . العرف الدولى المقبول

يعتبر العرف من أهم مصادر القواعد القانونية الدولية . والمراد بالعرف الملزم مجموعة من الأحكام القانونية التى تنشأ من تكرار التزام الدول لها فى تصرفاتها مع غيرها من الدول . والأحكام العرفية مرنة وتميل الى التطور الدائم ، والنمو المستمر مع نمو العلاقات الدولية .

المصدر الثالث . مبادىء القانون العامة التى أقرتها الأمم المتحضرة .

والمراد بالمبادىء القانونية العامة . مجموعة من المبادىء الأساسية

(١) أنظر مبادىء القانون الدولى العام د محمد حافظ غانم ص ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨١ . وأنظر أيضا أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية د حامد سلطان ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ .

التى تعترف بها النظم القانونية الداخلية للدول المختلفة . والأصل فى هذه المبادئ أنها داخلية ولذلك يستغرب تطبيقها دوليا . لكن الذى يزيل هذا الاستغراب ويدفعه أن دائرة تطبيقها ضيقة جدا . اذ لا يلجأ اليها الا فى حالة فقدان الحكم أو النص ، وعدم وجوده فى نصوص الاتفاقيات ، وما تقر به الأعراف .

المصدر الرابع : " القضاء الدولى ، وآراء كبار المؤلفين "

وهذان المصدران يعتبران من المصادر الاحتياطية حيث أن الحكم بها ليس له قوة الالزام الا بالنسبة لأطراف النزاع ، وفى القضية ذاتها لا يتعداها الى سواها .

ومن هذا العرض يتبين أن الأحكام الاسلامية بكافة ضروبها ، ومختلف أنواعها ومن جملتها أحكام السياسة الخارجية لا يمكن أن تستمد من مصادر خارج الاطار الاسلامى الذى بيناه . على أن هذا لا يمنع من أنه اذا رأى أهل الاجتهاد وأولو الأمر من المسلمين أن نظاما دوليا ما وضعه البشر لبعض المسائل وأن هذا النظام لا يتعارض مع مصالح المسلمين فلا مانع من أن يؤخذ بهذا النظام ، لا على أساس كونه نظاما قانونيا وضعيا ، بل على أساس كونه حكما شرعيا .

البـــــاب الأول

****

الجوانب الرئيسية فى العلاقات الدولية

ويشتمل على ثـــلاثة فصـــول :

الفصل الأول : القواعد الأساسية التى تحكم هذه العلاقات .

الفصل الثانى : المعاهدات فى الاسلام .

الفصل الثالث : الرسل والسفراء فى الاسلام .

الفصل الأول

القواعد الأساسية التي تحكم العلاقات الدولية في الاسلام

أولا : العدل .

ثانيا : المعاملة بالمثل .

ثالثا : الوفاء بالعهد .

رابعا : نصرة الضعفاء .

خامسا : تكريم الاسلام للانسانية واعتبار الناس أمة واحدة .

سادسا : حرية الاعتقاد .

الفصل الأول

القواعد الأساسية التى تحكم العلاقات الدولية فى الاسلام

ان الاسلام وضع قواعد تعتبر هى الأصل فى معاملة المسلمين لغيرهم وعند ما نستعرض نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية فانا نجد فيها ما يشير الى تلك القواعد . على سبيل الاشارة دون التفصيل .

واذا أردنا التعمق والتفصيل . فان فقهاء الاسلام ، وعلماء التاريخ والسير ألفوا الكتب ، والمجلدات فى هذا الشأن ، وسأتكلم عن هذه القواعد فيما يلى بايجاز .

أولا : العدل

العدل : هو الغاية من الحكم فى الاسلام ، وهو القاعدة التى انطلق منها فكر أتباعه ، واتسعت رقعة دولته . والشريعة الاسلامية (عدل كلها ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل الى الجور ، ومن الرحمة الى ضدها ، ومن المصلحة الى المفسدة ، ومن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه) (١) .

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم جـ ٣ ص ٥ .

وقد ورد فى القرآن الكريم الأمر بالعدل ، والنهى عن الظلم ، والتحذير منه فى عدة آيات . ففى مقام الأمر بالعدل يقول تعالى : " واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " (١) .

والخطاب عام لكل من أراد الحكم بين الناس وحل نزاعهم ، والمراد بالناس كل الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم .

يقول سيد قطب رحمه الله فى هذا : (فاما الحكم بالعدل بين الناس فالنص يطلق هكذا عدلا شاملا " بين الناس " جميعا لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب ، ولا عدلا مع أهل الكتاب ، دون سائر الناس وانما هو حق لكل انسان بوصفه " انسانا " وهذه الصفة صفة الناس يلتقى عليها البشر جميعا . مؤمنين وكفار ، اصدقاء واعداء ، سودا وبيضا ، عربا وعجما ، والامة الاسلامية قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت فى أمرهم ، هذا العدل الذى لم تعرفه البشرية قط فى هذه الصورة الاعلى يد المسلمين) (٢) .

ومن المثل العليا فى ديننا الاسلامى ، أنه أمرنا بالعدل حتى مع الاعداء " ولا يجرمنكم شنأن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى " (٣) .

ان قمة العدل هى العدل مع الاعداء ، والعدل مع الاعداء طريق شاق ومرتقى صعب ، اما العدل مع الاصدقاء فقد يكون نتيجة عطف ومودة ، لكن

---

(١) سورة النساء آية ٥٧ .
(٢) فى ظلال القرآن ، سيد قطب جـ ٢ ص ٦٨٩ .
(٣) سورة المائدة آية (٨) .

بم نفسر العدل مع الاعداء ، انه أقرب للتقوى ، وكتب التاريخ تحدثنا عن نماذج رائعة من عدل المسلمين يكاد المرء يحسبها من الخرافات والاساطير لولا صحة تلك الكتب وانه موثوق منها ، وقد سجل اعداء الاسلام تلك الامجاد واشادوا بها وربط عطلتهم تلك النماذج من العدل على الدخول في دين الله ضمن نماذج العدل الرائعة في تاريخ امتنا المجيدة ما تناقلته كتب السير من أن اهل سمرقند (١) ، ادعوا أن قتيبة بن مسلم ظلمهم وغدر بهم اذ فتح بلادهم دون ان يعرض عليهم الاسلام او الجزية ، وبعثوا وفدا بهذه الشكوى الى امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فبعث معهم كتابا الى واليه (ان اهل سمرقند شكوا ظلما وتحاملا من قتيبة بن مسلم عليهم حتى اخرجهم من أرضهم ، فاذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في امرهم فان قضى لهم فأخرج العرب الى معسكرهم كما كانوا قبل ان يظهر عليهم قتيبة ، قال : فأجلس لهم القاضي ، فقضى ان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم وينابذهم على سواء فيكون صلحا جديدا او ظفرا عنوة فقال اهل الصغد (٢) بل نرضى بما كان ولا نحدث حربا وتراضوا بذلك (٣))

اي مثال للعدالة أروع من هذه الامثلة ؟ هل سجل التاريخ ان منتصرا ترك أرضا وشعبا انتصر عليهم ، وخرج بحكم العدالة دون قوة تخرجه متناسيا أرواح جنوده وسائر خسائره وما ذلك الا استجابة لقانون شريعته الذي يوجب عليه ان يعرض على من يريد حربهم قبل حربهم الاسلام ، او الجزية ، أو القتال

---

(١) سمرقند ، بفتح اوله وثانيه ، ويقال لها بالعربية سمران : بلد معروف مشهور ، قيل انه من ابنية ذي القرنين ، معجم البلدان ص ٢٤٧ .

(٢) الصغد : اسم لواد تتع مدينة سمرقند على جنوبيه ،المصدر السابق .

(٣) الكامل : ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٣ .

انه العدل الذى أمر به الاسلام .

يقول الدكتور ، صلاح الدين المنجد : (لم يوصي دين من الاديان بالعدل كما أوصى به الاسلام لان الاسلام اتخذه بعد التوحيد أساسا لشريعته ولم تدلمح الانسانية جمعاء ،ولن تطمح فى عصورها اللاحقة بشيء ارفع من العدل وقد عجزت الاديان والمذاهب الاقتصادية والسياسية فى يومنا هذا عن الاتيان بنظام أساسه العدل الصحيح والحق الواضح يمكن تطبيقه وقد استطاع الاسلام ذلك (١)) .

ومن ابرز المعالم التى تظهر سيطرة روح العدل على الاحكام التى قررتها الشريعة الاسلامية فى التعامل مع اعداء الله نهيه صلى الله عليه وسلم سراياه عن قتل غير المقاتله من أهل الحرب وعن اتلاف الاموال لمجرد الاتلاف بل انما يرخص لهم فى شيء منه لسد حاجتهم من المأكل والمشرب فحسب ، عن انس رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انطلقوا . باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم واصلحوا واحسنوا ان الله يحب المحسنين (٢)) فرسول الله صلى الله عليه وسلم يلفت نظر المسلمين الى معنى دقيق وهو انه انما يسوغ قتال هؤلاء الناس لانهم من شأنهم ان يكونوا حربا علينا وان لم يبتدرونا بذلك ولما كان هذا هو أساس مشروعية الحرب فى حقهم وجب الا توجه مصائب الحرب

---

(١) المجتمع الاسلامى فى ظل العدالة ص ٢٠ صلاح الدين المنجد .

(٢) رواه ابوداود .

من قتل وسفك دم وجرح الى من لا شأن لهم بالحرب ولا مشاركة لهم فيها وهم النساء والصبيان والرهبان العاكفون على عبادتهم .

ثانيا : المعاملة بالمثل

المعاملة بالمثل قاعدة من قواعد الاسلام ، وركيزة من ركائز أنظمته الدولية وهى سبيله فى معاملته للآخرين ، والاسلام لا يقر التعدى ، ولا يجيز تجاوز الحد فى رفع الظلم ورد العدوان ، ويكتفى الاسلام من أجل ردع الظالم وقهر المعتدى بالرد عليه بمثل ما حصل منه دون تجاوز فى ذلك .

وفى سبيل تثبيت هذا المبدأ يقول الله سبحانه وتعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (١) . وهذا يكفى للوقوف فى وجه الظالم وقمع الشر والعدوان ، وكفى بذلك انصافا للنفس وصونا لكرامتها .

ولما مثلت قريش بحمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم ساءه ذلك واحزنه أيما حزن حتى قال صلى الله عليه وسلم : (لن أصاب بمثلك ابدا ما وقفت موقفا قط أغيظ الى من هذا ، ولئن اظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم ، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما فعل بعمه ، قالوا : والله لئن اظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب) (٢) .

(١) سورة الشورى آيه ٣٩ .
(٢) السيرة النبويه ،ابن هشام جـ ٣ ص ٣٩ .

لكن الله تعالى لم يقر رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، ولم يقر أصحابه ، بل حد لهم حدا بموجبه تكون العدالة قال تعالى : " وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " (١) .

تطبيقا لهذه القاعدة ، وانطلاقا من هذا المبدأ " أباح الاسلام الرق في أضيق الحدود وهى حال الحرب اذا كان الأعداء يسترقون اسراهم . فان الرق ما أبيح فى الاسلام على أنه مبدأ من مبادئ الاسلام ، ولذلك لم يرد نص صريح فى القرآن باباحته ، ولم يثبت ان النبى صلى الله عليه وسلم أنشأ رقا على حر فى حياته عليه الصلاة والسلام ، بل استرق الصحابه من بعده صلى الله عليه وسلم على أساس أن الاعداء كانوا يسترقون الاسرى فلابد من أن يعاملوا بالمثل تطبيقا للنص القرآنى الكريم الذى يقرر أن من يعتدى على المسلمين يعامل بمثل صنيعه،وفرق بين رق الاسلام ورق أعدائه (٢) .

على أن هذا الذى ذكرنا انما يمثل جانبا واحدا من جانبى اعمال هذه القاعدة الدولية ، أما الجانب الآخر وهو أن يمنح للدولة الأخرى المتعامله مع الدولة الاسلامية من المزايا ، التجارية والاقتصادية والتيسير على رعاياها - مثل ما تمنحه تلك الدولة الأخيرة للدولة الاسلامية ، فذلك أمر يقرره القرآن الكريم بالنص فى سورة الرحمن قال تعالى : " هل جزاء الاحسان الا الاحسان (٣) " .

---

(١) سورة النحل آيه ١٢٥ وانظر ايضا أسباب النزول للنيسابورى ص ١٩١ .
(٢) العلاقات الدولية فى الاسلام ، محمد ابو زهرة ص
(٣) سورة الرحمن آيه ٦٠ .

ثالثا : الوفاء بالعهد

لقد جاء الاسلام داعيا للسلام ، السلام الذى يقوم على العدل والكرامة السلام مع من يجنح اليه ويترك العدوان ويرد كل ما أخذه عن طريق العدوان ويبدى استعداده للتعايش السلمى مع غيره ، أما السلام مع من لا يزال مغتصبا للحق ومستمرا فى العدوان فهو خضوع للقوى واستسلام لما يمليه من شروطه ، وقد امر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بقبول الموادعة ، وانهاء حالة الحرب واحلال السلام ، اذا رغب الطرف الثانى فى ذلك ، وكان فى الموادعة مصلحة للاسلام والمسلمين قال تعالى : (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم (1)) .

ومن سبل السلام بل من أهم عوامل احلاله المعاهدات ، وهى اتفاق من جانب المتحاربين على انهاء حالة الحرب واخماد نارها ، والمعاهدات قديما وحديثا أداة هامة لفض النزاع واطفاء نار الحرب وتسوية العلاقات ، ولن تؤتى المعاهدات ثمارها الطيبة الا اذا كان هناك احترام وثقة بين الاطراف وعزم أكيد على الوفاء وعدم الغدر .

اذن ما هو موقف الاسلام من الوفاء بالعهد ؟ وما هى الآيات التى قدمها بين يدى المسلمين يدعوهم فيها الى الوفاء بالعهد والالتزام بالعقد ؟

---

(1) سورة الانفال آية ٦٠ .

قال تعالى : وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا (١) وقال جل ذكره " واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون (٢) "

يقول سيد قطب رحمه الله : (وقد تشدد الأسلام في مسألة الوفاء بالعهود فلم يتسامح فيها أبدا . لانها قاعدة الثقة التي ينفرط بدونها عقد الجماعة ويتهدم . والنصوص القرآنية هنا لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهى عن النقض انما تستطرد لضرب الأمثال ، وتقبيح نكث العهد ، ونفى الأسباب التى قد يتخذها بعضهم مبررات .

((ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة . انما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون)) فمثل من ينقض العهد كمثل امرأة حمقاء طائشة ضعيفة العزم والرأى ، تفتل غزلها ثم تنقضه وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة ومحلولة .

ويدخل فى مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقا لما يسمى الآن " مصلحة الدولة فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول ، ثم تنقضها بسبب ان هناك دولة أربى او مجموعة دول اربى فى الصف الآخر ، تحقيقا

---

(١) سورة الاسراء آية ٣٤ .
(٢) سورة النحل آية ٩٠ .
(٣) سورة النحل آية ٩١ .

لمصلحة الدولة . فالاسلام لا يقر مثل هذا المبرر ، ويجزم بالوفاء بالعهد ، وعدم اتخاذ الايمان ذريعة للغش والدخل . ذلك في مقابل أنه لا يقر تعاهدا ولا تعاونا على غير البر والتقوى . ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الاثم والفسوق والعصيان ، وأكل حقوق الناس ، واستغلال الدول والشعوب : وعلى هذا الاساس قام بناء الجامعة الاسلامية ، وبناء الدولة الاسلامية . فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الفردية والدولية يوم كانت قيادة البشرية الى الاسلام) (١) .

ومن حرص الاسلام على الوفاء بالعهد أنه جعل المسلمين في حل من نصرة اخوانهم الذين يقيمون بين ظهور الكفار ، اذا هم طلبوا النصرة والنجدة على قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق قال تعالى : " والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق (٢)" هذه بعض نصوص القرآن وآياته في الحث على الوفاء بالعهود والدعوة الى الالتزام بها .

وأما السنة النبوية فقد حفلت بهذا الأمر في نصوص متعددة كذلك ، واذا استعرضنا كتب السنة والسير وجدناها حافلة بما يدعو المسلمين الى وجوب الوفاء بالعهود والمحافظة على الالتزام بها ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : " لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به " (٣) وما ذاك الا لعظيم جرمه وخسة فعلته ،

---

(١) في ظلال القرآن الكريم جـ ٤ ص ٢١٩١ .
(٢) سورة الأنفال آية ٧٢ .
(٣) متفق عليه .

والوفاء بالعهد يجب أن تلتزم به الدولة مع شعبها والدولة مع الدول الأخرى ، كما يجب أن يلتزم به الأفراد فيما بينهم وبين بعض ، الا انه اذا كانت الدولة طرفا فيه فان الوفاء به الزام والنهي عن الغدر به أشد ، اذ يقول عليه الصلاة والسلام " لكل غادر لواء ، يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته الا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة (١) " ولا يقف صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد من الحث على الوفاء بالعهود بالقول بل انه يجعل من نفسه قدوة للمسلمين في هذا الشأن ، حيث أنه صلى الله عليه وسلم يستمسك بالعهد ويحرص كل الحرص على الوفاء به فلا يكون للعاطفة تأثير على العهد اذ جعل الوفاء بالعهد فوق الرحمة والعاطفة الانسانية وهو الذى وصفه الله تعالى بانه : (بالمؤمنين رؤف رحيم) (٢) وفي قصة ابى جندل بن سهيل بن عمرو ما يشير الى ذلك ، فقد جاء في كتب الحديث والسير أن ابا جندل جاء هاربا من مكة الى المسلمين في المدينة أثناء توقيع صلح الحديبية الذى من شروطه اعادة من جاء من المسلمين من مكة الى المدينة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكم هذا الاتفاق ملزما باعادة أبي جندل الى مكة ، فأمره بالعودة على الرغم من محاولات الاستعطاف من أبي جندل ومن الصحابة عموما الا انه عليه الصلاة والسلام تمسك بالعهد وامر ابا جندل بالعودة ، وامره بالصبر مع وعده له بالفرج العاجل ان شاء الله .

---

(١) احمد ومسلم حديث ١١٢٤ .

(٢) سورة التوبة آية ١٢٧ .

جاء في سيرة ابن هشام (ان سهيل بن عمرو لما رأى ابنه قام اليه فضرب وجهه واخذ بتلبيبه(١) ثم قال : يا محمد ، قد لجت القضية - اى تمت - بيني وبينك قبل ان يأتيك هذا قال صدقت ، فأخذ يجره ليرده الى قريش وجعل ابو جندل يصرخ باعلى صوته ، يامعشر المسلمين أ أرد الى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس الى ما بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ابا جندل اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا واعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله وانا لا نغدر) (٢) .

ويبالغ صلى الله عليه وسلم في الاستمساك بالعهد والحرص على الوفاء به ، ولو كان في ذلك اجحاف في حق المسلمين حيث انه يجب على كل فرد أن يشارك في الدفاع عن الاسلام وأن يكون ساعدا للمسلمين في دفع العدوان .

يقول حذيفة بن اليمان رضى الله عنه (ما منعني أشهد بدرا الا أني خرجت انا وابى حسيل - يعني والده - قال فأخذنا كفار قريش ، قالوا : انكم تريدون محمدا ، فقلنا : ما نريده ، ما نريد الا المدينة ، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لننصرفن الى المدينة ، ولا نقاتل معه فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر ، فقال : انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم ") (٣) .

---

(١) اى جمع عليه ثوبه الذى هو لابسه من عند صدره ثم قبضه وجره اليه .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ ص ٢٠٤ .
(٣) رواه مسلم حديث ١١٢٥ .

هذه تعاليم الاسلام لأتباعه وتوبية النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى وجوب الاستمساك بالعهد والنهى عن الغدر .

رابعا : نصرة الضعفاء

ان من العدالة نصرة الضعفاء ، ورفع الظلم عن المظلومين ، وكف يد المعتدى . ما وجد الانسان الى ذلك سبيلا ، وليس ذلك مقتصرا على الاسلام وحده ، بل هو عام فى جميع الشرائع السماوية . فان الله سبحانه وتعالى أرسل رسله ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، ومن الظلم والجور الى العدل والانصاف . فقد أرسل موسى عليه الصلاة والسلام لرفع الظلم عن بنى اسرائيل ، ودفع الأذى الذى لحق بهم من فرعون وجنوده ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) (١) .

وصدق الله العظيم حيث مَنّ على بنى اسرائيل ، ونجاهم من القوم الفاسقين .

وهذا هود عليه السلام يحذر قومه من البطش والجبروت : " أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين " (٢) .

وهذا شعيب عليه السلام يحذر قومه (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا . . . " (٣) .

---

(١) سورة القصص آية ٤ .
(٢) سورة الشعراء آية ١٢٧ .
(٣) سورة الاعراف آية ٨٥ .

وهكذا شأن بقية الأنبياء مع قومهم . كما أخبر سبحانه وتعالى :-
(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط) (١)

وهكذا نجد أن من أهداف الاسلام السامية . نصرة الضعفاء ، ورفع الظلم عنهم . ففي سورة النساء نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى يحرض المسلمين ويهيب بهم لنصرة اخوانهم من المستضعفين في مكة الذين يقاسون الأمرين من أهل مكة ، وليس باستطاعتهم الهجرة مع من هاجر الى المدينة . فهم يعانون المحنة في عقيدتهم ، والفتنة في دينهم والعذاب في أبدانهم " وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا "(٢) .

ويدعو صلى الله عليه وسلم الى نصرة الضعيف بأى طريق من طرق العدل والانصاف " انصر أخاك ظالما أو مظلوما "(٣) فان كان ظالما لزمك نهيه عن الظلم ، وكف يده عن الاعتداء والأذى وان كان مظلوما لزمك مساعدته ، واعانته على دفع الظلم .

ويحذر صلى الله عليه وسلم من الظلم ، ويخبر أن عاقبته وخيمة اذ هو ظلمات يوم القيامة لعل الظالم ينصف المظلوم من نفسه ، ويكف عنه أذاه ، بل

---

(١) سورة الحديد آية ٢٤ .
(٢) سورة النساء آية ٧٤ .
(٣) رواه الامام البخاري . جـ ٣ ص ١٦٨ .

يذهب صلى الله عليه وسلم فى دعوته الى نصرة الضعفاء الى أبعد من ذلك اذ يحذر من المشى مع الظالم ، ويدعو الى مقاطعته حيث أخبر أن " من مشى مع ظالم فقد أجرم "(١) .

لأن المشى مع الظالم اقرار لظلمه ، وتأييد لعدوانه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشترك فى الجاهلية قبل البعثة مع أعيان من أشرف قريش فى حلف أريد منه التعاون على نصرة الضعيف والمظلوم وقد عرف هذا الحلف ب (حلف الفضول) وقد ظن البعض ان ذلك الحلف قد مضى شأنه لوقوعه فى الجاهلية ولم يعد له قيمة بعد مجئ الاسلام ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشاد به وبين أن له قيمة عظيمة فى نفسه ، وأن مقاصده من مقاصد الاسلام ، وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم (لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ، ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت الى مثله فى الاسلام لأجبت)(٢) .

ولا يقف صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد من التأييد والدعوة لتشكيل الأحلاف على مستوى الجماعة لنصرة الضعفاء ـ بل يقوم بنفسه أيضا لنصرة من يستنصر به ، وقصة الأراشى دليل على ذلك .

يقول صاحب البداية والنهاية : (قدم رجل من أراش(٣) ـ بإبل له الى مكة وابتاعها منه ابو جهل بن هشام فماطله فى أثمانها ، فأقبل الاراشى حتى

---

(١) رواه الديلمى وان كان ضعيفا الا انه صحيح المعنى ، اسنى المطالب ط ٢٣١
(٢) ابن هشام ص ٢٢٤ وانظر مسند الامام احمد جـ ١ ص ١٩٠ .
(٣) أراش ، اسم مكان .

وقف على نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في ناحية المجلس فقال : يامعشر قريش هل من رجل يعديني على أبى الحكم بن هشام فانى غريب وابن سبيل وقد غلبني على حقى ؟ فقال اهل المجلس ترى ذلك - يستهزؤن به - ويشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمون ما بينه وبين أبى جهل من العداوة ، اذهب اليه فانه يعديك عليه فأقبل الأراشى حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقام معه ، فلما رأوه . قام معه قالوا لرجل ممن معهم اتبعه وانظر ما يصنع ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءه فضرب عليه الباب فقال من هذا ؟ قال ، محمد ، فاخرج فخرج اليه وما في وجهه قطرة دم قد امتقع لونه فقال : اعط هذا الرجل حقه قال : لا تبرح حتى اعطيه الذى له . قال فدخل ، فخرج اليه بحقه فدفعه اليه ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للأراشى الحق لشأنك" (١) .

ولا يكتفى صلى الله عليه وسلم بهذا القدر من نصرة الافراد والقبائل ، بل يتعدى ذلك الى نصرة الشعوب المظلومة والأمم المغلوبة على أمرها . فسير الجيوش وعقد الألوية ووسع حركة الجهاد دفاعا عن حقوق الشعوب والأمم المظلومة من قبل حكوماتها التى فرضت عليها عقيدة الشرك واجبرتها على الرضوخ لأوامر وتشريعات البشر وأبعدتها عن شريعة الله ، فالاسلام أوجب الجهاد نصرة لهؤلاء ، وفكا لتلك القيود والأغلال عنهم ودفاعا عن حق الأمم في اختيار العقيدة التى تهديهم اليها النظرة المنصفة غير المتأثرة بعوامل الوراثة او التضليل

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٤٥ .

حتى اذا اصبح الناس على بصيرة من عقيدتهم ، وازيلت عنهم تلك الحواجز والقيود ، عرضت عليهم عقيدة الاسلام بلا اكراه ولا الزام (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

(ان الاسلام لا ينظر فقط الى حماية الدولة الضعيفة من الدولة القوية بل انه يعمل على حماية الشعوب التى أرهقها الطغيان ، وأضعف النخوة فيها الاستبداد ، وقد كانت كتب النبى صلى الله عليه وسلم الى الملوك والقادة متضمنة الدعوة الى الاسلام ومتضمنة النص بان عليهم التبعات فيما يتعلق برعاياهم ، وان عليهم أن يطلقوا حرياتهم ، ليفهموا الاسلام فيعتنقوه ان أرادوا مختارين ، ولذلك جاء فى رسالته صلى الله عليه وسلم الى هرقل " اسلم تسلم " والا فعليك اثم الأريسيين ، والاريسيون هم العمال والزراع وغيرهم من الرعايا الذين لا سطوة لهم ولا قوة فى توجيه الدولة (١) ".

خامسا : تكريم الاسلام للانسانية واعتبار الناس أمة واحدة

ان الانسان هو اللبنة الأساسية والقاعدة الرئيسية فى تكوين الجماعة ، ونشأة المجتمع ذلك المجتمع الذى تتكون منه الأمم والدول ، ومنزلة الانسان فى الشريعة الاسلامية منزلة عظيمة ومكانته مكانة عالية " ولقد كرمنا بنى آدام وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " (٢) .

---

(١) العلاقات الدولية فى الاسلام ، محمد ابو زهرة ص ٤٣ .
(٢) سورة الاسراء آية ٧٠ .

ان هذه الكرمة الالهية والمنحة الربانية ينالها الانسان مكرا ، ينالها قبل أن يكون ، ثم هي تلازمه وتلتصق به التصاق روحه بجسده ، ولقد حث الاسلام الآباء ، قبل أن يكونوا آباء ، على أن يختاروا لنطفهم " وان ينكحوا الاكفاء " (١) وما ذلك الا تكريما لتلك البذرة ، التي هي منشأ الانسان وأساس تكوينه ، واكرمه وهو جنين في بطن أمه اذ أوجب له حقوقا وكفل له الحماية ، ونهى عن اسقاطه بغير حق ، او التعدى عليه ثم وهب له العقل ليميز بين ما ينفعه فيجلبه ، وبين ما يضره فيدفعه وسخر له ما في السموات والارض ليعمر ويبني ويأخذ ويعطي .

وهذه الكرامة لا تختص بطائفة دون أخرى أو بجنس دون آخر انما هي للناس جميعا ذكورا كانوا أم اناثا ، سودا أم بيضا ، عربا أم عجما ، مسلمين كانوا أم كفارا ، أحياء أم امواتا .

(ولقد مرت جنازة ، فوقف لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له ، انها جنازة يهودى فقال عليه الصلاة والسلام ، أليست نفسا (٢)) .

هذه الكرامة التي كرم الله بها الانسانية في كل فرد من أفرادها هي الاساس الذى تقوم عليه العلاقات بين بني آدم ، هذه الكرامة التي جعلها الاسلام درعا واقيا يدرأ بها عن الانسانية نزوات الطغاة والجبابرة ، هل اشعر الاسلام بها الضعفاء والمستضعفين ؟

---

(١) انظر: ابن ماجه جـ (ص ٦٠٧ .
(٢) رواه البخاري .

ان الكرامة نفسها شئ والشعور بها شئ آخر ، والشعور القوى الحاد شئ ثالث حسن جميل ان تقرر الحق لأربابه وتوضح لهم معالمه ، ولكن أحسن وأجمل ان تمهد لهم طريق حمايته وان تجعل صورته فى نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به ، فهل وضع الاسلام شيئا لكى يغرس فى نفوس الافراد ويوقد ناره فى قلوبهم .

نعم ان الاسلام لم يكتف بان عرف كل فرد حقه نظريا فى هذه الحصانة الانسانية ولكنه أخذ يهيب به ان يدافع عن هذا الحق ولفق يحرضه أشد التحريض على ان يقاتل دونه وان يضحى بنفسه فى سبيله .

ألا فلنسمع صوت نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم " من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد "(١) ، هل سمعت أقوى من هذا الهابا وتحريضا ؟ بل لنسمع الى كتاب الله حين ينعى على المستضعفين اخلادهم الى الذل طمعا فى الاسلام ، ورضاهم الذلة والهوان خوفا من فراق الأوطان " ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فؤلئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " (٢)

هل سمعت أشد من هذا وعيدا وتهديدا (٣) .

---

(١) سنن ابى داود .

(٢) سورة النساء آية ٩٦ .

(٣) دراسات اسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية/ محمد عبد الله دراز ص ٣٤ .

وتأكيدا لكرامة الناس جميعهم يقرر الاسلام ان الناس كانوا أمة واحدة أبناء أب واحد وأم واحدة ، هما آدم وحواء عليهم الصلاة والسلام ، ثم زاد تعدادهم وتباعدت اوطانهم واختلفت لغاتهم واصبحوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ويتكاتفوا او يكونوا يدا واحدة للاصلاح والاعمار وجلب النافع ودفع الضار ، وهذا التنوع بين بنى الجنس الواحد لا يقتضى التنازع والشقاق بل يقتضى التعاون والوفاق فليس لاحد ان يطغى على احد ولا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود الجميع سواسية كأسنان المشط .

ان هناك ميزانا يحصل به التمايز والتفاضل والتقديم والتأخير بين الناس ذلكم هو ميزان التقوى والسبق الى الاسلام " ان اكرمكم عند الله أتقاكم "(١) .

(ولقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى سبيل تقرير هذه الحقيقة وتثبيتها فى النفوس يقدم المؤمنين ذوى السبق فى الاسلام على غيرهم ، ومما يروى فى ذلك أنه أستأذن عليه بلال الحبشى وابو سفيان الزعيم القرشى فدخل الأذن يقول فى الباب ابو سفيان وبلال فغضب الفاروق لتقديم اسم ابى سفيان على بلال وقال لاذنه : قل ، بالباب بلال وابو سفيان واذن لبلال ولم يأذن لابى سفيان ولطأطأ لها القرشى لانه مبدأ من مبادىء الايمان "(٢)) .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٢) العلاقات الدولية فى الاسلام - محمد ابو زهرة ص ٢٢ .

سادسا : حرية الاعتقـــاد

ان المتتبع لاسباب الحروب ، ودواعي الاختلاف بين الشعوب يتبين له ان مصدر ذلك هو الاختلاف في الدين فكل يرى انه على الحق والصواب وغيره على الباطل والخطأ ويحاول بكل ما أوتى من قوة اجتذاب الناس الى عقيدته سواء قنعوا بصحة شريعته وصلاحيتها ام لم يقتنعوا ، وكأنه غاب عن بالهم ان اختلاف الناس في مللهم وتفاوتهم في عقائدهم سنة من سنن الله في خلقه ، ولولا اختلاف الناس في العقائد والأديان لما كان هناك جنة ونار (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) (١) .

لقد أعلن الاسلام حرية الاعتقاد وكفلها للناس جميعا في اطار الايمان بالله وحده ، أما من اراد ان يختط لنفسه منهجا دينيا ، ويشرع للآخرين بارادته بعيدا عن الاديان السماوية والصحف الالهية فلا مكان له في شبر من أرض الاسلام ولا يبيح الاسلام لاتباعه افساح المجال لاولئك فاما الاسلام واما السيف فلا اقرار للشرك او انكار الألوهية بحال .

أما أسلوب الاسلام مع اصحاب الاديان السماوية فانه نهى عن استعمال الاكراه لحملهم على الدخول فيه " لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " (٢) لكن الذى يجب على المسلمين حكاما وشعوبا هو ازالة الحواجز التي تحول دون بيان الحق للناس فاذا تبين للناس الرشد من الغي والحق من الباطل فهم بعد ذلك بالخيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

---

(١) سورة هود آية ١١٨ .
(٢) سورة البقرة آية ١٥٠ .

ولقد كفل الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود حرية الاعتقاد كما هو صريح في العهد الذى بينه وبينهم اذ فيه " لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"[1].

وقد بلغ صلى الله عليه وسلم فى سبيل تطبيق هذا المبدأ أعنى مبدأ حرية الاعتقاد مبلغا رائعا حيث انه لما قدم وفد نصارى نجران الى المدينة ودخلوا عليه فى المسجد فلما حان وقت صلاتهم ، وقاموا لأدائها لم يحاول منعهم من الصلاة أو اخراجهم من المسجد ، بحجة ان دينهم مخالف لدينه او ان دينه يمنع غيره من الانتساب الا اليه بل على العكس من ذلك نراه لما حاول بعض الصحابة منعهم واخراجهم نهاهم صلى الله عليه وسلم ، وأمر بتركهم يقيمون صلاتهم فى مسجده[2] ، ان هذا الموقف منه صلى الله عليه وسلم من أروع الامثلة التى يستشهد بها على حرية الاعتقاد فى الاسلام وكان صلى الله عليه وسلم اذا سير جيشا امرهم قبل اعلان الحرب على من يريدون حربهم ، دعوتهم اولا الى الاسلام ، فان امتنعوا عن الدخول فى الاسلام ، واصروا على البقاء على دينهم فلهم ذلك بشرط دفع الجزية ، والا لزم حربهم " عن بريدة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أمر اميرا على جيش او سرية او صاه فى خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال : " اغزوا بسم الله ، فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا فلا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فأتيهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الاسلام ، فان أجابوك فاقبل منهم ،وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واخبرهم انهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٢) انظر ابن سعد جـ ١ ص ٣٥٧ .

المهاجرين فان ابوا ان يتحولوا منها فأخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم ابوفسلهم الجزية ، فان هم اجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ، فان هم ابو فاستعن بالله وقاتلهم" (١)

ان فى تلك الوصايا منه صلى الله عليه وسلم لقادة جيوشه ردا على من يقول ان الاسلام يرغم الأخرين على الدخول فيه .

يقول الشيخ محمد الغزالى (الاسلام ما قام يوما ، ولن يقوم ابدا على اكراه ، لانه واثق من شىء واحد من نفاسة تعاليمه وجودة شرائعه ، كل ما يبتغى من الناس ان يجد مكانا فى السوق العامة يعرض فيها ما لديه على العيون المتطلعة ، والبصائر الناقده ، فاذا لم تكن جودة الشىء هى التى تغرى بالاقبال عليه وقبوله فلا كان قبولا ولا كان اقبال ، وهذا سر قانونه الوثيق " لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم " (٢) .

وفى عراك الاحياء على ظهر هذه الارض لشتى الاسباب قد يجر الاسلام جرا لقتال لم يشعل ناره ، اتظنه اذا انتصر فى هذا القتال ، وامكنته الفرص من وضع الاغلال فى اعناق عبدة الاصنام اتظنه يفعل ذلك ، ويلزمهم بترك شركهم واعتناق عقيدة التوحيد ؟ لا .

---

(١) صحيح مسلم ١١١١ .
(٢) سورة البقرة آيه ٢٥٦ .

يقول الله عز وجل لنبيه " وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه (١) " انه لم يقل ، فاذا سمع كلام الله قهره فليترك دينه الخرافى وليتبع دينك الحق ، لا . اطلق سراحه ورده أمنا الى وطنه ، واذا أحسب ان يدخل فى الاسلام بعد جاءت به قدماه اليك طائعا لا كارها ، ولم ذلك الارجاء والترك " ثم ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون " فيجب اذا ان يتاولوا حتى يعلموا فاذا علموا الدين فسوف يدخلونه .

اذا كان الاسلام يعاب بشىء فهى المثالية الغريبة فى تقرير حرية الاعتقاد اذ انه يتشبث بهذه الحريه المطلقة فى عالم مشحون بانواع الفتن والاضطهاد وقد أصيب أتباعه بضر شديد من حدة هذا التعصب ، ومع ذلك فان مبدأ المعامله بالمثل لم يدخل فى سياسته العامة (٢) ولم ينتقص اطراف الحرية الواسعة التى رسمها اللمه للدخول فيه .

وقد حاول السلطان العثمانى سليم الاول ، ان يوحد الدين فى مصر وان يكره الآخرين على الدخول فى الاسلام ، ولعل ذلك كان ردا سياسيا على توحيد الدين فى أسبانيا واستئصال شأفة الاسلام من أرضها ، لكن شيخ الاسلام رفض هذا العمل وابى الا ان تكون حرية الاعتقاد على منهجها

---

(١) سورة التوبة آية ٦ .

(٢) أحب ان استدرك على ما قاله من ان مبدأ المعاملة بالمثل لم يدخل فى سياسة الاسلام العامة غير صحيح على الطلاقه ، بل هو لم يدخل فى سياسة الاسلام فى الامور التى يتناقض فيها مع مبدأ أساس من مبادئه فعند اذن يعمل بالمبدأ الاساسى ولا يلتفت الى مبدأ المعاملة بالمثل .

الاسلامى السمح مهما صنع الآخـــرون (١) " .

هذا هو رأى الاسلام الواضح ومنهجه السمح فى مبدأ حريـــــــة الاعتقـــاد ، افيبق مجال بعد ذلك لادعاء المدعين وزور المفترين عليـــــــه فى هذا الســـــبيل .

---

(١) هذا ديننـــا ، محمد الغزالى ص ٤٧ .

الفصـــل الثـانى

المعاهدات فـي الاســـــــلام

يشتمل هذا الفصـــل على :ـ

١ - تعريف المعاهدات .

٢ - مشروعيتهــــا .

٣ - شروط الوفاء بهــا .

الفصل الثانى

المعـــــاهدات

تعريف المعاهدات :

عندما نستعرض كتب الفقه نجد أن الفقهاء عرفوا عموم المعاهدات بأنها اتفاق بين طرفين ، اما افرادا أو جماعات أو دولا ، على أمر يلتزمونه فيما بينهم لمصلحة مشتركة .

واذا استعرضنا لفظ المعاهدات فى القرآن الكريم ، وكتب الفقه الاسلامى ، وجدناه أكثر ما يطلق على الاتفاق الخاص بالقتال ومشاكل الحروب .

وفى القانون الدولى يقول الدكتور ابو هيف : (والاصل فى رأى الكثيرين من الكتاب أن ينصرف لفظ معاهدات بصفة خاصة الى الاتفاقات الدولية الهامة ذات الطابع السياسى كمعاهدات الصلح والتحالف وما شابهها (١) .

والذى يهمنا فى هذا الموضوع هو المعاهدات الخاصة بالهدنة من الحرب ، دون غيرها من العهود والاتفاقات ، والسبب فى ذلك ان تأثير الحرب والسلم على العلاقات بين الدول أكبر من تأثير غيرها .

ومما يؤكد أهمية معاهدات الحرب والسلم ، أن بعض الفقهاء ، قد حصر المعاهدات فيها وقصرها عليهما ، يقول ابن قدامة : (المعاهدات هى أن

(١) القانون الدولى العام/ د ابو هيف ص ٥٢٣ .

يعقد لأهل الحرب عقدا على ترك القتال مدة بعوض وبغير عوض وتسمى موادعة ومعاهدة (١) .

وعرفها صاحب بدائع الصنائع بأنها ، الصلح على ترك القتال (٢) .

مشروعية المعاهدات :

جاء الاسلام داعيا الى السلام ، الى السلام الذى يقوم على العدل والكرامة والانصاف ، وليس هناك دين دعا الى السلام ، والى تدعيم أسسه وبناء قواعده كما دعا اليه الاسلام ، واذا كانت المعاهدات من قواعد السلام ومن أسس بنائه فان الاسلام أقرها ودعا اليها ، واذا استعرضنا القرآن الكريم وجدنا فيه من الآيات ما يدل على مشروعية المعاهدات وجواز موادعة الدولة الاسلامية لغيرها من الدول . قال تعالى : (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) (٣) .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية منسوخة ، والناسخ لها قوله تعالى : " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم" (٤)

الا ان الامام الشوكانى ذهب الى عدم النسخ اذ يقول عند الكلام على هذه الاية : " واختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة ،

---

(١) المغنى لابن قدامه جـ ١٠ ص ٥١٧ .
(٢) بدائع الصنائع جـ ٧ ص ١٠٨ .
(٣) سورة الانفال آية ٦١ .
(٤) سورة محمد آية ٣٥ انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٤٠ .

فقيل انها محكمة ، وانها ناسخة لقوله - وان جنحوا للسلم فاجنح لهـــــا - وقيل منسوخة بهذه الآية - ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ فان اللـــه سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا الى السلم ابتداء ولم ينـه عن قبول السلم اذا جنح اليه المشركون ، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج الى دعوى النسخ أو التخصيص" (١) .

والحق فى ذلك والله اعلم ، أنه فى حالة طلب الكفار للمعاهدة واحلال السلام فانه يجوز للمسلمين قبول طلب الكفار ، ولا سيما وأن الكفار لن يتقدموا بطلب للسلام الا وهم فى مركز الضعيف ، حيث ان المنتصر غالبا لا يطلب ايقاف الحرب بل يرغب فى التمادى فيها الى ان يحقق كل مراده ، فاذا طلب الكفار من المسلمين المعاهدة لاحلال السلام فان المسلمين مأمورون بقبول ذلك الطلب لأنه سيكون فى صالحهم حيث أنهم فى مركز القوة وسوف يحققون مرادهــــم بدون حرب اذ أنهم سيملون شروطهم على الطرف الثانى فان قبلها والا فــــلا عهد ولا ميثـــاق .

أما فى حالة علو المسلمين وقوتهم فلا يحق لهم التقدم بطلب للســـلام ، كما هو نص آية سورة محمد قال تعالى : " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنـــتم الاعلون " قال ابن كثير : " اى فى حال علوكم على عدوكم فأما اذا كان الكفـــار فيهم قوة وكثرة بالنسبة الى جميع المسلمين ورأى الامام فى المهادنة والمعاهـــدة

---

(١) فتح القدير ، الشوكانى جـ ٥ ص ٤١ .

مصلحة فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه الى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم صلى الله عليه وسلم الى ذلك "(1) .

ومن نصوص القرآن الدالة على مشروعية المعاهدات قوله تعالى : " الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين " وقوله " الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين "(2) وغير هذه الآيات آيات كثيرة تدعو الى الالتزام بالعهود والوفاء بها .

واذا استعرضنا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدناها هي الأخرى تدل على جواز ارتباط الدولة الاسلامية مع غيرها من الدول بمعاهدات ، فمن ذلك انه صلى الله عليه وسلم عاهد اليهود ووادعهم عندما قدم الى المدينة ، ووادع كذلك بني ضمرة ، وكذلك وادع قريشا في الصلح المعروف بصلح الحديبية (3) .

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٨١ .

(2) سورة التوبة آية ٤ ، ٦ .

(3) البخارى جـ ٥ ص ١٥٥ وابن هشام جـ ٢ ص ١٠٦ وابن سعد جـ ٢ ص ٨ .

شروط الوفاء بالمعاهدات :

الشرط الأول : ولاية المتعاقدين بثبوت سلطتهما واختصاصهما لمباشرة المعاهدات باسم الدولة فلا يكون الاتفاق مشروعا ولا يسرى مفعوله الا اذا صدر عن الرئيس الاعلى او من ينوب منابه ، لأن هذه المعاهدات وهذا الاتفاق يعتبر امانا عاما " ولا يجوز عقد الهدنة الا من الامام أو نائبه لأنه عقد مع جملة الكفار وليس ذلك لغيره (١) " وايضا لا يقبل اقرار الطرف الثانى الا اذا كان الرئيس الأعلى للدولة ، أو مفوضا من قبله ومخولا التوقيع باسم الدولة .

الشرط الثانى : يجب أن تعقد المعاهدة عن رضا واطمئنان واختيار تام من طرفى العقد ، والا يصحب عقدها ضغط ، أو يشوبها اكراه مادى أو معنوى ، فاذا حدثت ظروف ساعدت غير المسلمين على فرض معاهدة على المسلمين تحت ضغط السلاح او فى ظل قهر الظروف المحيطة بالمسلمين مثلا ، وأرغم المسلمون على قبولها لذلك ، فمن حقهم اذا زالت الظروف القاهرة - بل من واجبهم اذا أنسوا من أنفسهم قوة ان يفسخوا هذه المعاهدة كما حدث بين أمير المؤمنين معاوية والروم ابان الحرب الأهلية بين أمير المؤمنين على وأمير الشام معاوية رضى الله عنهما وضغط ظروف الحرب الأهلية على معاوية ، الأمر الذى حمله على ان يصالح الروم على مال سنوى يدفعه اليهم ،فلما خلص الأمر لمعاوية واستقامت أموره والتفت حوله الامة القى الى الروم بعهدهم ، وجالدهم على السيادة ،وذلك

---

(١) المغنى ، ابن قدامه ج ١٠ ص ٥٢٠ .

لان هذا العهد مع ما شرطه للروم من جزية على المسلمين يناقض اصلا من اصول الاسلام وهو العزة والسيادة التي اوجبها الله للمؤمنين ، واذا كانت الضرورة قد اكرهت معاوية على قبول هذه الذلة فان الضرورة تقدر بقدرها (١) .

الشرط الثالث : يجب ان تكون المعاهدة متفقة مع مبادىء الاسلام ، فلا تحل حراما ولا تحرم حلالا ، وان لا تتضمن شرطا فاسدا .

وفى الحديث " اى شرط ليس فى كتاب الله فهو رد وان كان مائه شرط (٢) .
وفى حديث آخر " المؤمنون على شروطهم الا شرطا أحل حراما او حرم حلالا " ، فان تضمنت المعاهدة نصوصا تخالف ذلك فهى باطلة كما لو شرط الطرف الثانى على المسلمين ان يقيم له قواعد عسكرية فى أرض المسلمين ، أو ان يتنازلوا عن جزء من أقليم الدولة الاسلامية أو ان يقفلوا باب الهجرة فى وجوه المهاجرات المسلمات ، واما المهاجرون من الرجال فالراجح جواز قبول مثل هذا الشرط ، وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم قبله ونفذه فى صلح الحديبية فى قصة ابى جندل وغيره .

وذهب بعض الاحناف وبعض الشافعية الى ان جواز قبول مثل هذا الشرط منسوخ والناسخ له حديث " انا برىء من كل مسلم يقيم بين المشركين " (٣) . وبناء على ذلك لا يحق للمسلمين قبول مثل هذا الشرط ، قال ابن القيم اثناء

---

(١) الفقه السياسى عند المسلمين ، محمود فياض ص ٦٩ .
(٢) صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٥١ .
(٣) انظر نيل الاوطار ، ج ٨ ص ٥٢ والمغنى ج ١٠ ص ٥٢٤ .

استعراضه لفوائد صلح الحديبية الفقهية : " ومنها جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم الى المسلمين وان لا يرد من ذهب اليهم من المسلمين هذا في غير النساء ، واما النساء فلا يجوز اشتراط ردهن الى الكفار وهذا موضع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن ولا سبيل الى دعوى النسخ في غيره بغير موجب(١) .

يتبين لنا بعد ذلك ان الارجح والله اعلم جواز قبول شرط عدم السماح بالهجرة للرجال لان الغالب ان المصلحة في بقائهم بين اظهر الكفار ، ولا فائدة لدولة ما من وجود افراد غير مقرين لها بالولاء والاذعان ، فيكون مثل هذا الشرط في الغالب كسبا للدولة الاسلامية كما حصل في الحديبية .

الشرط الرابع : يلزم أن تكون المعاهدة مؤقتة بمدة معلومة لا تتجاوز عشر سنين لان النبي صلى الله عليه وسلم صالح قريشا على وضع الحرب عشر سنين ، وهذه المدة كافية لكي تستعيد الدولة الاسلامية قواها وتتأهب لحمل رايتها وتثبيت دعوتها ، فان لم تكف هذه المدة فلا خير في هذه الدولة ولا خير في شعبها المسلم ، لأن هذا ناتج عن خلل في العقيدة ، وأما التأبيد فقد نقل الامام الطبري اجماع الفقهاء(٢) على عدم جواز ذلك وانه لابد من تحديد المدة بعشر سنوات فأقل ، والسبب في منع التأبيد لأن فيه تعطيل للجهاد ،

---

(١) زاد المعاد ، ابن القيم جـ٢ ص١٢٩ .
(٢) انظر ، اختلاف الفقهاء للامام الطبري - كتاب الجهاد - ص١٤ .

واذا كان تحديد المدة راجعا الى نظر الامام ، فالذى أراه أن يحدد المدة بأقل من عشر سنوات بسنتين مثلا أو بثلاث فان رأى فى المسلمين قوة تمسك بهذه المدة ولم يزد عليها ، وان رأى ان المسلمين لم يتمكنوا من تقوية أنفسهم طلب الزيادة على المدة المحددة . أى طلب تجديد المعاهدة .

الشرط الخامس : يجب أن تكون المعاهدة واضحة النصوص محكمة البيان لا مجال فيها لمخادع ولا مدخل فيها لمؤول ، محددة المطلوب من كل طرف ، فان شابها غموض او خفاء فى بعض بنودها او كانت بعض كلماتها مرنة تقبل التفسير من كل وجه وتخضع للتأويل حسب المصلحة فان الاتفاقية تعتبر لاغية " وما أصيبت معاهدات الدول المعاصرة التى تزعم السعى الى السلم ، بالاخفاق والفشل الا عن هذا الطريق طريق الغموض والالتواء فى نصوص المعاهدات وفى التحذير من هذا يقول تعالى : " ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم " (١) ووجه الاستدلال بهذه الآية ان قوله تعالى : " ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم " جاء توكيدا لقوله تعالى : " ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم " التى تدل على حرمة اتخاذ العقود والايمان والعهود ستارا للخدعة والفساد وظاهر الآية انه عام فى كل يمين وعهد وعقد " (٢) وجاء فى كتاب على بن ابى طالب الى الاشتر النخعى فى الحض على وضوح نصوص المعاهدات (لا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد

---

(١) سورة النحل آية ٩٤ .
(٢) المعاهدات الدولية فى الشريعة الاسلامية ، اياد هلال ص ٦٠ .

عقدا تجوز فيه العلل ولا تحولن على لحن القول بعد التأكيد والتوثقة (١) .

الشرط السادس : يجب ان تكون المعاهدة لمصلحة الاسلام والمسلمين ، بأن يكون بالمسلمين ضعف مثلا فيها دون الامام الأعداء حتى يقوى المسلمون ويتأهبوا للجهاد ، أو أن تكون المصلحة تدعوا الى المهادنة من أجل ان يختلط دعاة الاسلام بشعب الدولة المهادنه ليفهموهم الاسلام ويدعوهم اليه ، وتقدير المصلحة راجع للامام ولا ينبغى أن يستبد الامام برأيه فى مثل هذه الأمور الخطيرة ، بل عليه ان يأخذ برأى أولى الأمر من العلماء ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما استشار الأنصار عام الاحزاب . قال ابوعبيد : " انما تكون الموادعة بين المسلمين وأهل الشرك اذا خاف الامام غلبة منهم على المسلمين ولم يأمن على هؤلاء ان يضعفوا ، أو أن يكون يريد بذلك كيدا (٢) فأما اذا لم يخف ذلك فلا ، وذلك لأن الله تعالى يقول : " ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الأعلون والله معكم " وكذلك لو خاف من العدو استعلاء على المسلمين فاحتاج الى أن يتهم بمال يدرؤهم به عن المسلمين فعل . كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب انما الامام ناظر للمسلمين " (٣) .

---

(١) الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام ، على على منصور ص ٣٦٠ .

(٢) اى جمعا لقوة المسلمين واستكمالا لاستعدادهم حتى يأنس منهم القدرة على منازلة عدوهم .

(٣) كتاب الاموال ، لأبى عبيد ص ٢٣٤ .

الشرط السابع : ان تكتب المعاهدة باللغة العربية لأنها لغة القرآن وهي اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ، ولأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما راسل ملوك العالم وقادته بعد صلح الحديبية راسلهم باللغة العربية ولم يكتب لهم بلغتهم على الرغم من أن هناك من يستطيع أن يكتب للقوم بلغتهم جاء في الحديث عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "انها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية او قال السريانية ، فقلت نعم فتعلمتها في سبع عشرة ليلة (١) وكذلك فان الرسل الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتحدثون بلغة القوم الذين بعثوا اليهم كما يظهر ذلك من كلام ابن سعد (٢) والغالب أن من تحدث بلغة قوم فانه يستطيع كتابتها ، ومن الافضل ان تكون الكتابة من نسختين يحتفظ كل طرف بواحدة وأن يشهد عليها رجال من الطرفين كما حصل في صلح الحديبية (٣) ومن الأفضل كذلك أن تترجم نسخة الطرف الثاني الى اللغة المعتبرة عنده ليكون ذلك ادعى الى فهم ما حصل الاتفاق عليه ولو فرضنا ان مندوب الطرف الثاني عربي او يجيد اللغة العربية الا أن ذلك من التحفظ المطلوب في مثل هذه الأمور .

---

(١) صحيح البخاري جـ ٩ ص ٥٤ ومسند الامام أحمد جـ ٥ ص ١٨٢ .
(٢) ابن سعد جـ ١ ص ٢٥٨ .
(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠٤ وامتاع الاسماع ص ٢٩٨ .

الفصل الثـالث

الرسل والسفـراء فى الاســلام

أولا : تاريخ التمثيل السياسى وعكسه فى الاســلام .

ثانيا : موقف الاسلام من امتيازات الممثلين السياسيين .

ثالثا : صفات السـفراء .

رابعا : الأصـل فى العلاقات بين الدولة الاسلاميـة وغيرهـا من الـدول .

الفصل الثالث

الرسل والسفراء فى الاسلام

أولا - تاريخ التمثيل السياسى وحكمه فى الاسلام :

ان قيام الدول فى العصر الحديث بتبادل السفراء ، واقامة السفارات الدائمة فيما بينها ، لم يكن معهودا على هذه الصفة فى العصور القديمة حيث أنهم كانوا يكتفون بارسال رسول لمهمة خاصة سرعان ما يؤديها ويعود الى بلاده .

وذلك لأن المصالح بين الدول لم تكن مرتبطة مع بعضها ارتباطا وثيقا فكل مستغن عن الآخر ، وكانت الاتصالات فيما بينهم غالبا ما تكون نتيجة أحد أمرين :

اما الاعلان عن اشتعال نار حرب او الرغبة فى اطفائها ، أما المصالح الاقتصادية والروابط الدينية والاجتماعية فقل ما يقيمون لها شأنا ، يدعوهم الى ارسال الرسل وتبادل السفراء .

واما الوضع الحاضر للسفارات والسفراء من حيث الديمومة والأنظمة والشروط ، فهو وليد القرن السادس عشر الميلادى ، ثم أخذ بالنمو والتطور الى أن وصل الى ما وصل اليه الآن من حيث اقامة السفارات الدائمة والسفراء المقيمين ومن حيث حرص كثير من الدول واهتمامها البالغ بجعل سفير لها فى كل دولة من الدول ، وهذا السفير يرأس بعثة تقل وتكثر بناء على الاعمال

التى تضطلع بها السفارة (١) .

والأعمال التى يزاولها السفير كثيرة جدا ، منها الظاهر ومنها الخفى اذ هو يتتبع سياسة حكومة الدولة المبعوث اليها ، ويرقب تحركاتها العسكرية ، ويتعرف على مواردها الاقتصادية ، ويدرس حالتها الاجتماعية ويحاول التأثير على عقائد شعبها الدينية ان كانت لا تتفق وعقيدة دولته ، ويحاول التأثير عليهم بكل شىء يرى أنه لصالح بلاده ،اذ مصالح بلاده فى المقدمة أو هى الأولى والاخيرة فى الاعتبار ، أما الدولة المضيفة فهو غير معنى بمصالحها الا فى حدود ما تقتضيه مصالح بلاده واتجاهها السياسى ، وقد لا تجنى الدولة المضيفة من وراء السفير الا ما يضرها .

واذا كانت اقامة السفارات وتبادل السفراء يعتبر تعبيرا عن علاقة الود والصداقة بين الطرفين ، ومسالمة واقرار كل واحد منهما للآخر فى حكمه فما هو حكم الاسلام فى مثل هذه العلاقات ؟

ان الاسلام فى الاصل لا يقر الدول الكافرة ولا يعترف لها بالشرعية الا فى حالات استثنائية موقوتة والسبب فى ذلك : (ان الدول غير الاسلامية لا تقوم على أساس الاسلام ولا تتخذ اهدافه اهدافا لها ولا شرعته قانونا لها ، ومن ثم فهى فى نظر الشريعة الاسلامية كيان باطل قام على اساس باطل وما كان هذا شأنه ووضعه لا يمكن ابدا ان تعترف به الدولة الاسلامية اعترافا

---

(١) القانون الدولى العام : د / ابوهيف ص ٤٨٣ . ومبادىء القانون الدولى العام / د حامد سلطان ص ١٦٣ .

شرعيا [1] ولأن الله تعالى يقول : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) [2] .

واذا كان الاسلام لا يعترف بالدول الكافرة الا بحكم الواقع ، فانه مع ذلك لا مانع من اقامة علاقات بين الدولة الاسلامية والدول الكافرة ، وأن يتعامل معها على ما فيه مصلحة الطرفين ، بشرط عدم الاعتداء على الاسلام ،أو المساس بحقوق المسلمين ، اذ المهم في الاسلام اولا وأخيرا ، العقيدة ـ فما لم تمس بسوء ، وما لم يعترض طريقها ، فلا مانع من البر والاحسان والتعاون في جلب النافع ودفع الضار ، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون [3] .

وقد تكلم المفسرون في هذه الآية فمنهم من قال بأنها محكمة غير منسوخة ، ومنهم من قال : بأنها منسوخة والناسخ لها آية السيف وهي قوله تعالى : " فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم [4] " .

وذكر صاحب تتمة ـ اضواء البيان ـ أقوال الطرفين وأدلتهم ثم توصل أخيرا الى القول بعدم النسخ وأن هذه الاية محكمة غير منسوخة ، لأن من شروط

---

(١) مجموعة بحوث فقهية ، د / عبد الكريم زيدان ص ٥٢ .
(٢) سورة الانفال آية ٢٨ .
(٣) سورة الممتحنة آية ٧ .
(٤) سورة التوبة آية ٤ .

النسخ التعارض وعدم امكان الجمع ، ولا تعارض هنا ، والجمع ممكن " وذلك لأن الأمر بالقتال لا يمنع الاحسان قبله ، كما ان المسلمين ما كانوا ليفاجئوا قوما بقتال حتى يدعوهم الى الاسلام وهذا من الاحسان قطعا ، ولانهم قبلوا من أهل الكتاب الجزية وعاملوا أهل الذمة بكل احسان وعدالة" (١) .

ثم قال بعد أن ذكر رأى الامام الشافعى ورأى الامام الطبرى فى هذا الموضوع ، وهما ممن أطال القول فيه وتوصلا الى القول بعدم النسخ والى الاخذ بما تدل عليه من المواصلة والبر والاحسان . وفيما يلى نورد عبارته بتمامها وذلك لما تتضمنه من بيان مفيد :

قال : " وهذا الذى سوه ابن جرير وصححه الشافعى رحمه الله الذى تقتضيه روح التشريع الاسلامى ، ان المسلمين اليوم مشتركة مصالحهم بعضهم ببعض ومرتبطة بمجموع دول العالم من مشركين وأهل كتاب ، ولا يمكن لأمة اليوم أن تعيش منعزلة عن المجموعة الدولية لتداخل المصالح وتشابكها ، ولاسيما فى المجال الاقتصادى الذى هو عصب الحياة اليوم من انتاج او تصنيع او تسويق فعلى هذا تكون الآية مساعدة على جواز التعامل مع أولئك المسالمين ومبادلتهم مصلحة بمصلحة على أساس ما قاله ابن جرير وبينه الشافعى ، وذكره الشيخ رحمة الله تعالى عليه فى حقيقة موقف المسلمين اليوم

---

(١) تتمة اضواء البيان جـ ٨ ص ١٥٢ .

من الحضارة الغربية في عدة مناسبات من محاضراته ومن الأضواء نفسه ، وبشرط ما قاله الشيخ من سلامة الداخل اى عدم الميل بالقلب ، ولو قيل بشرط آخر وهو مع عدم وجود تلك المصلحة عند المسلمين أنفسهم ، اى ان العالم الاسلامي يتعاون أولا مع بعضه ،فاذا أعوزه أو بعض دوله حاجة عند غير المسلمين ممن لم يقاتلوهم ولم يظاهروا عدوا على قتالهم فلا مانع من التعاون مع تلك الدولة فى ذلك ، ومما يؤيد كل ما تقدم عمليا معاملة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده لليهود فى خيبر .

فمما لا شك فيه انهم داخلون اولا فى قوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء " ومنصوص على عدم موالاتهم فى قوله تعالى : " ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين") .

ومع ذلك ، لما أخرجهم صلى الله عليه وسلم من المدينة ، وحاصرهم بعدها فى خيبر ، وفتحها الله عليه واصبحوا فى قبضة يده فلم يكونوا بعد ذلك فى موقف المقاتلين ، ولا مظاهرين على اخراج المسلمين من ديارهم . عاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقسط فعاملهم على أرض خيبر ونخيلها ، وابقاهم فيها على جزء من الثمرة كأجراء يعملون لحسابه وحساب المسلمين ، فلم يتخذهم عبيدا يسخرهم فيها ، وبقيت معاملتهم بالقسط كما جاء فى قصة ابن رواحه ... وقد أطلنا الكلام فى هذه المسألة لأهميتها وسيس الحاجة اليها اليوم[1]" .

---

(١) تتمة أضواء البيان ، محمد الامين الشنقيطى ج ٨ ص ١٥٧ .

واذا رجعنا الى سياسته صلى الله عليه وسلم فى الادارة الخارجية عند ما قام بتأسيس دولة الاسلام ، نجد انه صلى الله عليه وسلم بعث البعوث وأرسل الوفود لرؤساء الحكومات فى ذلك العصر ، وفى الوقت نفسه استقبل مبعوثين من الحكام الآخرين . لكن لا على أنهم حكام شرعيون ، يعترف لهم بالشرعية ويقر لهم بالولاية على ما تحت أيديهم نجد ذلك واضحا فى اسلوب رسائله صلى الله عليه وسلم ، يقول الكتانى " انما قال صلى الله عليه وسلم فى كتابه لهرقل عظيم الروم ولم يقل ملك الروم ، لئلا يكون تقريرا لملكه ، وقال الخفاجى : فى شرح الشفاء قال صلى الله عليه وسلم عظيم الروم وعظيم القبط ولم يقل ملك الروم ولا ملك القبط لانه لا يستحق ذلك العنوان الا من كان مسلما ومع ذلك فلم يخل بتعظيمهما تلينا لقلوبهما فى أول الدعوه الى الحق (١)"

وبعد فان تدوين الفقه الاسلامى حصل قبل هذا التطور فى العلاقات الدولية وعليه فان من المستحيل ان نجد نصا فى هذا الشأن لأى فقيه اسلامى بالنسبة لاصحاب الكتب المعتمدة القديمة لكن لا يخلو الفقه الاسلامى من بعض أراء لبعض فقهائه يمكن ان نجد فيها مستندا يستأنس به للحكم فى هذه الأشياء المستجدة .

فقد جوز بعض الفقهاء عقد الامان للرسول عقدا مطلقا ، ففى المغنى لابن قدامه (ويجوز عقد الأمان للرسول والمستأمن لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤمن رسل المشركين ولما جاءه رسولا مسيلمة قال " لولا ان الرسل

---

(١) نظام الحكومة الاسلامية المسمى التراتيب الادارية للكتانى ج ١ ص ١٤٢ .
وشرح الشفاء ، شهاب الدين الخفاجى ج ١ ص ٤٧٧ .

لا تقتل لقتلتكما (١) ولان الحاجة تدعو الى ذلك فانا لو قتلنا رسلهم لقتلوا رسلنا فتفوت مصلحة المراسلة ويجوز عقد الامان لكل واحد منهما مطلقا ومقيدا سواء كانت طويلة أو قصيرة (٢) .

لعل فى هذا التقرير الفقهى متسع للقول بقبول التمثيل السياسى الدائم فى الاسلام اذا قيد بقيود معينة واعيد النظر فى كثير من قوانينه وانظمته التى قد تتعارض مع بعض الاحكام الشرعية . يقول الدكتور وهبة الزحيلى (أقر الاسلام بجواز نشوء علاقات سلمية فى وقت الحرب لغير اغراض القتال ، كالدخول بغرض سماع كلام الله تعالى ومعرفة الاسلام أو لحاجة المسلمين الى تجارة ، وهذه الأهداف البسيطة كانت تتفق مع حالة تبادل العلاقات الخارجية مع الأمم السابقة .

ولا مانع من اعتبارها أساسا لمشروعية ايجاد علاقات أخرى تتفق مع تطور المعاملات الدولية ومدى ما آلت اليه . حتى ان العلاقات السياسية اليوم أصبحت لها الأهمية فى معظم شئون العالم واصبح لا غنى لدولة الا ما ندر عن دولة أخرى ، وعلى العموم فان تنظيم العلاقات العامة فى الاسلام حالة الحرب أو السلم يخضع لتقدير ولاة الامر بحسب ما يرونه متفقا مع المصالح السياسية والحربية (٣) .

---

(١) رواه احمد ، وابو داود .

(٢) المغنى فى الفقه الحنبلى لابن قدامه جـ ١٠ ص ٤٣٦ .

(٣) آثار الحرب فى الفقه الاسلامى : د / وهبة الزحيلى ص ٣٠٤ .

هذا من حيث اقامة سفارة أجنبية فى دولة الاسلام ، لكن ما هو موقف الاسلام من اقامة سفارة له فى الدول الأجنبية اقامة دائمة ؟

والظاهر أن الحكم فى هذه المسألة هو كالحكم فى المسألة السابقة ، بل ان الجواز فيه أوضح اذ المصلحة فيه أوكد فان من مصلحة الاسلام أن تقام لدولته سفارة فى كل دولة من دول العالم ، اظهارا لعزته ، ونشرا لتعاليمه ، وبثا لعقيدته .

على ان ما أثر من تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين ، وايفاده الرسل اليهم لابلاغ الدعوة للحكام والشعوب هو اظهر فى جواز ايفاد السفراء المؤقتين والدائمين للدولة الاسلامية الى غيرها من الدول ، رعاية للمصالح الدينية وحفاظا على المصالح الدنيويه بل لقد ورد فى تاريخ سيرته صلى الله عليه وسلم ما يشير الى أنه جعل - العباس - رسولا مقيما فى مكة الى ما قبيل الفتح ، وقد رغب صلى الله عليه وسلم فى بقائه بمكة ولم يوافق على طلبه للهجرة الى المدينة ؟ وذلك لاجل أن يبعث له بأخبار قريش مفصلة فى حينها ، ليكون صلى الله عليه وسلم على علم بما يدور داخل مكة وما تنوى قريش القيام به ضد الاسلام ، وقد لا يكون هذا هو الهدف الوحيد من الاقامة فى مكة بل كانت هناك أهداف أخرى ، وهى رعاية المسلمين المستضعفين الذين لم يتمكنوا من الهجرة الى المدينة ، ورعاية مصالح أولئك الذين هاجروا

---

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٣٠ والاصابة جـ ٢ ص ٢٧١ والوثائق السياسية ص ٢٣ .

وتركوا الأهل والأموال ، ولاجل الدعوة سرا الى الاسلام[1] كل هذه الاعمال ربما كان يقوم بها العباس اما سرا أو عن طريق غير مباشر .

وهذه الأعمال جزء من مهمات السفراء في العصر الحديث ، الا أن سفارة العباس كانت سرا ، وكانت ايضا من طرف واحد وهو طرف الدولة الاسلامية . اذ ان قريشا لم تكن متيقنة من اسلام العباس ، وان كانت تحس بعاطفته نحو الاسلام ودعوة ابن أخيه .

واذا كان اقامة سفارة للدولة الاسلامية في الدول الكافرة شيئا مرغوبا فيه ، ويدعو الاسلام اليه . لما فيه من الدعوة له والترغيب فيه ، فان في انظمة القانون الدولي الحديث ما يشير الى انه يجوز اقامة سفارة من طرف واحد ، وفي هذا مصلحة للاسلام ، فليس من اللازم تبادل السفراء من الجانبين .

يقول الدكتور ابو هيف ، على أن ثبوت الحق للدولة في مباشرة التمثيل الدبلوماسي لا يفرض على غيرها من الدول ان تقبل ممثليها او ان تبادلها التمثيل ان لم تكن راغبة في ذلك (٢) .

ويقول صلاح الدين المنجد " اذا خشيت الدولة حدوث قلاقل من جراء وجود الممثل لديها وخاصة اذا كان طراز الحكم في بلاده يخالف طراز الحكم في البلاد التي ارسل اليها فلا مانع من رفض هذا الممثل للدولة وقد رفضت

---

(١) انظر، ابن سعد ج ٤ ص ٢٧ والوثائق السياسية ص ٢٣ .
(٢) القانون الدولي العام ، الدكتور ابو هيف ص ٤٥٥ .

كثير من الدول مثلى البابا وممثلى الاتحاد السوفيتى (١) .

ثانيا - موقف الاسلام من امتيازات الممثلين السياسيين :

لقد وجدنا فى عبارات بعض فقهاء الاسلام ما يشير الى جواز اقامة السفارات الدائمة للدول الأجنبية فى دولة الاسلام ، وأن هذا الحكم مرهون بمصلحة الاسلام وقوته .

واذا كان القانون الدولى المعاصر قد منح المبعوثين السياسيين بعض الامتيازات فمن الأفضل عرض هذه الامتيازات على الفقه الاسلامى لنرى مدى شرعيتها وجواز الالتزام بها وهذه الامتيازات تتخلص فيما يأتى (٢) :-

أ - الحصانه الشخصية .

ب - الاعفاء من الخضوع للقضاء .

جـ - الاعفاء من الضرائب .

د - حرية الاقامة والتنقل .

(أ) الحصانة الشخصية :

من حيث الحصانة الشخصية فان الاسلام أقرها . اذ هو يلتزم بالمحافظة على المستأمن حتى يعود الى مأمنه ولو كان طلبه الامان لغرض شخصى ولمصلحة

---

(١) رسل الملوك ، ابن الفراء ، تحقيق المنجد ص٢٢ .
(٢) أنظر القانون الدولى العام ، حامد سلطان ص١٧٧ .

فردية ، يقول الله تبارك وتعالى : " وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه " (١) قال القرطبى : وظاهر الآية فيمن يريد سماع القرآن والنظر فى الاسلام فاما الاجارة لغير ذلك فانما هى لمصلحة المسلمين والنظر فيما يعود عليهم بالمنفعة " (٢) .

واذا كنا ملزمين بالمحافظة على المستأمن وعدم التعرض له بسوء اذا كان الامان لمصلحته ، فان ذلك يلزمنا أكثر اذا كان طلبه للأمان لمهمة قد تعود بالمصلحة على المسلمين ، وقد روى الامام احمد وابو داود عن ابن مسعود قال : جاء ابن النواحة وابن أثال ، رسولا مسيلمة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما : أتشهدان أنى رسول الله ؟ قالا : نشهد ان مسيلمة رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم أمنت بالله ورسولة ، لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما ، قال عبد الله : فمضت السنه ان الرسل لا تقتل " (٣) هذا على الرغم من تكلم المبعوث بما يخالف عقيدة المسلمين .

وامان الرسل والسفراء لا يحتاج الى سابق طلب . فمتى دخلوا حدود دولة الاسلام ، وعلم انهم جاءوا لمهمة رسمية فهم فى أمان الى ان ينهوا مهمتهم ، جاء فى كتاب الخراج ، لابى يوسف فان قال أنا رسول الملك بعثنى الى ملك العرب وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع هدية اليه فانه يصدق ويقبل قوله " (٤) .

---

(١) سورة التوبة آية ٦ .
(٢) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٧٤ .
(٣) نيل الاوطار جـ ٨ ص ١٨٢ .
(٤) الخراج لابى يوسف ص ٢٠٣ والسير الكبير جـ ١ ص ٢٩٦ .

وقال ابن قدامة : فان دخل بغير امان سئل . فان قال جئت رسولا فالقول قوله لانه يتعذر اقامة البينة على ذلك ولم تزل الرسل تأتى من غير تقدم أمان (١) " .

وليست الحصانة هنا قاصرة على الرسول فقط بل تشمل ايضا زوجته واولاده وماله ، قال فى السير الكبير : " فاذا استأمن الحربى الى أهل الاسلام فأمنوه فخرج معه بامرأة واطفال صغار ، فقال : هذه امرأتى وهؤلاء ولدى ولم يكن ذكرهم فالأمان يشملهم استحسانا " (٢) .

(ب) الأعفاء من الخضوع للقضاء :

فى القانون الدولى يعفى سفراء الدول وأعضاء السفارات من المثول أمام القاضى ومن الخضوع للقضاء الاقليمى ، وذلك بسبب الحصانة التى يتمتعون بها (٣) .

أما الاسلام فلا يقر ذلك . حيث لا امتيازات لأحد على أحد ، فالجميع سواسية امام القضاء ، ولا يعفى من المثول امام القاضى أى فرد ، ولابد من أخذ الحق من اى انسان ، وردع الظالم أيا كان ، والقاضى يجب أن يحكم بينهم بما أنزل الله . قال تعالى : " وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فأحكم بينهم بما أنزل الله (٤) " .

---

(١) المغنى لابن قدامة جـ ١٠ ص ٦٠٥ .
(٢) السير الكبير جـ ١ ص ٣٤٤ .
(٣) القانون الدولى العام : ابو هيف ص ٤٩٥ .
(٤) سورة المائدة آية ٤٨ ، ٤٩ .

وقال جل ذكره : " وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم " .

فهذه الآيات تفيد وجوب الحكم بما أنزل الله سواء كان الحكم بين مسلمين أو بين غير المسلمين وبهذا قال المفسرون ، يقول الامام الطبرى : " أى أحكم يامحمد بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل اليك من كتابى واحكامى فى كل ما احتكموا فيه اليك " (١) .

ويقول ابن كثير : " أى فاحكم يامحمد بين الناس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم بما أنزل الله اليك من هذا الكتاب العظيم " (٢) .

فالشريعة الاسلامية لا تعترف بأى حكم سوى ما أنزل الله ، ولا تقبل الرضوخ ولا التقاضى الا اليه ، يقول عبد القادر عودة " تسرى الشريعة على رجال السلك السياسى فيما يرتكبون من جرائم فى دار الاسلام سواء تعلقت الجرائم بحقوق الجماعة او بحقوق الافراد وليس فى قواعد الشريعة ما يسمح باعفائهم من تطبيق الشريعة عليهم ، الا اذا أخذنا بنظرية ابى حنيفة فى المستأمن (٣) ، وهى تقضى بسريان الشريعة على المستأمن اذا ارتكب جريمة تمس حق الأفراد فاذا ارتكب جريمة تمس حق الجماعة فلا تسرى عليه الشريعة . .

---

(١) تفسير الطبرى ج ٦ ص ٢٦٨ .
(٢) ابن كثير ج ٢ ص ٦٦ .
(٣) قال صاحب الخراج : " ولو ان هذا الداخل الينا بأمان او الرسول زنى أو سرق فان بعض فقهائنا قال لا أقيم عليه الحد ، فان كان استهلك المتاع فى السرقة ضمنته وقال انه لم يدخل الينا ليكون ذميا تجرى عليه أحكامنا ، قال : ولو قذف رجلا حددته وكذلك لو شتم رجلا عزرته لأن هذا حق من حقوق الناس" الخراج لابى يوسف ص ٢٠٤ .

وليس في أخذ رجال السلك السياسي بجرائمهم ما يعيب الشريعة ، مادامت الشريعة تسوى بينهم وبين غيرهم من رعايا الدولة وتجعل حكمهم حكم رئيس الدولة ، ولكن العيب في التفرقة التي تأخذ بها القوانين الوضعية بحجة حمايتهم وتمكينهم من اداء وظائفهم ، لأن الممثل السياسي الذى يرتكب الجرائم لا يستحق الحماية ، ولا يصلح لأداء وظيفته ، ولأنه لا يحمى الممثل شىء مثل ابتعاده عن الشبهات والمحرمات ، واذا خيف من اتخاذ الاتهام ذريعة للضغط على الممثل فهو خوف في غير محله "(١) .

(جـ) الحصانة الماليــة :

لقد منح القانون الدولي الممثلين السياسيين حصانة مالية يعفون بموجبها من كثير من الضرائب ، والرسوم الجمركية وأساس هذا الأعفاء المجاملة بين الدول ليكون هذا الاحساس متبادلا بين الطرفين (٢) .

وفى الاسلام منح السفراء بعض الامتيازات المالية على أساس المعاملة بالمثل فاذا أخذوا من سفراء المسلمين شيئا أخذ من سفرائهم والا فلا ، قال ابو يوسف : " ولا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى قد أعطى أمانا عشر . الا ما كان معهما من متاع التجار . فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه (٣) " وقال الشافعى ينظر في حاله ، فان كان لرسالة

---

(١) التشريع الجنائي الاسلامى ، عبد القادر عودة جـ ١ ص ٣٢٤ .
(٢) انظر القانون الدولى العام ، ابو هيف ص ٤٩٧ وحامد سلطان ص ١٨٠ .
(٣) الخراج لابى يوسف ص ٢٢٤ وانظر القانون الدولى الاسلامى ، مجيد خدورى ص ١٧٨ .

أو نقل ميرة أذن له بغير شيء (١)" وليس للسفراء حق بان يخرجوا معهم بأسلحة أو بضائع يضر خروجها بالمسلمين ، أما ما لا ضرر بخروجه على المسلمين ولا يؤثر على الحركة التجارية في أسواق المسلمين فلا بأس بأن يخرجوا به معهم (٢) .

(د) **حرية التنقل :**

اذا كان من المقرر في القانون الدولي العام أن للدولة حق تقييد اقامة الأجنبي في اقليمها بقيود تتعلق بالمدة والمكان (٣) .

فان الاسلام يحظر بعض المناطق على غير المسلمين ويمنعهم من السكن أو الاقامة فيها ، ويحظر مجرد الدخول في مناطق أخرى او المرور بها ، والاصل في ذلك قول الله تعالى " انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (٤) " قال الامام القرطبي : هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم وهو مذهب عطاء ، فاذا يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع . فاذا جاءنا رسول منهم خرج الامام الى الحل ليسمع ما يقول (٥) .

وقال الماوردي : ليس لجميع من خالف دين الاسلام من ذمي او معاهد أن يدخل الحرم لا مقيما فيه ولا مارا به ، وهذا مذهب الشافعي رحمه الله

---

(١) المغني ، ابن قدامه جـ ١٠ ص ٥٩٦ .
(٢) انظر الخراج لابي يوسف ص ٢٠٤ .
(٣) القانون الدولي العام - ابو هيف ص ٣٣٨ .
(٤) سورة التوبة آيــة ٢٧ .
(٥) تفسير القرطبي جـ ٨ ص ١٠٤ .

وكثير من العلماء (١) .

وقال ابن قدامة : وان كان رسولا الى امام بالحرم خرج اليه من يسمع رسالته ويبلغها اياه ، فان قال : لابد لى من لقاء الامام وكانت المصلحة فى ذلك خرج اليه الامام ولم يأذن له فى الدخول " (٢) .

واما المناطق التى يحظر الاسلام على غير المسلمين السكن أو الاقامة فيها فهى : الجزيرة العربية والاصل فى هذا حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته بثلاث ، أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ونسيت الثالثة . متفق عليه قال القرطبى : جزيرة العرب هى مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها ، قال مالك يخرج من هذه المواضع كل من كان على غير الاسلام ولا يمنعون من التردد بها مسافرين ، وكذلك قال الشافعى رحمه الله الا انه استثنى اليمن (٣) .

هذه المناطق التى حظر الاسلام على غير المسلمين الدخول فيها .

ثالثا - صفات السفراء :

للسفير صفات من الافضل أن يتحلى بها ، وهى صفات جسمية وأخرى خلقية ، واذا كانت الدول فى العصر الحديث تولى هذا الجانب الشىء الكثير فان الاسلام اهتم بتلك الصفات وأدرك المسلمون مدى أثرها فى انجاح المهام ،

(١) الاحكام السلطانيه ، الماوردى ص ١٦٧ .
(٢) المغنى ، ابن قدامه جـ ١٠ ص ٦١٦ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ١٠٤ .

وبلوغ الغاية التى لأجلها أرسل الرسول فهو يحرص على أن تتوفر فى كل رسول من رسله الصفات المطلوبة من الجسامة والوسامة وتمام العقل وحدة الذكاء وسرعة الفطنة ، حتى لا تقتحمه العيون ولا تزدريه الأنظار وليحظى بالمنزلة الرفيعة لدى المرسل اليهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذى يرسل اليه حسن الوجه والاسم وفى الحديث " اذا أبردتم الى بريدا فليكن حسن الوجه حسن الاسم " (١) وفى صلح الحديبية لما جاء سهيل بن عمرو موفدا من قبل قريش للتفاوض مع النبى صلى الله عليه وسلم استبشر صلى الله عليه وسلم وتفاءل بهذا الاسم وقال : لقد سهل لكم من أمركم (٢) يقول ابن الفراء : ويستحب فى الرسول تمام القد وعبالة الجسم حتى لا يكون قميئا ولا ضئيلا ، وان كان المرء بأصغريه . ومخبوء تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يؤذن لكم فيقدم أحسنكم اسما ، فاذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجها فاذا نطقتم ميزتكم ألسنتكم (٣) " .

واذا ألقينا نظرة على رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد أنهم يتحلون بهذه الصفات كثيرا ، من وسامة فى الصورة ، وجمال فى الهيئة ،

---

(١) قال السيوطى فى الجامع الصغير رواه البزار عن بريدة جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) زاد المعاد ، ابن القيم جـ ٢ ص ١٢٩ .

(٣) نيل الاوطار جـ٨ص = ٥١ ، رسل الملوك : ابن الفراء ص ٢٠ .

وكمال فى العقل ، فهذا دحية بن خليفة الكلبى أرسله صلى الله عليه وسلم الى قيصر ، وكان رضى الله عنه يضرب به المثل فى الجمال وحسن الهيئة ، وكان جبريل عليه السلام ينزل أحيانا بصورته جاء ذلك فى حديث أم سلمة رضى الله عنها (١) وكان رضى الله عنه شجاعا لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، يراقب الله فيما يفعل ويدع من الأعمال . يشهد لذلك أنه لما جاء الى قيصر حاملا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالسجود لقيصر تعظيما واكراما لكنه امتنع رضى الله عنه وقال : ان هذا لا يسمع به ديننا الا لله وحده (٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم يرغب فى سفرائه أن يكونوا على علم ومعرفة بأهل البلاد وطبائعهم وعاداتهم ، فقد أرسل عبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى . وفى كتب السير ما يشير الى ان عبد الله هذا كان قبل أن يبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المهمة يكثر التردد على كسرى ، وكان أيضا من المهاجرين الى الحبشة ، فكأنه صلى الله عليه وسلم اختاره لكثرة أسفاره وتردده على كسرى ، فلابد أن هذه الاسفار أكسبته خبرة وحنكة ودراية فى الأمور وطبائع الناس خارج الجزيرة العربية (٣) .

وأرسل صلى الله عليه وسلم حاطب بن ابى بلتعة الى المقوقس صاحب الاسكندرية وكان من صفات حاطب رضى الله عنه " انه طويل الجسم جميل خفيف

---

(١) صحيح مسلم حديث ١٦٧٦ - ابن سعد ٤ ص ٢٤٩ .
(٢) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٤٢ .
(٣) السيرة النبوية ، زينى دحلان جـ ٣ ص ٦٣ .

اللحية (١) وكان ذكيا سريع الفطنة جرت بينه وبين المقوقس مناظرة جعلت المقوقس يعجب به ويشهد له بالحكمة حيث قال : أنت حكيم جاء من عند حكيم (٢) .

ومن صفات سفراء النبى صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يعرفون لغة من أرسلوا اليه وان كان ما يحملون من الرسائل مكتوبا باللغة العربية ، الا أنهم كانوا على علم بلغة القوم الذين أرسلوا اليهم وكأنه صلى الله عليه وسلم أراد من ذلك أن يعلموا له كثيرا من الأمور . وان المهمة لا تقتصر على مجرد حمل رسالة فقط وفى كتب السير ما يشير الى : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه فقال لهم : ان الله بعثنى رحمة وكافة . فأدوا عنى يرحمكم الله ، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم لغة القوم الذين أرسل اليهم (٣) هذه بعض صفات أولئك الذين اختارهم صلى الله عليه وسلم لحمل رسائله الى ملوك العالم وقادته المعروفين فى ذلك الوقت .

رابعا : الأصل فى العلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول :

سبق أن ذكرنا ان الاسلام لا يعترف بالدول الكافرة اعترافا شرعيا ، وانما اعترافه بها بحسب الامر الواقع فقط ، وايضا ان الاسلام لا يمانع من اقامة علاقة بر واحسان مع الدول الكافرة ، ان كان فى تلك العلاقات مصلحة للاسلام والمسلمين .

---

(١) انظر ابن سعد جـ ٣ ص ١١٤ .
(٢) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٥٠ .
(٣) انظر ابن هشام جـ ٤ ص ٧٨ وابن سعد جـ ١ ص ٢٥٨ .

وفي هذا الموضوع سنحاول بيان الاصل في العلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول الكافرة هل الاصل فيها المسالمة والمهادنة ، أم الحرب والجهاد ؟

جاء في حديث بريدة ، الذي رواه الامام مسلم في صحيحه ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الاسلام ، فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين ، واخبرهم انهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فان ابوا ان يتحولوا منها ، فاخبرهم انهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء الا ان يجاهدوا مع المسلمين ، فانهم أبوا فسلهم الجزية ، فان هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ،فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم (١) .

هذا الحديث يدل على ان الدولة الاسلامية ملزمة بدعوة غيرها من الدول الى الاسلام والاخذ باحكامه ، فان قبلوا الدخول في الاسلام فانهم يكونون ضمن الدولة الاسلامية وجزء من كيانها لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين من الالتزامات الواجبة نحو الدولة الاسلامية .

وان امتنعت تلك الدولة المدعوة الى الاسلام من الالتزام به ، ورغبت عنه الى ملل الكفر فانه يطلب منها الخضوع لسلطان الدولة الاسلامية السياسى ، وذلك بحل كيانها وانهاء استقلالها ودفع الجزية للدولة الاسلامية مقابل الرعاية والحماية .

---

(١) جزء من حديث بريده رواه مسلم في كتاب السير حديث ١١١١ .

فان هى امتنعت عن هذا وذاك ،وأبت الا البقاء على كيان مستقل ،فان المسلمين ملزمون بعد ذلك بقتالهم ، ليقضوا على ذلك الكيان الفاسد الذى يرفض الاصلاح ولا يقبلـــه .

يتبين لنا بعد ذلك ان الدولة الاسلامية ملزمة باخضاع الدول الكافـــرة للحكم الاسلامى ولو بالقوة ان امتنعت تلك الدول عن الدخول فى الاســـلام، وأبت الخضوع لسلطان الدولة الأسلامية السياسى ، وهذا يعنى ان الاصـــل فى العلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول الحرب ، الا ان بعـــض الفقهاء المحدثين (١) ذهبوا الى أن الاصل فى العلاقات بين الدولة الاسلاميـة والدول الكافرة السلم ، وأن الحرب لا مبرر لها الا لدفع العدوان عن المسلمين ، وقولهم هذا يوافق ما قرره فقهاء القانون الدولى المعاصر .

وقد استدلوا لرأيهم هذا بقول الله تبارك وتعالى " وان جنحوا للســلم فاجنح لها " (٢) . وبقوله جل ذكره " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكـــم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " (٣) . وقالوا " ان آيات القتال فى القرآن الكريم جاءت فى كثير من السور المكية والمدنية مبينة السبب الذى من أجله أذن فى القتال وهو يرجع الى أحد أمرين . اما دفع الظلم او قطع الفتنة وحماية الدعوة (٤) وقالوا : " ان الحروب التى خاضها المسلمون فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين كلها حروب دفاعية " (٥) .

---

(١) انظر العلاقات الدولية فى الاسلام ، محمد ابو زهرة ص ٤٧ وآثار الحـرب فى الفقه الاسلامى / دكتور وهبة الزحيلى ص ١٣٣ والشريعة الاسلاميــة والقانون الدولى العام ، على على منصور ص ٢٨١ .

(٢) سورة الانفال آية ٦١ .

(٣) سورة البقـــرة آية ١٨٩ .

(٤) السياسة الشرعية ، عبد الوهاب خلاف ص ٧٢ .

(٥) مجموعة بحوث فقهية عبد الكريم زيدان ص ٥٨ .

وللرد على هذا الرأى نقول : ان الآيات التى استدلوا بها لا تقوم دليلا على ما يقولون لان قوله تعالى " وان جنحوا للسلم فاجنح لها " اى فى حال ضعف المسلمين وقلة عددهم وفى ذلك يقول الامام الجصاص " فالحال التي أمرنا فيها بالمسالمة حال قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم ، والحال التى امرنا فيها بقتال المشركين وبقتال اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية فى حال كثرة المسلمين وقوتهم على عدوهم (١) " واما قوله تعالى " وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا " فقد قال الامام ابن كثير هذه اول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة " براءة " وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم حتى قال هذه منسوخة بقولة تعالى " فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (٢) .

وأما قولهم ان آيات القتال فى القرآن الكريم جاءت فى كثير من السور مبينة السبب الذى من أجله اذن فى القتال فنقول : ان مراحل الجهاد فى الاسلام جاءت على منهج حركى متمش حسب تطور المد الاسلامى فلكل طور من أطواره وسائله الخاصة وطرق اقناعه ، جاء فى السير الكبير " والحاصل ان الأمر بالجهاد والقتال نزل مرتبا فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا فى الابتداء بتبليغ الرسالة والاعراض عن المشركين ، قال الله تعالى " فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين (٣) " وقال جل ذكره " فاصفح الصفح الجميل " (٤) ثم أمر بالمجادلة بالتى هى احسن كما قال " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " (٥) .

---

(١) احكام القرآن الكريم ، الجصاص ج ٣ ص ٧٠
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٦ .
(٣) سورة الحجر آية ٩٤ .
(٤) سورة الحجر آية ٨٥ .
(٥) سورة النحل آية ١٢٥ .

وقال " ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن "(١) .

ثم أذن لهم فى القتال بقوله " اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا "(٢) .

ثم أمروا بالقتال ان كانت البداية منهم بطا تلا من آيات .

ثم أمروا بشرط انسلاخ الاشهر الحرم كما قال تعالى : فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين "(٣) .

ثم أمروا بالقتال مطلقا بقوله تعالى " وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم "(٤) . فاستقر الامر على هذا ومطلق الامر يقتضى اللزوم "(٥) .

وقال تقى الدين ابن تيمية : " كان الله لما بعث نبيه صلى الله عليه وسلم وأمره بدعوة الخلق الى دينه ،لم يأذن له فى قتل أحد على ذلك ولا قتاله ،حتى هاجر الى المدينة فأذن له وللمسلمين بقوله تعالى " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . . . الى قوله ولله عاقبة الأمور"(٦) .

ثم أنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى " كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون "(٧) .

وأكد الايجاب وعظم امر الجهاد فى عامة السور المدنية ، وذم التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب(٨) .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦ .

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

(٣) سورة التوبة آية ٥ .

(٤) شرح السير الكبير جـ١ ص ١٨٨ .

(٥) سورة الحج من آية ٣٩ الى ٤٠ .

(٦) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٧) سورة الحج آية ٣٩ .

(٨) السياسة الشرعية : ابن تيمية ص ١١٨ .

واما قولهم ان الحرب التى خاضها المسلمون فى عصره صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين من بعده هى حروب دفاعية فقد أجاب على ذلك الاستاذ سيد قطب رحمه الله قال : (ان محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصرى للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن أسانيد لاثبات ان وقائع الجهاد الاسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على " الوطن الاسلامى " وهو فى عرف بعضهم جزيرة العرب فهى محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذى جاء ليقوم به فى الارض ، كما أنها تشى بالهزيمة امام ضغط الواقع الحاضر ، وامام الهجوم الاستشراقى الماكر على الجهاد الاسلامى .

ترى لو كان ابو بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - قد امنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة العربية أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الاسلامى الى اطراف الارض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من أنظمة الدول السياسية وانظمة المجتمع العنصرية والطبقية والتى تحميها القوة المادية كذلك ؟

انها سذاجة ان يتصور الانسان دعوة تعلن تحرير " الانسان " نوع الانسان فى الارض كل الارض ، ثم تقف امام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان ، انها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الافراد ، تخاطبهم بحرية وهم طلقوا السراح من جميع تلك المؤثرات فهنا " لا اكراه فى الدين " اما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية فلابد من ازالتها أولا بالقوة

لتتمكن من مخاطبة قلب الانســان وعقله ، وهو طليق من هــذه الاغلال (١) .

يتبين لنا بعد ذلك ان الاصل في العلاقات بين الدولة الاسلاميــة وغيرها من الدول الحرب وان السـلام شيء طارئ توجبه المهادنـــة او عقد الذمـة .

(١) الجهاد في سبيل الله سيد قطب ص ١١١ .

الباب الثانى

****

الدولة الاسلامية من حين نشأتها الى صلح الحديبية

يشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود المجاورين للمدينة .

الفصل الثانى : سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع العرب المجاورين للمدينة .

الفصل الثالث : سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع قريش .

الفصـــــل الأول

سياسته صلى الله عليه وسلم مع اليهود المجاورين للمدينة

غير فيه رأيه ، فرجعوا الى الشام ، فوجدوا موسى عليه السلام قد توفى فقالت لهم بنو اسرائيل ما صنعتم ؟ فقالوا :-

أظهرنا الله عز وجل عليهم فقتلناهم ، ولم يبق منهم أحدا غير غلام كان شابا جميلا فنفسنا به عن القتل ، وقلنا نأتى به موسى عليه السلام ، فيرى فيه رأيه ، فقالوا لهم : هذه معصية ، قد أمرتم ألا تستبقوا منهم أحدا ، والله لا تدخلوا علينا الشام أبدا فلما صنعوا ذلك ، قالوا ما كان خيرلنا من منازل القوم الذين قتلناهم بالحجاز نرجع اليهم فنقيم بها ، فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة ، فنزلوها ، وكان ذلك الجيش أول سكنى اليهود بالمدينة (١))

بعد هذا نعرف أن السبب فى مجيئهم ، رغبة موسى عليه السلام فى القضاء على العماليق الذين بغوا فى الأرض ، وأفسدوا فيها .

لكن السمهودى فى كتابه " وفاء الوفا " يشير الى أن السبب فى نزولهم المدينة . علمهم عن طريق التوراة أن هذه البقعة من الأرض هى بلد خاتم الأنبياء ، فأحبوا البقاء فيها رغبة فى لقاء النبى المرتقب . يقول مشيرا الى ذلك (بلغنا أنه لما حج موسى عليه السلام حج معه أناس من بنى اسرائيل ،فلما كان فى انصرافهم أتوا على المدينة ، فرأوا موضعها صفة بلد نبى يجدون وصفه فى التوراه ، بأنه خاتم النبيين ،فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به فنزلوا فى موضع سوق بنى قينقاع ، ثم تألفت اليهم أناس من العرب ، فرجعوا على دينهم فكانوا أول من سكن موضع المدينة) (٢) .

---

(١) الأغانى ج ١٩ ص ٩٤ أبو الفرج الأصبهانى وانظر ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ وتاريخ اليهود فى البلاد العربية .

(٢) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ١ ص ١١٠ ، ١١٢ .

وأيا كان السبب في هجرتهم ، ومجيئهم الى المدينة ، فانه يتضح لنا بعد هذه الروايات أن الشعب اليهودي دخيل على الجزيرة العربية ، وليس له رابطة سابقة من أي نوع من أنواع الروابط .

وأما هجرتهم الثانية فان سببها (أن ملك الروم حين ظهر على بني اسرائيل وملك الشام ، خطب الى بني هارون ، وفي دينهم ألا يزوجوا النصارى ، فخافوا وأنعموا له ، وسألوه أن يشرفهم باتيانه اليهم ، فأتاهم ففتكوا به ومن معه ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها) (١) .

بعد هذا العرض الموجز نكون قد عرفنا شيئا من تاريخ اليهود في المدينة المنورة فما هو تاريخ العرب أعني الأوس والخزرج ؟

ان وجود الأوس والخزرج في المدينة يرجع الى انهيار سد مأرب في اليمن حيث أن أهل سبأ تلك الأرض الطيبة التي وصفها الله في كتابه لما علموا بقرب انهيار السد خرجوا هاربين ، طالبين النجاة في الجزيرة العربية ، وخارجها ، وكان نصيب المدينة من هؤلاء النازحين الأوس والخزرج الذين سيختارهم الله فيما بعد لنصرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيستبدل هذا الاسم بلقب الأنصار ، وسيكون لهم تاريخ حافل بالأمجاد والمعالي .

ولما وصل الأوس والخزرج الى المدينة وجدوا بها اليهود ، وزمام الأمر بأيديهم ولهم من العدد والعدة ما يضفي عليهم شيئا من الهيبة ،فاضطروا بحكم هذه الظروف ، وحداثة عهدهم بالبلد الى عقد حلف مع اليهود بموجبه يعيشون بسلام ، ويأمن بعضهم جانب الآخر ، ويشتركون في حرث الأرض وعمارتها ،

---

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى جـ ١ ص ١١٠، ١١٢ .

وسارت الأيام تلو الأيام ، وزمام الأمر بأيدى اليهود ، قد أحكموا قبضته يحكمون بين الناس بما يحبون . ويشبع رغباتهم .

ويذكر صاحب " وفاء الوفا " أن " الفطيون " ملك اليهود كان قد شرط ألا تدخل امرأة فى المدينة على زوجها حتى يكون هو الذى يفض بكارتها قبل زوجها . لكن هذا الشرط الذى يدل على خلق دنئ وغريزة حيوانية بل شيطانية لم يعجب - مالك بن عجلان - زعيم الأوس والخزرج بل أغضبه وأثار حميته للدفاع عن عرضه . وما كاد " الفطيون " يطبق هذا الشرط على شقيقة مالك بن عجلان حتى ثار هذا الأخير وقتل الأول حفاظا على عرضه ، وصونا لمحارمه . وكانت هذه الحادثة بشير خير للعرب بقرب زوال سلطان اليهود عن المدينة اذ أن ابن عجلان استنجد باخوانه اليمانيين الساكنين فى الشام ليعينوه على القضاء على سلطة اليهود بالمدينة ، وحصل له ما أراد وقضى على اليهود ،وكان القضاء عليهم على فترتين :

الأولى (حين خرج الى الشام فنزل على " أبى جبيلة " وكان نزلها حين نزلوا ثم المدينة فجيش جيشا عظيما ، وأقبل كأنه يريد اليمن ، واختفى معهم مالك بن عجلان فجاء فنزل " بذى حرض " (١) وأرسل الى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا اليه فوصلهم وأعطاهم ، ثم أرسل الى بنى اسرائيل يعنى اليهود وقال من أراد الحيا من الملك فليخرج اليه . وانما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا بالحصون فلا يقدر عليهم فخرج اليه أشراف بنى اسرائيل كلهم . فأمر لهم بطعام حتى اجتمعوا فقتلهم من عند آخرهم . فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج

---

(١) ذى حرض : واد بالمدينة عند أحد له ذكر معجم البلدان ج٢ ص٢٤٢ .

اليهود حتى نشبت الخلافات بينهم وتلتها الحروب الطاحنة ، وعقدوا الأحلاف مع اليهود يستعينون بهم ليقضي بعضهم على بعض ، ولم يكتفوا بالتحالف مع عرب المدينة وسكانها من اليهود ، بل تجاوز الأمر ذلك الى أن خرجت الأوس تطلب من قريش النصرة ، وتسألها عقد اتفاق وحلف ، وتم لهم ذلك لولا أن بعض زعماء قريش تشاءم من عقد الأحلاف التي تلزم قريشا بالخروج عن مكة وقتال أقوام في ديارهم ، وبحكم التجربه تنبأ الوليد بن المغيرة عن نتائج هذا الحلف بأنها فاشلة ، وستلحق بقريش العار والهزيمة ، فاضطروا الى الغاء هذا الحلف عن طريق الحيلة .

يقول السمهودي في ذلك (خرجت الأوس جالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة ، فحالفتها ، فلما حالفتهم قال الوليد بن المغيرة والله ما نزل قوم قط على قوم الا أخذوا شرفهم ، وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس . فقالوا بأى ؟ قال بأى شيء قال : ان في القوم حمية قولوا لهم انا نسينا شيئا لم نذكره لكم . انا قوم اذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل أمرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده فلما قالوا ذلك للأوس نفرت وقالوا اقطعوا الحلف بيننا وبينكم فقطعوه) (١) .

واستمرت الحروب بين الأوس واخوانهم الخزرج ، وكان آخرها يوم بعاث قبل الهجرة بقليل . تقول عن هذا اليوم السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سراتهم ، وجرحوا . فقدمه

---

(١) وفاء الوفا ص ١٥٣ .

الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم في الاسلام) (١) .

وكأن الله أراد من تلك الحروب صهر هذين الحيين من العرب ، واخراج ما خبث منهما من الرجال . ليصبح الباقون أنصار الدينه ، وليتبوءوا الدار والايمان . ولما أنهكتهم تلك الحروب وقضت على الرطب واليابس سئموا منها وملوا حتى أذن الله بانتهائها .

قال ابن اسحاق : (حدثني عاصم بن عمرو عن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا :- لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم :- من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج قال :- أمن موالي يهود ؟ قالوا :- نعم قال :- أفلا تجلسون أحدثكم ؟ قالوا بلى فجلسوا معه ، فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال :-

وكان مما صنع الله لهم به في الاسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك ، وأصحاب أوثان ، وكانوا قد عزوهم في بلادهم أي " غلبوهم " فكانوا اذا كان بينهم شيء قالوا لهم ان نبيا مبعوثا ، الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم .
فلما كلم رسول الله عليه الصلاة والسلام أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض ياقوم تعلمون والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك

---

(١) أخرجه البخاري ج ٥ ص ٣٧ .

اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزّ منك) (١) .

وتكررت اللقاءات بين النبى صلى الله عليه وسلم والاوس والخزرج ، وتمخضت عن تلك اللقاءات بيعتا العقبة الاولى والثانية ، وتلا ذلك الهجرة النبوية الى المدينة وتسليم مقاليد الامور الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوعا ،واختيارا ، واشتياقا الى توحيد الصف ولم الشمث وانهاء الخلاف ، وكانوا قبل ذلك مجمعين على تسليم قيادة امرهم الى -عبد الله بن أبى - الذى سيصبح فيما بعد زعيما لحركة النفاق وقائدا للمنافقين ، وكثيرا ما كان يلحق الأذى برسول الله صلى الله عليه وسلم لكن رسول الله يعفو عنه ويصفح لما له من سابق شرف وزعامة فى قومه قبل الاسلام ، ويشهد لذلك ان ابن أبى كاد يوما ان يشعل فتيل الحرب بين المسلمين والمشركين عندما سبّ النبى صلى الله عليه وسلم لولا أن النبى صلى الله عليه وسلم هدّأهم .

ثم ركب الرسول صلى الله عليه وسلم دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال " أى سعد ألم تسمع الى ما قال أبو حباب ؟ " يريد عبد الله بن أبى " قال كذا وكذا " قال اعف عنه يارسول الله واصفح فوالله لقد اعطاك الله الذى أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة (يعنى المدينة المنورة) ان يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرق بذلك فذلك فعل به ما رأيت فعفاعنه النبى صلى الله عليه وسلم) (٢) .

---

(١) سيرة بن هشام جـ ٢ ص ٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم جزء من حديث رقم ١١٢٣ .

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود :

كان موقف اليهود من دعوته صلى الله عليه وسلم بالمدينة موقف العداء السافر على الرغم من أن كثيرا من أحبارهم وعلمائهم كانوا يأتون من الشام ، أرض الخير والبركات الى المدينة أرض الفقر والجوع ، يدعوهم الى ذلك ،ويهون عليهم شاق السفر ، قرب مبعث خاتم الانبياء ، ورجاء لقائه والايمان به .

وكان أحدهم عند ما توافيه المنية ، ويدركه الاجل ، يوصى قومه باتباع النبى المرتقب ، فهذا (ابن الهيبان) يوصى من حضر وفاته ويحثهم على اتباع النبى المبعوث . قال ابن اسحق (لما عرف أنه ميت - اى ابن الهيبان - قال : يامعشر يهود ، ما ترونه اخرجنى من أرض الخمر والخمير الى ارض البؤس والجوع ؟ قال : قلنا انك أعلم . قال : فانى انما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد اظل زمانه وهذا البلد مهاجرة ، فكنت أرجو ان يبعث فأتبعه ، وقد اظلكم زمانه فلا تسبقن اليه يامعشر يهود فانه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه فلا يمنعنكم ذلك منه) (١) .

وهذا - كعب بن أسد - لما أيقن باحكام حصار المسلمين لديار قومه وأنه لا مفر من جيوش المسلمين يحرض على قومه الاسلام فذكرهم وصية ابن خراش أحد أحبارهم فقال (أتذكرون : يابنى قريظة ما قال لكم ابن خراش (حبر من أحبارهم) انه يخرج بهذه القرية نبى فاتبعوه وكونوا له أنصار ، وتكونون أمنتم بالكتابين الأول والآخر ثم دعا كعب بن أسد قومه الى اتباع النبى صلى الله عليه وسلم والايمان به قائلا :

---

(١) سيرة بن هشام ج ١ ص ١٩٧ .

فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم ، وما منعنا من الدخول معه الا الحسد للعرب حيث لم يكن من نبى اسرائيل فاتبعوه تأمنوا على دمائكم واموالكم ونسائكم) (١) .

وكثير من أحبارهم وعلمائهم أسلموا بناء على تعاليم كتابهم التوراة .

وكان يهود المدينة قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم يحدثون العرب عن قرب بعثه وأنهم سيكونون من أتباعه وانصاره ، وعند ذلك يقضون على العرب -ويقتلونهم قتل عاد وارم - .

وكان لهذه المقالة أثر بالغ فى نفوس الأوس والخزرج ، الشيء الذى دعاهم الى مبايعة النبى صلى الله عليه وسلم والايمان به ، ليحصلوا على فضل السبق والأولوية ، قبل أن تحصل عليه يهود وذلك قبل الهجرة الى المدينة .

وكان الذى دعا يهود الى بث هذه المقالة ونشر تلك البشارات أملهم ان النبى المرتقب كائن من بنى اسرائيل ، لكن لما خيب الله آمالهم ، وأخطأت تصوراتهم وجعل الله النبوة فى العرب والله أعلم حيث يجعل رسالته انكروا ما قالوا وكذبوا أنفسهم حسدا وبغيا اذ لم تكن النبوة فيهم .

ولا غرابة فى ذلك فهم قوم -بهت - ينكرون الحق ويجحدونه ان لم يكن لصالحهم كما وصفهم بذلك سيدهم الذى ورث السيادة والعلم كابرا عن كابر - حسب شهاداتهم الصريحة فى ذلك - عبد الله بن سلام رضى الله عنه .

وكان أول من أعلن العداوة ، واظهرها سيدهم - الأول - حيى بن أخطب وذلك فى تصريحه بعد أول لقاء له مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد تحققه

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٤٢ وانظر ،غزوة بنى قريظة ، باشميل ص ١٨١ .

من أنه هو النبى الموعود قال ابن اسحق : (حدثت عن صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها أنها قالت : كنت أحب ولد أبى اليه والى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما الا أخذانى دونه قالت فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى حيى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين قالت : فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس قالت فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . قالت : فهششت لهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت الى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم قالت وسمعت عمى أبا ياسر يقول : لأبى : أهو هو ؟ . فقال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبتة ؟ قال : نعم : قال فما فى نفسك منه ؟ قال عداوته والله ما بقيت) (١) .

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يجابه اليهود بما جابهوه به . من المداوة والاهانة ، وكيف يجابههم بالعدوان . وهو الحريص على وحدة المدينة ، وحدة وطنية سياسية حرصا جعله يصبر على ما يلاقيه من أذى اليهود ، وكأنه أحس صلى الله عليه وسلم بأن استمالة اليهود ودعوتهم الى الدخول فى الاسلام ، او على الاقل الدخول معه فى وحدة وطنية ليس بالصعب ، ولا سيما وان الديانتين قريبتى الطتقى ، اذ يشتركان فى الايمان بالله والايمان بالبعث بعد الموت ، فهذا القرب شجع النبى صلى الله عليه وسلم على تحمل أذاهم والصفح عنهم ، والدخول معهم فى معاهدة لحماية المدينة ، وصد أى عدوان قد تقوم به الوثنية عدوة الديانتين جميعا .

---

(١) سيرة بن هشام جـ٢ ص ١١٩ .

فكان أروع عمل قام به صلى الله عليه وسلم عند وصوله الى المدينة ، دعوته الى وحدة سياسية ونظامية ، لم تكن معروفة لدى مجتمعات المدينة ، وكان أول ما قام به لتحقيق هذه الوحدة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فبعد أن انصهرت الاوس والخزرج فى مسمى واحد وهو مسمى الأنصار ، أراد صلى الله عليه وسلم دمج الأنصار مع جماعة المهاجرين تحت مسمى واحد وهو أمة الاسلام ، ينتمى اليها مسلمو المدينة والوافدون اليها من كل مكان ، وبهذه المؤاخاة وبهذه الوحدة الدينية ذابت عصبيات الجاهلية فلا حمية الا للاسلام .

وبعد ان اكتملت الوحدة الدينية كانت الخطوة الثانية التى قام بها صلى الله عليه وسلم ، دعوته اليهود الى عقد اتفاق بينه وبينهم لتحقيق الوحدة الوطنية السياسية ، وتكوين جبهة داخلية متماسكة ، تشترك فى اعمار المدينة والنهوض بها وصد أى عدوان قد تقوم به قريش أو القبائل العربية المجاورة ان الصحيفة التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع بنودها وجميع الأطراف الذين تنطبق عليهم والذين شاركوا فى التوقيع عليها . يصدق عليها مسمى (الدستور) حسب الاصطلاح السياسى الحديث ،اذ أن فقراتها تعنى بالشئون الداخلية والخارجية على حد سواء .

(ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية التشريعية ، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم ، وقد عرف هذا الدستور بالصحيفة ، ولا نكاد نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على أساس دستور مكتوب ، غير هذه الدولة الاسلامية فانما تقوم الدول أولا ، ثم يتطور أمرها الى وضع دستور ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم ما كاد يستقر فى المدينة ، وما كاد العام الأول من هجرته اليها ينتهى ، حتى كتب هذه الصحيفة التى جعل طرفها الأول المهاجرين

والطرف الثانى الانصار وهم الاوس والخزرج جميعا والطرف الثالث اليهود من أهل يثرب . وهذه الصحيفة مهمة جدا لانها حددت شكل الدولة الاسلامية ، وكذلك هى مهمة لفهم الحوادث التى نشأت بعدها)(١) .

وقد ذكر بن اسحق هذه الصحيفة . وهذه بعض نصوصها على هيئة بنود :

١) أن من تبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

٢) أنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن .

٣) أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

٤) أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته - اى يهلك " .

٥) أن ليهود بنى النجار ، وليهود بنى الحارث ، وليهور بنى ساعدة ، وليهود بنى جشم ، وليهور بنى الأوس وليهور بنى ثعلبة . لهؤلاء ما ليهود بنى عوف الا من ظلم أو اثم فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته ، وان جفنة بطن من ثعلبه ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ،وان البر دون الاثم . وان ليهود الاوس مواليهم وانفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة .

٦) ان بطانة يهود كأنفسهم .

٧) أنه لا يخرج منهم أحد الا باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٨) ان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من

---

(١) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول : أحمد ابراهيم الشريف ص٣٨٧ .

حارب أهل هذه الصحيفة .

٩) ان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

١٠) وانه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم .

١١) وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

١٢) وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

١٣) وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

١٤) وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده ، فان مردّه الى الله والى رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

١٥) وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

١٦) وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

١٧) انهم اذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب في الدين .

١٨) على كل اناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وان البر دون الاثم لا يكسب الا على نفسه وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفه وأبره .

١٩) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أوآثم .

٢٠) وانه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم أو أثم . وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص١٠٦ وانظر الوثائق السياسية د . محمد حمد الله ص ١٨ .

هذه نصوص المعاهدة التى ذكرها ابن اسحاق ، وهي معاهدة عامة شاملة ، تشمل جميع مواطنى هذه الدوله الفتية من مسلمين ويهود ومشركين وقد أكد صلى الله عليه وسلم على عناصر تكوين الامة الاسلامية ، وأنه لأى انسان الحق فى الاسلام والانتماء الى هذه الجماعة يثربيا كان أو مكيا ، عربيا أو عجميا على شرط أن يكون عاملا مجاهدا مدافعا عن الاسلام لا قاعدا خاملا ، وأكد كذلك صلى الله عليه وسلم فى هذه الصحيفة على وحدة الامة الاسلامية .

لكننى لم أشر الى جميع نصوص الصحيفة اذ اكتفيت بما يختص باليهود ، واذا ألقينا نظرة على القبائل اليهودية المذكورة فى هذه الصحيفة لا نجد للقبائل الكبرى ذكرا فيها لكنها فى الوقت نفسه لم تغفل شأنهم بل جعلت لهم مدخلا يدخلون منه ان رغبوا فى ذلك وهذا ما يشير اليه البند الاول من البنود الخاصة باليهود اذ نصه (أن من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .) .

والسبب فى عدم ذكرهم ذكرا صريحا فى هذه الصحيفة أن (هذا يتفق مع ما كانت عليه الحالة السياسية فى يثرب ، فان البطون اليهودية الصغرى كانت قد دخلت فى احلاف مع الأوس ، أو مع الخزرج وذلك بعد سياده هؤلاء فى يثرب ، أما قبائل اليهود الكبرى الثلاثة فقد اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها ثم انها ناوأت الاسلام واظهرت عدائها .

ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بندا عاما للدخول فى الدوله احتمالا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل فى النظام الجديد ، وفعلا الحقت هذه القبائل بالدولة فى محالفات ملحقه) (١)

---

(١) مكه والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، أحمد الشريف ص ٣٩٤ .

لكن الذى يظهر لي أن السبب فى عدم ذكر تلك القبائل لا يرجع الى قوتهم اذ لم يكونوا من القوة بمكان يجعلهم يعتزون بها أمام هذه الدولة الناشئة ، بل على العكس من ذلك فهم ضعاف لدرجة أنهم كانوا داخلين مع العرب فى أحلاف واتفاقات دفاع مشترك وكانت هذه الاحلاف قائمة الى منتصف ليلة - العقبة الثانية - اذ أن الأنصار لما اجتمعوا بالرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة قام صلى الله عليه وسلم واعلن شروطه التى سيبايعهم على تحقيقها من جانبهم ، ولما انتهى من عرض شروطه صلى الله عليه وسلم قام سيد القوم - البراء ابن معرور - وأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن موافقته على الشروط التى ذكرها ، وطمأنه الى أنهم سينصرونه ويمنعونه مما يمنعون منه انفسهم وذريتهم ، وطمأنه كذلك الى انهم اقوياء اشداء أهل حرب وأصحاب خبرة بالقتال منذ عهد سابق ورثوها عن الآباء والاجداد ، والبراء فى أثناء هذه الخطبة عارضه أحد أعضاء الوفد وهو - ابو الهيثم ابن التيهان - معلنا قطع الحلف مع اليهود فقال : (ان بيننا وبين الرجال - يعنى اليهود - حبالا وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى . أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم) (١) .

لكن هل قُطِعَت هذه الأحلاف بالفعل ؟ انى لم أجد ما يشير الى ذلك اشارة صريحة فلعل " ابن التيهان " أراد مجرد الاستيثاق من الرسول صلى الله عليه وسلم أو الاطلاع على رأيه ، أو أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أن من

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦٤ .

الحكمة ابقاء المحالفة بينهم وبين اليهود ليكون أسرع في لم الشمل وتكوين الوحدة ، وانشاء الدولة . فلما علمت اليهود برغبة الأنصار ، وأنهم أبدوا هذه الرغبة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم أخذتهم العزة بالاثم فقطعوا الاتفاق من جانبهم ، ولم يبق على المحالفة سوى القبائل الصغرى التي رأت أن من المصلحة بقاؤها مع الانصار في حلفهم السابق ، فلما عقد الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيفة كانوا هم الذين مثلوا اليهود في الموافقة عليها ، ولم تدخل القبائل الأخرى ضمن الصحيفة الا فيما بعد على صفة انفرادية . اذ ان الرابطة السياسية بينهم وبين الأنصار كانت مقطوعة أثناء كتابة الصحيفة كما ذكرت سابقا ، وبغض النظر عن شملتهم هذه الصحيفة من طوائف اليهود ، ومن الأسباب التي أدت الى عدم ذكر بطونهم الكبرى . تظهر لنا رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في التعاون مع اليهود لنشر السكينة في ربوع المدينة ، وتحقيق الأمن في أرجائها ، وليكونوا يدا واحده في كف الأذى ، وقهر المعتدين .

لقد مد يده عليه الصلاة والسلام اليهم ليتعاونوا معه ، وضمن لهم النصر ، وعدم الظلم ، وأنهم سيجدون من الرعاية في ظل حكومته أكثر مما يجدونه تحت أية حكومة أخرى ، وقد اشترط عليهم صلى الله عليه وسلم ، أن يلتزموا بجزء من مئونة الجيش وقد كرر هذا الشرط أكثر من مرة ، لعلمه صلى الله عليه وسلم بأن اليهود أهل ثروة ، وأرباب تجارة ، وهم في نفس الوقت قوم شح لا يخرجون المال الا بشرط ولتأكيد مبدأ الدفاع المشترك عن المدينة ،جاء في الصحيفة - وأن بينهم النصر على من دهم يثرب - وقد كرر هذا الشرط أكثر من مرة أيضا .

وفي أثنا ء خروج اليهود مع المسلمين للدفاع عن المدينة يلزم اليهود نفقة معسكرهم . جاء في الوثيقة - وأنه على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

وقد تكفل لهم صلى الله عليه وسلم بحرية العقيدة ، ليمارسوا شعائر دينهم بحرية كاملة - لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم - وهذا أكثر ما يحرص عليه صلى الله عليه وسلم لثقته التامة بأن الناس لو تركوا وما يختارون لما اختاروا غير الاسلام دينا ، لأنه الدين الذى يوافق الفطرة البشرية ، وما أخرجه صلى الله عليه وسلم من مكة الا مضايقة أهلها للمسلمين ، وتشديد الخناق عليهم ، ومراقبتهم مراقبة مستمرة لأى انسان يقيم شعائر دينه ، أو يظهر اعجابا بمن يقيم شعائر هذا الدين الجديد - ان الحرية وحدها هى الكفيلة بانتصار الحق ، وزهوق الباطل ، وهى المشعل المؤدى الى طريق الحق .

وكأنه صلى الله عليه وسلم على علم بما تكنه يهود من نوايا الغدر والخيانة فهو يحتاط لنفسه . اذ يشترط عليهم - ان من ظلم فانه لا يظلم الا نفسه وأهل بيته - وقد كرر هذا الشرط مرارا ، ولأن قريشا هى العدو الأول ، ومحاولة العدوان منها أكثر توقعا من غيرها ، ولشد الوثاق على وجوب النصرة عليهم من قبل اليهود خصها صلى الله عليه وسلم بشرط قال فيه - وأنه لا تجار قريش - وكأن الغيب كشف لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو لا يكتفى بتحريم اجارة قريش وحدها بل يضيف الى ذلك قوله - ومن ناصرها - أيا كان . ولهذا الشرط شأن قريب الوقوع ، وكأنه الركن الحامل لبنود هذا الميثاق ، وأن أية محاولة للخروج عليه تعتبر محاولة لنسف كل البنود الخاصة باليهود ، وهذا الشرط خاص باليهود من بين أهل هذه الصحيفة ، حيث انه سبق وان خص المشركين بشرط يماثله - وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا -

ولأجل أن يطمئن على عدم تجسسهم لصالح العدو ، يلزمهم صلى الله عليه وسلم بالبقاء داخل حدود الدولة الاسلامية ، وانه لا يحق لهم الخروج الا بعد

أخذ اشعار وتصريح بالخروج - وأنه لا يخرج أحد الا باذن محمد - صلى اللـه عليه وسـلم .

وصفته عليه الصلاة والسلام صاحب السلطة العليا فى البلاد وليستقر هذا المفهوم فى نفوس الناس جميعا ، احتفظ لنفسه بوجوب رد الامور المتنازع فيهما بين أهل هذه الصحيفة اليه سواء كان النزاع بين مسلمين وأهل كتاب أو مشركين أو بين اهل طائفة وأخرى - وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الله على اتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

بدء الصراع بين المسلمين واليهود :

علمنا من قبل أن الصحيفة التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود لم تكن شاملة لليهود جميعا . لكن الذين لم تشملهم لم يطل الزمان بهم حتى جاءوا الى النبى صلى الله عليه وسلم ليكتب بينه وبينهم عهدا وميثاقا . كما حصل بينه وبين اخوانهم السابقين .

ويبدو أن أول من عاهد النبى صلى الله عليه وسلم من القبائل الكبرى هم " بنو قينقاع " والسبب فى ذلك (أن بنى قينقاع كانوا حلفاء للخزرج ، وكانت بطون الخزرج كلها قد دخلت فى الاسلام ، ثم انهم كانوا يساكنون المسلمين فى داخل المدينة ، فكان الوضع لذلك يقتضيهم أن يتعاقدوا مع النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين . أما " بنو النضير ، وبنو قريظة " فكانوا يسكنون فى منطقة " العوالى " خارج المدينة ، وعلى طرف الحرة الشرقية ، فكانت مساكنهم لذلك بعيدة) (١) .

لكن ما نص هذه المعاهدة ؟ وما شروطها ؟

ان كتب السير لا تذكر نصا لهذه المعاهدة ، فهى تقتصر على مجرد ذكر الاتفاق . (٢) والذى يبدو لنا . أن مضمون هذه الوثيقة . أعنى وثيقة " بنى قينقاع " لم يكن يختلف عما نصت عليه الوثيقة الأولى حيث أن الوثيقة الأولى كانت من الدقة بمكان لا يتيح الخروج عليها ، والمروق منها .

لكن ما هى النهاية لهذا الاتفاق ؟ وما مدى التزام كل من الطرفين به ؟ لقد كانت نهايته الغدر والخيانة من جانب اليهود ، وقديما كان فيهم هذا

---

(١) مكة والمدينة احمد الشريف ص ٤٨٤ .

(٢) انظر ابن سعد جزء ٣ ص ٢٨ وكذا مغازى الواقدى ص ١٣٩ .

الطبع اللئيم ، وكأنه ملازم لهم ملازمة الروح للجسد . قال الله تعالى :-
(أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون) (1) .

وكان أول ظهور ملامح النقد عندما رجع المسلمون من غزوة بدر فرحين بما آتاهم الله من النصر على الوثنية في معركة هي الأولى من نوعها بين المسلمين والوثنيين من أهل مكة ، ومن المعلوم أن الوثنية عدو للديانات السماوية جميعا ، وكان المسلمون بعد عودتهم الى المدينة من تلك المعركة الفاصلة كانوا يتوقعون أن يتقدم اليهم اليهود مهنئين ، ومباركين لهم هذه المنة من الله تعالى .

لكن الذى حدث عكس ذلك . اذ أن صدور اليهود تغلى بالعداوة ، والحقد الشديد لكنهم يسرون ذلك ولا يظهرونه . اذ لم يظهر لهم ما يغبطون المسلمين عليه حتى يجاهروهم بالعداوة . فالمسلمون كانوا قلة ضعافا جياعا لا يخشى بأسهم . هذا ما يتصورونه ، وكانوا يتوقعون أن أى هجوم قد تقوم به مكة كفيل بالقضاء عليهم ، ومحو آثارهم .

لكن لما علموا بانتصار المسلمين فى بدر وهو أمر لم يكن متوقعا . ضاقت صدورهم بما احتوته من الحقد والغيظ ، وأظهروا استياءهم وعدم سرورهم ولم يقروا بالنصر بالرغم من وصول أخبار الثقات به ، وهذا الموقف من جانبهم خرق للاتفاق ، ونقض للعهد بكل وضوح ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن جمعهم وقال لهم (يا معشر يهود أسلموا ، فوالله انكم لتعلمون أنى رسول الله قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش فما كان منهم الا أن قالوا بكل سخرية وغرور يا محمد لا يغرنك من لقيته انك قهرت قوما أغمارا - أى لا علم

---

(1) سورة البقرة آية ١٠٠ .

لهم بالقتال وانا والله أصحاب حرب ، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا) (١) .

الدافع الحقيقي لليهود وراء كراهية نصر المسلمين في بدر :

اننا لو قارنا بين موقف المسلمين بمكة قبل الهجرة من انتصار الروم ، وهم أهل كتاب على الفرس ، وهم وثنيون . ذلك الموقف الذي حكاه القرآن الكريم قال الله تعالى (الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) (٢) .

أقول لو قارنا بين موقف المؤمنين هناك وموقف اليهود من انتصار المسلمين على الوثنيين في بدر لرأينا العجب .

يقول الشيخ الغزالي حول هذا الموضوع (أصحيح أن نزاع اليهود بين والاسلام كان سياسيا لا دينيا ؟ وأن الانفراد بالسلطان في الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

ان التغلغل في فهم العواطف والمشاعر الانسانية ، يفسر كثيرا من المواقف الغامضة لقد رأينا المسلمين في مكة يتحمسون للنصرانية في صراعها مع المجوسية ويحزنون لانكسار الروم أمام الفرس ، مع ان الاسلام لم يكن قد اتصل بعد بالنصارى اتصالا يبرر هذا الحماس . لكنه الشعور الطبيعي الوحيد الذي ينتظر من الرجل المخلص لدينه ، فالمسلمون أصحاب كتاب يدعون الى التوحيد - والنصارى - وان اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد وشابوا الحق بالخرافة

---

(١) مغازي الواقدي ص ١٣٨ .
(٢) سورة الروم آية ١ ، ٢ .

فهم - على كل حال - أهل كتاب . ويعتبرون أعلى مرتبة من عبدة النـــار ، فالرغبة فى انتصارهم على الوثنية الصريحة الشرك - ضرب من الوفاء للاســلام نفسه ، ومن الاحترام للحقيقة التى معك أن تقترب مما يقرب منها وان تبتعد عن كل ما يبعد عنها . وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم حين رحبوا بانتصار الفرس وعدوه رمزا لغلبة الوثنية فى كل صورها على أديان السماء جملــة .

فما معنى ان يغضب اليهود الموحدون -كما يزعمون - من انتصار الاسلام على الشرك وهم يفسر حنوهم على القتلى من عبدة الاصنام وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد ؟؟

ان التفسير الوحيد لهذا الموقف ان اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين وان سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى وانهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو احكام التوراة . لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهــم الغالية وأثرتهم اللازمة ومن ثم شكك القرآن فى قيمة الايمان الذى يدعيه القوم .

" واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بمـا وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنـتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون" .

والظاهر ان طوائف اليهود التى عاشت بين العرب كانت عصابات مـن المرتزقة اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بحيدة فلما علموا أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفــر المخبوء فاذا هو كفر بالله وسائر المرسلين (١)

---

(١) فقه السيرة محمد الغزالى ص ٢٦١ .

إجلاء بني قينقاع عن المدينة :

لم يحدث النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يوما من الأيام ، بنقض العهد الذى بينه وبين اليهود ، ولا طرأ على باله أنه سيضطر يوما من الأيام الى اجلائهم عن المدينة ، أو أنه سيأمر من يأتي بعده من خلفاء المسلمين بوجوب طرد هذا العنصر الخبيث من جزيرة العرب ، بل ربما كان يتوقع منهم أن يكونوا اكثر تفهما لدينه من العرب ، اذ هم أهل كتاب وعلى علم بالاديان ، لكن التوقع شىء والواقع شىء آخر .

ان مجرد اعلان اليهود سخطهم وعدم رضاهم عن نصر المؤمنين فى بدر كفيل بأن يكون مبررا لنقض العهد معهم ، لكن الذى زاد الموقف سوءا ، وكان دافعا لنقض العهد معهم واعلان الحرب عليهم حادثة سوق بني قينقاع قال الواقدى (جاءت امرأة من العرب تحت رجل من الانصار الى سوق بني قينقاع ، فجلست عند صائغ فى حلى لها فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها وهى لا تشعر فخل درعها الى ظهرها بشوكة فلما قامت المرأة بدت عورتها فضحكوا منها ، فقام اليه رجل من المسلمين فاتبعه فقتله ، فاجتمعت بنو قينقاع فقتلوا الرجل ونبذوا العهد الى النبى صلى الله عليه وسلم وحاربوا وتحصنوا فى حصونهم فسار اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاصرهم ، فكانوا أول من سار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجلى يهود قينقاع وكانوا أول يهود حاربت) (١) .

---

(١) مغازى الواقدى ص ١٢٨ .

أثر الجلاء على وحدة المدينة السياسية :

كان الحكم الذى سيتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم في شأن بني قينقاع - القتل - وكانوا يشعرون بذلك ، فهم لما علموا باحكام الحصار عليهم طلبوا منه صلى الله عليه وسلم - ان ينزلوا من حصونهم وينطلقوا - لكنه أبى صلى الله عليه وسلم الا النزول على حكمه ، لكن بعد الحاح رأس النفاق - عبد الله بن ابى - وطلبه من الرسول باصرار وعناد ، أن يحسن الى بني قينقاع ، اذ هم مواليه وسبق أن أسدوا اليه معروفا ، فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن خفف الحكم الى الجلاء ، لكن عدو الله ، ابن ابى لم يكتف بهذا التنازل من الرسول صلى الله عليه وسلم وطمع بأكثر منه (اذ جاء بحلفائه معه ، وقد أخذوا بالخروج ، يريد أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرهم في ديارهم ، فيجد على باب النبى صلى الله عليه وسلم ، عويم بن ساعدة ، فذهب ليدخل فرده عويم وقال لا تدخل حتى يأذن رسول الله لك ، فدفعه ابن ابى ، فغلظ عليه عويم حتى جحش وجه ابن ابى الجدار فسال الدم فصاح حلفاؤه من يهود فقالوا أبا الحباب لا نقيم ابدا بدار اصاب وجهك فيها هذا ، لا نقدر على ان نغيره ، فجعل ابن ابى يصيح عليهم وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول ويحكم قروا ، فجعلوا يتصايحون ، لا نقيم أبد بدار أصاب وجهك فيها هذا لا نستطيع له غيرا ولقد كانوا أشجع يهود) (١) .

ان بني قينقاع كانوا واقعيين مع أنفسهم اذ هم يعلمون بأن ابن أبى لو أفلح في اقناع النبى صلى الله عليه وسلم مرة ثانية في التنازل عن حكم الجلاء

---

(١) مغازي الامام الواقدى ص ١٣٩ .

الى البقاء فى المدينة فانه لن يطول بهم الزمان ، حتى يحدثوا فى المدينة ما يجعل المسلمين ينتقمون منهم ، وعندما يصر الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم القتل فيهم ، فنحن نجدهم هنا يقنعون ابن ابى ، بضرورة جلائهم عن المدينة اذ الجلاء خير لهم .

(لقد ضعفت بالمدينة شوكة اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها فقد كان اكثر اليهود المنتسبين الى المدينة يقيمون بعيدا عنها بخيبر ، ولهذه النتيجة كان يقصد محمد من اجلائهم،وهذا تصرف سياسى غاية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر ، وهو مقدمة لم يكن منها بد للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد صلى الله عليه وسلم . فليس شىء اضر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها ، واذا كان نضال هذه الطوائف لابد منه فهو لابد منته الى تغلب طائفة على سائرها غلبة تنتهى الى سيادتها) (١) .

---

(١) حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، محمد حسنين هيكل ص ٢٨١ .

بدء الصراع مع يهود بني النضير وسياسة النبي صلى الله عليه وسلم معهم :

لقد عرفنا كيف بدأ الصراع مع يهود بني قينقاع وكيف كانت نهايته ، وبنو النضير بطن من بطون اليهود ، واليهود على خلق واحد وان كانوا قبائل شتى ، تجمعهم الخيانة ، ويربط بينهم الغدر ، ويشتركون في العداء والكيد للاسلام والمسلمين ، وهذا البطن من بطون اليهود اظهر العداوة للاسلام منذ اللحظة الأولى لوصول النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، وذلك عندما قال ، أبو ياسر ، لأخيه حيي بن أخطب ، وهذا الاخير سيد قومه ، قال : أهو هو : يعني النبي صلى الله عليه وسلم قال . نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت(١) .

ولقد وفّى هذا الطاغية بعهده ، ولم يعهد فيهم الوفاء الا فيما لا خير فيه ولا شرف .

موقف بني النضير من انتصار المسلمين ببدر :

بعد انتصار المسلمين ببدر في السنة الثانية من الهجرة ، قدم أبو سفيان بن حرب زعيم قريش العدو اللدود للمسلمين وذلك بعد شهرين من هزيمته ، ونزل أول ما نزل على بني النضير وكان الهدف من مجيئه محاولة الاضرار بالمسلمين ، وفاء لنذر ألزم به نفسه ، وبدلا من أن يصده اليهود عن المدينة ، أو يخبروا به النبي صلى الله عليه وسلم ، بدلا من ذلك نجد أن أبا سفيان ومن معه (طرقوا سلام من مشكم ففتح لهم وقراهم وسقاهم خمرا واخبرهم من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان بالسحر ، خرج

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ١١٩ .

أبو سفيان بن حرب فمر بالعريض ، وبينه وبين المدينة نحو من ثلاثة أميال ، فقتل به رجلا من الانصار واجيرا له وحرق بيتاً هناك وتبناً ، ورأى أن يمينه قد حلت ثم ولى هاربا) (١) .

ولم يكتفوا بهذا القدر من اظهار العداوة والتستر على العصابات التي تحاول اقتحام المدينة بل ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فهذا شاعرهم كعب إبن الأشرف يصعد نشاطه ضد المسلمين ولما علم بانتصارهم في بدر ساءه ذلك واظهر سخطه وأطلق لسانه في سب المسلمين ، ولما قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران المسلمين بانتصارهم في بدر ، فزع كعب بن الأشرف لهذا الخبر واستنكره ، ولما لم يكن للشك مجال في صدق ما سمع قال : (أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسميهم هذان الرجلان - يعني زيد وعبد الله بن رواحة - فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها .

فلما تيقن عدو الله الخبر ، خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة السهمي ، وعنده عاتكة بنت ابي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف فأنزلته واكرمته وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الاشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر) (٢) .

وليته أكتفى بسب المسلمين واقتنع بتحريض قريش على غزو المدينة للأخذ بالثأر . بل بلغ به الجزع والحقد مبلغا جعله يفضل الكفر على الايمان ، فلنستمع الى هذا الحوار بينه وبين أبي سفيان بن حرب (ابو سفيان : أناشدك

(١) الطبقات الكبرى - لابن سعد جـ٢ ص ٣٠ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٧ .

أدينا أحب الى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأينا أهدى فى رأيك وأقرب الى الحق ؟ انا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال فقال له كعب بن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلا . قال فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ـ ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) سورة النساء آيه ١٥ (١) .

وعاد من مكة بعد ان بكى أصحاب القليب وقدم التعازى لقريش ، وشجعهم على الاستعداد للأخذ بالثأر واعادة الكرة على المسلمين وقد زادت عداوته لله ولرسوله وللمسلمين وزاد لسانه فحشا وشعره تشبيبا بنساء المسلمين ، ولما وصل الامر الى ذلك نفذ صبر الرسول صلى الله عليه وسلم وضاق صدره ورغب فى الخلاص منه وقال :

(اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت ـ فى اعلانه الشر وقوله الأشعار ـ وقال : من لى بابن الاشرف فقد آذانى . فقال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله وأنا أقتله ، قال : فافعل) (٢) .

فاحتال عليه محمد بن مسلمة حتى قتله واراح المسلمين من شره ، ومقتل ابن الأشرف وفى صبيحة تلك الليلة أعلن النبى صلى الله عليه وسلم اهداره لدماء اليهود وقال : (من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه ، ومراده صلى الله عليه وسلم من يكون منهم على شاكلة ابن الأشرف . فخافت اليهود فلم

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير جـ٤ ص٦ .

(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١١٥ وانظر امتاع الاسماع ص ١٠٨ .

يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطلقوا) (١) .

وقد قام المسلمون بتتبع من سلك مسلك ابن الأشرف وقتلوه فزاد فزعهم فزعا وروعهم روعا واضطروا الى البقاء داخل حصونهم مع ذوات الحجاب .

الاتفاق بين النبى صلى الله عليه وسلم وبنى النضير :

ما كاد دم ابن الأشرف يراق حتى هرع اليهود الى النبى صلى الله عليه وسلم محتجين على قتل زعيمهم مدعين أنه قتل ظلما وعدوانا ، متناسين سوابقه السيئة ،وتاريخه الأسود ، لكن النبى صلى الله عليه وسلم ردّ عليهم (بأنه لو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما أغتيل ،لكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر ، ولم يفعل هذا أحد منكم الا كان السيف ، ودعاهم الى أن يكتب بينه وبينهم كتابا ينتهون الى ما فيه فكتبوا بينه وبينهم كتابا وحذرت يهود وخافت وذلت من يوم قتل ابن الأشرف) (٢) .

أما نص الكتاب ، وشروطه فان القول فيه لا يختلف عن القول الذى ذكرناه عندما تم الاتفاق بين النبى صلى الله عليه وسلم وبنى قينقاع أما من الناحية الوقتية فان ذلك تم فى شهر ربيع الأول بعد خمسة وعشرين شهرا من الهجرة (٣).

---

(١) مغازى الامام الواقدى ص ١٤٨ .
(٢) امتاع الاسماع - للمقريزى ص ١١٠ .
(٣) مغازى الواقدى ص ١٤٤ .

نقض بني النضير للاتفاق :

لم يلبث اليهود بعد توقيع العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى غدروا ، ونقضوا العهد . اذ لم تمض على كتابة الاتفاق سوى سنة واحدة حتى كانت دلائل النقض قد ظهرت بعد موقعة أحد ، وذلك أن المسلمين لما هزموا فى هذه الموقعة كان من الطبيعى أن يفرح اليهود ، وأن ينفسوا عن أحقادهم . وقالوا : (ما محمد الا طالب ملك . ما أصيب هكذا نبى قط ، أصيب فى بدنه وأصيب فى أصحابه ، ويأمرونهم بالتفرق عنه ، ويقولون :- لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل ، وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذلك فى أماكن ، فمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى قتل من سمع ذلك منه من يهود والمنافقين فقال عليه الصلاة والسلام :- ياعمر ان الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة فلا أقتلهم)(١) .

هكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم . على الرغم من ظهور ملامح الغدر من اليهود ، واعلانهم الحرب النفسية على المسلمين الا أنه تمسك بالعهد الذى بينه وبينهم . لكن اليهود لما رأوا أن المصائب تنصب على المدينة ، فبعد أحد حصلت مأساة الرجيع ، ثم بئر معونه ، وأحسوا أن هذه النكبات تركت أعمق الأثر فى نفوس المسلمين ، عز على اليهود ألا يشاركوا مشاركة مباشرة فى جلب المحن على المدينة ، والحاق المصائب بأهلها ، ورغبوا فى الاسهام فى الاغتيالات ، ولو كان ضحيتها الأنبياء فلا ضير فى ذلك اذ هو طبع ملازم لهم لا ينفك عنهم أبدا قال تعالى :-

---

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ص ١٦٥ .

" لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل ، وأرسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ، فريقا كذبوا وفريقا يقتلون " (١) .

ولم تمض الأيام كثيرا حتى سنحت لهم الفرصة التى طالما تمنوها . حصلت لهم بلا جهد منهم ، ولا سابق تخطيط ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء اليهم في حصونهم ، ومعه عدد قليل من الصحابة رضوان الله عليهم بلا عدة ولا سلاح ، وكان سبب مجيئه اليهم . طلب المساعدة منهم فى دية رجلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن أميه الضمرى خطأ ، ولما كان العهد الذى بين النبى صلى الله عليه وسلم وبينهم ينص على المساعدة فى النواحى العادية أجابوه الى ذلك . لكنهم طلبوا منه الانتظار لحاجة فى نفوسهم غير الحاجة المعروضة عليهم . وقد أظهروا الغبطة والسرور بما يريده منهم ، ثم ان اليهود اجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم وقالوا :- انكم لن تجدوا محمدا على مثل هذه الحالة ، واتفق رأيهم على أن يلقوا عليه صخرة من على سطح أحد المنازل ليقتلوه (٢) " ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " (٣) .

وقد تكفل سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعصمه من الناس وقبل القاء الصخرة نزل جبريل عليه السلام يطلب من النبى صلى الله عليه وسلم مغادرة المكان على عجل ليحبط بذلك مؤامرة اليهود التى كان بها نقض العهد .

---

(١) سورة المائدة آية ٧٠ .

(٢) انظر ابن هشام جـ ٣ ص ١١٠ وابن سعد جـ٢ ص٥٧ والكامل جـ٢ ص١١٩ .

(٣) سورة الأنفال آية ٣٠ .

جلاء بني النضير :

فكر النبي صلى الله عليه وسلم في أمر بني النضير بعد هذه المؤامرة منهم على حياته فرأى أنه لا مقام لهم في المدينة ، حيث ان الأعداء قد تكالبوا عليها من الخارج فيلزمه تطهير الجبهة الداخلية ، حتى يتفرغ للجبهة الخارجية (وبعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي ، فلا تساكنوني بها ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشرا فمن رؤي بعد ذلك قطعت عنقه ، فمكثوا على ذلك أياما يتجهزون ، وأرسلوا الى ظهر لهم بذي الجدر ، وتكاروا من ناس من أشجع ابلا ، فأرسل اليهم ابن أبي لا تخرجوا من ديارکم ، وأقيموا في حصنكم فان معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فطمع حيي فيما قال ابن أبيّ ، فأرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انا لا نخرج من ديارنا فأصنع ما بدا لك فأظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير ، وكبر المسلمون لتكبيره ، وقال :- حاربت يهود ، فسار اليهم النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه ، فصلى العصر قرب بني النضير ، وعلى رضي الله عنه يحمل رايته ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاموا على حصونهم معهم النبل والحجارة ، واعتزلتهم قريظة فلم تعنهم ، وخذلهم ابن أبيّ وحلفاؤهم من غطفان فأيسوا من نصرهم فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطع نخيلهم ، فقالوا نحن نخرج عن بلادك ، فقال لا أقبله اليوم ، ولكن أخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الابل الا الحلقة . فنزلت يهود على ذلك ، وكان حصارهم خمسة عشر يوما فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، ثم أجلاهم

عن المدينة وولى اخراجهم محمد بن مسلمة) (١) .

وقد نوه القرآن الكريم بهذه المعركة فى سورة الحشر يقول تعالى :
(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم ، وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب . ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين . وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شئ قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذى أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون .
والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا

---

(١) ابن سعد جـ ٢ ص ٥٧ وانظر ابن هشام جـ ٣ ص ١٠٨ والزرقانى جـ ٢ ص ٧٩ .

ربنا انك رؤف رحيم . ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد انهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) (١) .

بدء الصراع مع بني قريظة ، وسياسته صلى الله عليه وسلم معهم :

لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير عن المدينة سكنوا خيبر ، فأسلمت خيبر قيادتها لهم . وذلك بسبب منزلة بني النضير الدينية اذ هم أعلى مكانا وأشرف قدرا حيث يرجع نسبهم الى نبى الله هارون عليه السلام ، وما أن استقر حييّ بن أخطب فى خيبر حتى بدأ مشاوراته مع القوم ، وأخيرا توصلوا الى وجوب القيام بجولات سياسية يحرضون فيها العرب لاستئصال المسلمين ، ولم يكن هذا الحدث وليد خيبر . بل كان فكرة راسخة فى نفوسهم منذ جلائهم عن المدينة اذ أخذوا على أنفسهم عهدا بمواصلة الحرب (فهذا سلام بن أبى الحقيق " يرفع جلد جمل مملوءا ذهبا وحليا وينادى بأعلى صوته ويقول :- هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وان كنا تركنا نخلا ففى خيبر النخل) (٢) .

---

(١) سورة الحشر من آية ٢ الى آية ١٤ .
(٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٦٧ .

لكن الدوائر ستكون عليهم ، وسيكون الثمن دماء اخوانهم من بني قريظة اذ سيأخذون بأيديهم الى التهلكة .

وكانت أول جولة قام بها الوفد المكون من "حيي بن أخطب" ورفاقه الى مكة وقد رحب المكيون بهذه الزيارة وسألوا حييا عن قومه فقال : (تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحابه وسألوه سؤالا آخر عن بني قريظة فقال :- أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم) (١) .

والواقع أن حييا افترى على بني قريظة اذ لم يكن هذا في نيتهم لكنه رغب في خروج قريش ، وكان عالما أنها لن تخرج الا اذا علمت بأن اليهود سيشتركون معها في الحرب . فقال ما قال اغتناما للوقت ، وحثا على خروجهم ، وكان واثقا بأنه يملك من الأساليب ما يجعل به كعب بن أسد سيد قريظة يعيد النظر في علاقته وعهده مع النبي صلى الله عليه وسلم .

نقض بني قريظة للعهد :

لقد عرفنا أن الغدر والخيانة من صفات اليهود جميعا ، وأن أعتقادهم السائد فيما بينهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل لكن خيانة هذا الحي من اليهود أعني بني قريظة "أشد خيانة ، وغدرهم أشنع غدرا ، ونقضهم للعهد لطعنة من الخلف موجعة ، ولئن كان العهد الذي بينهم وبين المسلمين يلزمهم الاشتراك في الحرب والدفاع عن الوطن . فان المسلمين قد قنعوا منهم بالحياد ، ومجانبة ميدان الحرب . لكنهم يأبون الا نقض العهد والمشاركة

(١) مغازي الواقدي ص ٢٩٠ .

فى الحرب ضد المسلمين ظنا منهم أنهم قادرون مع الأحزاب على سحق المسلمين وابادتهم . لكن الله يأبى ذلك .

ولما أن أجتمعت الأحزاب (جاء حيى بن أخطب الى كعب بن أسد وهو سيد قومه بنى قريظة ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه ، وعاقده على ذلك وعاهده ، فلما سمع كعب بحيى بن أخطب أغلق دونه باب حصنه ، ثم جرت بينهما المحاورة التالية :-

وحيى خارج الحصن وكعب داخله قال حيى :- ويحك ياكعب افتح لى قال كعب :- ويحك ياحيى انك امرؤ مشئوم وانى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ولم أر منه الا وفاء وصدقا . قال حيى : ويحك افتح لى أكلمك قال كعب :- ما أنا بفاعل . قال حيى :- والله ما أغلقت دونى الباب الا عن جشيشتك - والجشيشة : طعام يصنع من البر المطحون خشنا - خوفا أن آكل معك منها . عند ذلك غضب كعب من منطق حيى وفتح له الباب . وبعد فتح الباب جرت بينهما محاورة استعمل فيها حيى أسلوبه الماكر ، وأثر فى نفوس بنى قريظة ، وأخيرا أقنع كعبا بضرورة نقض العهد ، وطعن المسلمين من الخلف بعد أن أعطاه العهد والميثاق أن يكون معهم فى حصنهم يصيبه ما أصابهم بعد ذلك نقض كعب العهد ومزق الكتاب وأعلن مشاركة اليهود للأحزاب فى حربهم ضد المسلمين) (١) .

تأكد النبى صلى الله عليه وسلم من نقض العهد :

حين أشيع أن بنى قريظة نقضوا العهد أرسل رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر ابن هشام جـ٣ ص ١٢٢ وابن سعد جـ ٢ ص ٦٧ والكامل جـ ٢ ص ١٢٣ .

وسلم وفدا يتأكد من صحة الخبر ، وعلى رأس هذا الوفد سعد بن معاذ . ولعل في اختيار سعد لرئاسة الوفد رغبة منه صلى الله عليه وسلم ان كان ما أشيع عن القوم صحيحا أن يحاول اعادة القوم الى رشدهم ، وتمسكهم بالعهد حيث أن لسعد مكانة عند القوم ليست لغيره . اذ هو سيد حلفائهم الأوس ، ولما أن وصل الوفد الى بني قريظة جرت بينهما مناقشة حادة ، وقال بنو قريظة في خبث ووقاحة لما سمعوا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم (من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد . فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حده ، فقال له سعد بن عباده : دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه أن القوم نقضوا العهد) (١) .

موقف النبي صلى الله عليه وسلم من بني قريظة بعد نقضهم العهد :

عند ما تأكد رسول الله صلى الله عليه وسلم من نقض اليهود للعهد ، واعلانهم الحرب قال :- الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين . وما أن سمع المسلمون بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وثقوا من النصر وتوثبت عزائمهم ، واطمأنوا الى أن تخلى اليهود عنهم لن يزيدهم الا قوة وحماسا . بعد ذلك وبعد أن ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديدا شاء الله أن يشتت جمع الأحزاب ، وكفى الله المؤمنين القتال ، ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رغب أن يركن جيشه الى شيء من الراحة بعد أن بلغ منه الجهد ما بلغ ، وبعد أن رأوا الموت بأعينهم فهم في أمس الحاجة الى شيء من الراحة .

---

(١) ابن هشام جـ٣ ص١٢٢ .

وما كاد صلى الله عليه وسلم يدخل فى بيته حتى جاءه جبريل وقال :- (أوقد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال نعم . فقال جبريل فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن الا من طلب القوم . ان الله يأمرك يامحمد بالسير الى بنى قريظة ، فانى عامد اليهم فمزلزل بهم . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا ، فأذن فى الناس من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة) (١) .

ولما وصل المسلمون الى بنى قريظة حاصروهم ، ودام الحصار ما يقرب من الشهر ولما سئمت بنو قريظة من الحصار ، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم محكم حصارها ، وأنها لا طاقة لها بجند الله . نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر أصحاب السير والمؤرخون أن بنى قريظة لما أعلنت نزولها على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلبت من الأوس وهم حلفاؤها التوسط لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله أن يرأف بهم ، ولا يشدد الحكم عليهم ، فاستجابت الأوس لطلب اليهود ، ورغبت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل شفاعتهم لحلفائهم بنى قريظة أسوة باخوانهم الخزرج عندما قبل صلى الله عليه وسلم شفاعتهم لبنى قينقاع .

لكن شتان بين الموقفتين . فان خيانة بنى قريظة أشد وأنكى من خيانة بنى قينقاع ، وأيضا فان الخزرج لم يحاولوا الشفاعة لحلفائهم بنى قينقاع . بل على العكس من ذلك تبرءوا منهم . يدل على ذلك موقف عبادة بن الصامت عندما جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقال :- يارسول الله أتولى الله

---

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٤٢ ابن هشام جـ ٣ ص ١٤٠ .

ورسوله ، والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم) (١) .

أما الذى شفع لهم فانه أخوهم فى الكفر والنفاق عبد الله بن أبىّ وقبل صلى الله عليه وسلم شفاعته مجاملة له ، ورغبة فى انهاء النقاش معه ، ولعله بذلك يرضى غروره ، ويستل حقده ، فيثوب عن نفاقه ، ومع ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يرد الأوس بل أكرمهم بقبول طلبهم حين قال : (يا معشر الاوس ألا ترضون لحلفائكم ان أجعل بينى وبينهم رجلا منكم. قالوا : بلى : قال : فقولوا لهم فليختاروا من شاءوا من الأوس ، فاختاروا سعد بن معاذ لقضاء الله الذى قضى) (٢) .

اعلان الحكم وتنفيذه :

لما قبل صلى الله عليه وسلم وساطة الأوس فى حلفائهم بنى قريظة وذلك فى احالته للقضية على سعد بن معاذ ليحكم فيهم بما يراه عدلا ذهبت الأوس للاتيان بسعد (وجعلوا وهم حوله يقولون له : يا أبا عمرو : ان رسول الله قد ولاك أمر مواليك ،لتحسن معهم ،فأحسن ، فقد رأيت ابن ابىّ وما صنع فى حلفائه واكثروا فى هذا وشبهه ، وهو لا يتكلم ، ثم قال : قد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم فقال الضحاك بن خليفة الانصارى : واقوماه ! وقال غيره نحو ذلك ، ثم رجع الى الأوس فنعى لهم بنى قريظة . فلما جاء سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس حوله . . . . . وقالت الأوس الذين حضروا : يا أبا عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاك الحكم فأحسن فيهم ، واذكر بلاءهم عندك . فقال سعد : أترضون بحكمى لبنى قريظة ؟

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٦ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٤٢ وانظر مغازى الواقدى ص ٢٩٩ .

قالوا : نعـــم ! فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه ان الحكم ما حكم ، ثم قـــال فانى احكم فيهم أن يقتل من جرت عليه المواسى وتسبى النساء والذرية ، وتقســم الأموال . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت بحكم اللـــــــه من فوق سبعة أرقعة . . . ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتـــــل كل من أنبت منهم وترك من لم ينبت ، وتمادى القتل فيهم الى الليل فقتلوا علـــى شعل السّعف) (١) .

---

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ص٢٤٦ و ٢٤٩ .

الفصل الثاني

سياسته صلى الله عليه وسلم مع العرب المجاورين للمدينة

(١) محالفة بني ضمرة .

(٢) محالفة جهينه .

(٣) محالفة بني مدلج .

(٤) محالفة خزاعة .

(٥) محالفة غطفان .

الفصل الثـــانى

سياسته صلى الله عليه وسلم مع العرب المجاورين للمدينة

حينما آخى صلى الله عليه وسلم بين سكان المدينة من مهاجرين وأنصـار وربط بينهم برباط العقيدة عوضا عن رباط الدم واتفق مع اليهود ، وكتب بينـه وبينهم كتابا ذكر فيه ما لهم وما عليهم ، واطمأن صلى الله عليه وسلم على وحـدة الجبهة الداخلية وترابطهـا .

كان العمل الذى فكر فيه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك تأمين حـدود الدولة من العدوان الخارجي ، حيث نجد أنه عليه الصلاة والسلام في السـنوات الأولى من الهجرة يحاول موادعة القبائل المجاورة للمدينة والقبائل القاطنـة على الطريق التجاري المؤدى الى مكة فهو صلى الله عليه وسلم يعلم أن التجـارة هى قلب مكة النابض ، وأن اكتساب ود القبائل الواقعة على الطريق التجـارى يعتبر ضربة لقريش . لها أثرها البالغ فى الحد من نشاطها التجارى .

محالفـة بنى ضمـرة :

استطاع صلى الله عليه وسلم في أول عمل قام به خارج المدينة أن يحالـف قبيلة من القبائل العربية وهم - بنو ضمـرة - قال بن سعد (ثم غـــزا رسول الله صلى الله عليه وسلم - ودّان(١) فخرج في صفر على رأس أحد عشر شهرا يعترض عيرا لقريش ، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة رضى الله عنه فبلـغ الأبواء(٢) فلم يلق كيدا فوادع بنى ضمـرة بن بكر بن عبد مناة مع سـيدهم

(١) ودان هو جبل بين مكة والمدينة بينه وبين الابواء ستة أميال .

(٢) الابواء جبل بين مكة والمدينة لخزاعة وضمرة سمى بذلك لما فيه من الوبـاء وقيل سمى بذلك لتجمع السيول فيه وبالابواء قبر آمنة بنت وهب أم رسـول الله صلى الله عليه وسلم . معجم البلدان - الجزء الأول - ص ٧٩ .

مخشي بن عمرعلى الآ يكثروا عليه ولا يعينوا عليه احدا وكتب بينه وبينهم كتابا ورجع(١) .

نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصرة على من رامهم(٢) الا أن يحاربوا في دين الله ما بلّ بحر صوفه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اذا دعاهم لنصرته أجابوه عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله(٣)) وقد استمرت هذه القبيلة في المحافظة على حلفها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان كان قد ظهر منها ما يشير الى عدم مبالاتها بهذا الحلف واستضعافها للمسلمين وذلك بعد غزوة أحد حيث خيل اليها أن قوة المسلمين قد انهارت بعد هذه الهزيمة الا انها بسرعان ما عادت الى رشدها وأظهرت رغبة في بقاء الحلف ، وذلك حين رأت النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه يخرجون الى بدر الموعد - للقاء أبي سفيان وجيش مكة . رأتهم وقد حرصوا على لقاء أبي سفيان وكأنهم لم يهزموا قط (وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده فأتاه مخشي بن عمر الضمرى وهو الذى كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان فقال يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء ؟ ، وقد أدرك صلى الله عليه وسلم مغزى هذا السؤال فأجاب بنعم يا أخا بني ضمرة وان شئت مع ذلك رددنا اليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك قال لا والله يامحمد ما لنا بذلك منك من حاجة(٤) .

---

(١) ابن سعد جـ ٢ ص ٨ وابن هشام جـ ٢ ص ١٧٠ والطبرى جـ ٢ ص ٢٥٩ وانظر امتاع الاسماع ص ٥٣ .

(٢) رامهم اى قصدهم . (٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٢٥

(٤) سيرة بن هشام جـ ٣ ص ١٢٢ وانظر عيون الاثر جـ ٢ ص ٥٤ .

محالفـة جهينـة :

قبل أن يحالف صلى الله عليه وسلم بني ضمرة ، كان موادعا لجهينة وهي التي أخمدت نار حرب كادت أن تشتعل بين المسلمين وبين قريش حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في سرية الى سيف البحر ناحية العيص ليعترض قافلة لقريش وأوشك الجيشان على اللقاء (واصطفوا للقتال فمشى بينهم مجدى بن عمرو الجهني حتى انصرف الفريقان بغير قتال ، وعاد حمزة رضي الله عنه بمن معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره بما حجز بينهم مجدى وانهم رأوا منه نصفه ، وقدم رهط مجدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكساهم وذكر مجدى بن عمرو فقال انه ما علمت ميمون النقيبة مبارك الامر او قال رشيد الأمر (١) .

واستمرت جهينه على موادعتها للطرفين طوال مدة الصراع بين مكة والمدينة وبقيت على الحياد حتى تحولت الى جانب المسلمين نهائيا بعد موقعة الأحزاب (٢) .

محالفـة بني مدلج :

في غزوة العشيرة بعد ستة عشر شهرا من هجرته صلي الله عليه وسلم صالح بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة (٣) بعد ذلك أصبح عامة أهل الساحل موادعين للنبى صلى الله عليه وسلم يشير الى ذلك الواقدى ، قال صفوان بن أمية :- ان محمدا وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا فما ندرى كيف

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٢٥٩ وامتاع الاسماع ص ٥١ والكامل جـ ٢ ص ٧٨ .
(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول احمد الشريف ص ٤٠١ .
(٣) ابن سعد جـ ٢ ص ٩ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٢٦ .

نصنع باصحابه لا يبرحون الساحل وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه فما ندرى أين نسلك (١) .

محالفة خزاعة :

خزاعة من القبائل الموالية للنبى صلى الله عليه وسلم وان كانت لم تدخل معه في محالفة الا بعد صلح الحديبية . الا أن هواها معه تتمنى له النصر وتحب له الظهور على عدوه وهذا الشعور من خزاعة يكنه المسلمون والمشركون على حد سواء تجاه النبى صلى الله عليه وسلم وقد ساءت خزاعة الهزيمة العارضة التى حلت بالمسلمين فى أحد .

وتمنوا لو كان النصر له والهزيمة لاعدائه ثم ذهبوا الى قريش ليلقوا الروع في نفوس قادتها ولبثوا من الدعاية لجيش المسلمين ما يجعل قريشا تخشى لقاءه وتسارع في العودة الي مكة .

قال بن اسحاق (بعد أن ذكر خروج النبى صلى الله عليه وسلم في أعقاب قريش بعد غزوة أحد . قال وقد مر به كما حدثنى عبد الله ابن ابي بكر ، معبد بن ابي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح (٢) لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفقتهم معه (٣) لا يخفون عنه شيئا . ومعبد يومئذ مشرك فقال يامحمد اما والله لقد عزّ علينا ما أصابك ولوددنا أن الله عافاك منهم ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد حتى لقى ابا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة الى رسول الله صلى الله

(١) مغازى الواقدى ص ١٥٥ .
(٢) عيبة نصح اى مكمن سر .
(٣) صفقتهم اى اتفاقهم .

عليه وسلم وأصحابه . وقالوا أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال ما وراءك يامعبد ؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنهم في يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم ار مثله قط ، قال : ويحك ما تقول ؟ قال : والله ما ارى ان ترتحل حتى ارى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال فاني انهاك عن ذلك فثنى ذلك ابا سفيان ومن معه (١) .

وكان معبد قد ارسل رجلا من خزاعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم ان قد انصرف ابو سفيان واصحابه خائفين وجلين ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بعد ثلاث (٢) وبعد صلح الحديبية نجد أن خزاعه تعلن انضمامها مع المسلمين ودخولها في حلف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . تعلن ذلك أمام الناس بعد أن كانت تسره عنهم ، فبعد أن انتهى النبى صلى الله عليه وسلم وقريش من كتابة عهد الصلح - أى صلح الحديبية - وكان فيه من احب الدخول في عهد محمد وحلفه فله ذلك ولقريش مثل هذا (فوثب من كان هناك من خزاعة فقالوا نحن ندخل في عهد محمد وعقده ونحن على من ورائنا من قومنا فقال حويطب لسهيل بدأنا اخوالك بالعداوة وقد كانوا يستترون منا . قد دخلوا في عقد محمد وعهده وقال سهيل ما هم الا كغيرهم ، هؤلاء اقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد ، قوم اختاروا لانفسهم

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٤٤ انظر البداية والنهاية جـ ٤ ص ٤٨ وعيون الأثر جـ ٢ ص ٣٨ .
(٢) مغازى الواقدى ص ٢٦٣ .

امرا فما نصنع بهم ؟[1] .

محالفة غطفان :

وادع صلى الله عليه وسلم عيينه بن حصن وهو سيد غطفان (على أن يرعى انعامه داخل حدود المدينة في مكان بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا حيث ان ارض المدينة مخصبة وأرض غطفان مجدبة[2]) وكان هذا الرجل سيء الخلق غليظ الطبع أحمق شرسا يجامله الناس مخافة شره واتقاء فحشه نجد ذلك واضحا في سلوكه مع النبي صلى الله عليه وسلم اذ أنه عندما سمن حافره وكثر ماله انكر الجميل الذى أسداه له النبي صلى الله عليه وسلم (واشترك مع الأحزاب في حصار المدينة وقد حاول النبي صلى الله عليه وسلم ان يعقد معه صلحا منفردا لعله أن يرجع ويتخلى عن الأحزاب وكاد هذا الصلح أن يتم لولا معارضة سعد بن معاذ رضى الله عنه[3]

وبعد الاشتراك مع الأحزاب نجده يقوم بغارة على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن سعد (كانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي عشرون ترعى بالغابه وكان ابو ذر فيها فأغار عليهم عيينه بن حصن ليلة الاربعاء في اربعين فارسا فاستاقوها وقتلوا ابن ابي ذر[4]) .

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠٢ وانظر امتاع الاسماع ص ٢٩٨ .
(٢) ابن سعد جـ ٢ ص ٦٣ وانظر السيرة الحلبية على بن برهان الدين الحلبي جـ ٢ ص ٦٨ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٣ وابن سعد جـ ٢ ص ٦٩ .
(٤) ابن سعد جـ ٢ ص ٨٠ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع قريش

- الاذن بالقتال .
- اسباب الاذن بالقتال .
- التعرض لتجارة قريش .

الفصل الثـــالث

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مـــــع قريـــش

الاذن بالقتـــال :

مكث صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو الى سبيل ربه بالحكمـة والموعظة الحسنة ، وأسلم من أسلم معه سرا وجهرا ، وكان موقف المشركـــين السخرية والاستهزاء به صلى الله عليه وسلم وباتباعه ، وليتهم اكتفوا بالايــذاء باللسان وبما فحش من القول ، بل تجاوزوا ذلك الى الضرب والقتل ، وبالاخـص مع الضعفاء والمساكين الذين لا حول لهم ولا قوة ،تساندهم وتحميهم وتفننـــوا فى أنواع الايذاء والحاق الضرر بأولئك المستضعفين ليفتنوهم عن دينهم .

وكان صلى الله عليه وسلم يشارك اصحابه آلامهم واحزانهم لكنه لا يمـــلك الا حثهم على الصبر وتحمل الأذى ، ويذكرهم صبر اخوانهم المؤمنين من الأمـم الماضية ، ويعدهم أن الله سيجعل لهم فرجا قريبا ، ومخرجا عاجلا . لكـــن عليهم الا يستبطئوا نصر الله ، ويلزمهم الصمود أمام هذه المحن ولا سيمـــا وهم أول غرس الاسلام وقاعدة بنائه الشامخ فهم القدوة للأجيال القادمـــة ، وبهم سيضرب المثل فى الصـبر والاستماتة فى سبيل اعلاء كلمة الله .

ولما رأت قريش أن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ولا ينقصـــون ، وأن زيادة التنكيل بهم لا تزيدهم الا صبرا وقوة وجلادة . عند ذلك امتـــدت يد التعذيب ولم تقتصر على الضعفاء ، بل شملت من لهم مكانة عالية مـــن المسلمين ، وتجاوزت أولئك ، لينال صلى الله عليه وسلم من الاذى الشىء الكثير لكنه صلى الله عليه وسلم يهون عليه ذلك ، لانه فى سبيل الله ولا يحـــاول

الانتقام من قومه فهو لا يكن حقدا ولا يضمر عداء فهذا ملك الجبال يخبر النبى صلى الله عليه وسلم انه نزل بامر من الله ليكون تحت تصرفه وطواعية أمره وليأمره بما شاء (ان شئت ان أطبق عليهم الأخشبين (١) فقال صلى الله عليه وسلم بل ارجو ان يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا(٢) .

ولما رأى صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يستطيع دفعه عنهم أمرهم بالهجرة الى الحبشه وقال (لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملك لا يظلم عنده أحد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ، فخرج عند ذلك بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم الى ارض الحبشة مخافة الفتنه وفرارا الى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة فى الاسلام) (٣) .

وتصر قريش على الحاق الاذى بالمسلمين ولو كانوا خارج بلادهم (فلما رأت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنو واطمأنوا بارض الحبشة وانهم قد اصابوا بها دارا وقرارا . تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على ان يبعثوا رجلين جلدين الى النجاشي ليكلماه فى أمر أولئك لعله ان يأمر بردهم الى قريش ليفتنوهم فى دينهم) (٤) .

لكن الله خيب آمالهم فلم يظفروا الا بالخيبة والخذلان من النجاشي ، ولم تكن تلك الهزيمة لتمر بلا أثر على المسلمين المستضعفين بل انها زادت من النكال والتعذيب عليهم واستخدمت قريش كلما تملك من وسائل القهر والعدوان .

---

(١) جبلين بمكه المكرمة .
(٢) متفق عليـــه .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٠ انظر ابن سعد جـ ١ ص ٢٠٤ وعيون الأثر جـ ١ ص ١١٦ .
(٤) ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٨ ابن سعد جـ ١ ص ٢٠٥ .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يسعى جهده ويعرض نفسه الكريمة على القبائل الوافدة الى مكة ايام المواسم لعله يجد مخرجا لاصحابه ومأوا يلجئون اليه وقوة يرتكزون عليها ولما أراد الله للأوس والخزرج خيرا نجدهم يتفقون مع النبى صلى الله عليه وسلم على ان ينصروه ويؤازروه ، ليبلغ رسالة ربه فاستبدل الله غيهم رشدا وولاءهم لقريش عداء وبغضا . وبما انهم اهل حرب وخبرة بالقتال نجدهم يستعجلون الحرب ولا مانع عندهم من أن يخوضوها مع قريش فى عقر دارهم اذ يقول احد رجالهم وهو (العباس بن عبادة " والله الذى بعثك بالحق ان شئت لنميلن على اهل منى غدا باسيافنا ؟ لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا الى رحالكم) (١) لعل القوم ان يرجعوا الى رشدهم ويعيدوا النظر فى موقفهم من المسلمين ولعل قلوبهم أن تعى ما يدعون اليه لكن قريشا تتمادى فى ظلم المسلمين وقهرهم ، وفتنتهم عن دينهم حتى اضطر اكثر المسلمين الى الفرار بدينهم خارج مكة ، واستبان بوضوح ان قريشا لا تريد الانصياع للحق وأنها مصرة على تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم وتأبى الا الكفر دينا وعقيدة وتمعن فى تعذيب المسلمين ، وصرفهم عن منهج الله القويم فلم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يترك عباده فريسة لأولئك الطغاة فالمسلمون وان كانوا يملكون من قوة الايمان ما يضعف قوة قريش ويوهن عزائمهم الا ان للصبر حدودا وللنفس البشرية طاقة لا تستطيع ان تتحمل اكثر منها فالله سبحانه وتعالى لا يريد لعباده الذل والخنوع للطغاة وانما ابتلاهم بمحن اراد منها صقل نفوسهم ، وها هم يخرجون من هذه المحن وقد زادوا ايمانا مع ايمانهم .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٨ ابن سعد جـ ١ ص ٢٢٣ .

وعند هذا الحد اذن الله سبحانه وتعالى لنبيه وللمؤمنين معه أن يدافعوا عن انفسهم بالقتال ووعدهم النصر ، مبينا أنه قادر على ذلك ، وأنه سبحانه يؤيد كل من يعلي كلمة الله في الارض ويعبده وحده لا يشرك به احدا .

قال ابن اسحاق : اذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار من ظلمهم وبغى عليهم . فكانت أول آية انزلت في اذنه له بالحرب واحلاله الدماء والقتال لمن بغى عليهم . فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تعالى : (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلاوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) (١)

اى اني انما احللت لهم القتال لانهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس الا ان يعبدوا الله ، وانهم اذا ظهروا اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم اجمعين ثم انزل الله تبارك وتعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) اى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه (ويكون الدين لله) اى حتى يعبد الله لا يعبد معه غيره (٢) .

---

(١) سورة الحج آية ٣٧ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٠ وانظر عيون الاثر جـ ١ ص ٢٢٢ .

وقد ذهب ابن اسحاق الى أن الاذن بالقتال كان بمكة ، وأن ذلك كان قبل الهجرة . الا أن الامام ابن القيم يرى أن الاذن بالقتال كان بالمدينة بعد الهجرة اذ يقول :- (لما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأيده الله بنصره وبعباده المؤمنين ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة التى كانت بينهم فمنعته أنصار الله وكتيبة الاسلام من الأسود والأبيض ، وبذلوا أنفسهم دونه وقدموا محبته على محبة الأباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم . رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة ، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة ، واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ فى القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال تعالى :- (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) .

وقد قالت طائفة : ان هذا الاذن كان بمكة ، والسورة مكية ، وهذا غلط لوجوه .

أحدها : أن الله لم يأذن لهم بمكة فى القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثاني : أن سياق الآية يدل على أن الاذن بعد الهجرة ، واخراجهم من ديارهم فانه قال :- " الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله " وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : قوله تعالى :- " هذان خصمان اختصموا فى ربهم " نزلت فى الذين تبارزوا فى يوم بدر من الفريقين .

الرابع : أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله :- " يا أيها الذين آمنوا " والخطاب بذلك كله مدني . فأما الخطاب بيا أيها الناس فمشترك .

الخامس : أن الحاكم روى في مستدركه من حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه : أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعون ليهلكن . فأنزل الله عز وجل : " اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا " وهي أول آية نزلت في القتال . واسناده على شرط الصحيحين ، وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني ، فان قصة القاء الشيطان في أمنية الرسول صلى الله عليه وسلم مكية والله أعلم (١) .

وبعد أن ذكر الأدلة المؤيدة لما يقول قال :- ثم ان الله فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال :- " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم " ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرمًا ثم مأذونا به ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين (٢) .

والذي يظهر لي والله أعلم أن ما ذهب اليه ابن القيم أرجح اذ كيف يؤذن له بالقتال وليس له قوة أو أرض تحميه في حالة عدم النصر فسياسة المسالمة في مثل هذه الظروف أكثر نفعا .

ثم ان أهل المدينة عند ما بايعوه عليه الصلاة والسلام بيعة العقبة الثانية طلبوا منه أن يملن العرب على قريش . فهم على استعداد لسحقهم لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لم نؤمر بذلك ، ثم أمر الصحابة

---

(١) يشير الى قوله تعالى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . " سورة الحج آية ٥١ " .

(٢) زاد المعاد - ابن القيم ج ٢ ص ٥٨ .

بالهجرة الى المدينة فهاجروا ، ولم يبق الا قلة من المسلمين أكثرهم من المستضعفين ، وما لبث صلى الله عليه وسلم بعدهم الا قليلا ، ثم لحق بهم . فمن المستبعد أن يأذن له بالقتال وأكثر المسلمين قد هاجروا الى المدينة فأى فائدة من اعلان الحرب فى مثل هذه الظروف .

(ويذهب الامام ابن كثير الى مثل ما ذهب اليه ابن القيم من أن الاذن بالقتال لم يحصل الا بعد الهجرة ، وذلك لأسباب كثيرة منها : قلة عدد المسلمين بالنسبة لعدد عدوهم ومنها كونهم كانوا في بلدهم ، وهو بلد حرام ، وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال . فلهذا لم يؤمر بالجهاد الا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار) (١) .

أسباب الاذن بالقتال :

وبعد فهل كان للاذن بالقتال أسباب ومبررات ؟ أم كان لمجرد العدوان والرغبة فى سفك الدماء ؟ الواقع أنه لابد أن يكون له أسباب ومبررات معقولة ومستساغة . لأن الآذن به هو الله الحليم الحكيم .

وقد أوجز الشيخ عبد المتعال الصعيدى أسباب الاذن بالقتال فى النقاط التالية :

١ - أن المسلمين قوتلوا من قبل قريش ومن حق من قوتل أن يدافع عن نفسه فى القتال .

٢ - أن قريشا ظلمت المسلمين أثناء اقامتهم فى مكة ، ومن حق المظلوم أن ينتقم من الظالم بقدر ما ظلمه عند قدرته عليه .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٢٥ .

٣ - أن قريشا أخرجتهم من ديارهم بغير حق لأنه لا ذنب لهم الا أنهم آمنوا بالله ، ودعوا الى الايمان به ، وهذا ليس بذنب لأن من حق كل انسان أن يدين بما يشاء ، وأن يدعو الى ما يراه حقا ، وقد أقرت جميع الشرائع العادلة حرية الدعوة والاعتقاد لأن في هذا اصلاح العالم .

٤ - أن الدفاع عن النفس بالقتال حق مقرر لا يمكن النزاع فيه ، ولولا تسليط الله المؤمنين على الكافرين بالجهاد لاستولوا عليهم ، وهدموا أمكنة عبادتهم ، فلم يتركوا للنصارى بيعا ، ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات ، ولا للمسلمين مساجد ، وليس بعد هذا الا أن تدول دولة الايمان ، وتستقر عبادة الأوثان والأصنام .

٥ - أن المسلمين اذا مكن لهم في الأرض بالقتال قاموا باصلاحها وأظهروا العمران فيها ، وأحسنوا الى الطبقات الفقيرة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ومن حق الأصلح أن ينصر على من يناهضه في اصلاحه ، وأن يظهر على أهل الفساد في الأرض .

٦ - أن قريشا لم تقلع عن ظلمها بعد اخراجها المسلمين من ديارهم . بل استمرت في ظلمها لمن قعد به الضعف في مكة من الرجال والنساء والولدان فمنعتهم من الهجرة الى اخوانهم بالمدينة ، وعذبتهم بالسجن وغيره من صنوف العذاب فمن حق المسلمين أن يحاربوا في سبيل خلاص أولئك المظلومين ليمنعوا ذلك الظلم والبغي عنهم ، ويمكنوهم من الهجرة اليهم (١) .

---

(١) السياسة الاسلامية في عهد النبوة عبد المتعال الصعيدي ص ٧٣ .

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع قريش :

هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة من مكة أحب البلاد اليه . ولولا أن أهلها أخرجوه منها لما خرج صلى الله عليه وسلم ، ولما أن وصل الى المدينة وحد صفوف أهلها ، وجمعهم على كلمة التقوى ، وتعاهد مع اليهود منهم على حماية المدينة ، والدفاع عنها من أى عدوان قد يشن عليها ، وكان أخشى ما يخشاه صلى الله عليه وسلم من الأعداء قريشا . اذ هى التى تلاحق المسلمين أينما كانوا شاهرة السلاح فى وجوههم . فقد لحقت بهم أثناء هجرتهم الى الحبشة ، وحاولت مع النجاشى أن يعيدهم الى مكة لكنه امتنع لما علم بصحة عقيدتهم ، وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وحين علمت بنبأ بيعة العقبة انزعجت واستاءت لجرأة الخزرج ، وهالها هذا التطور الخطير فى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فليس لهذا الحدث من تفسير الا أن المسلمين وجدوا لهم أنصارا وكونوا لهم قوة ، وأن دعوتهم فى طريق النجاح حيث اتسعت خطواتها فقطعت شوطا بعيدا . وهذا بلا شك تدبير سوء لقريش . اذ فيه القضاء على سلطانها ، وهد كيانها .

فما هو الاجراء الذى ستتخذه الآن لدرء هذا الخطر ؟

لقد قررت أن تذهب الى الخزرج لتتأكد من صحة ما سمعته من أخبار . فما أن ظهر صباح تلك الليلة المباركة حتى جاءوا الى الخزرج (فقالوا يا معشر الخزرج انه قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وأنه والله ما من حى من العرب أبغض الينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم) (١)

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦٨ ، أنظر السيرة النبوية أحمد زينى دحلان جـ ١ ص ٢٩٧ والكامل جـ ٢ ص ٧٠ .

لكن الله غالب على أمره ولو كره المشركون ، وأذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة فهاجروا جماعات وأفرادا .

أما قريش فليس من السهل أن تترك الطريق مفتوحا أمام هؤلاء المهاجرين فهى تعلم يقينا أنهم لابد وأن يثأروا لأنفسهم ، وأن الدائرة ستكون عليها لذلك فهى لا تألو جهدا فى عرقلة هذه المسيرة ، وجعل العقبات فى طريقها . وكان أول من هاجر الى المدينة أبو سلمة وزوجه وابنه .

قال ابن اسحاق :- (قالت أم سلمة لما أجمع أبو سلمة على الخروج الى المدينة رحل على بعيره ، ثم حملنى عليه ، وجعل معى ابنى سلمه فى حجرى ، ثم خرج بى يقود بى بعيره ، فلما رأته رجال بنى المغيره بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا اليه فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها . أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد . قالت فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه ، قالت وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمه فقالوا لا والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا) (١) .

واتفق عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعه ، وهشام بن العاص على الخروج من مكة الى المدينة . لكن قريشا علمت بهم فأفلت الأولان وأُخذ الثالث وحبس وعذب .

ومبالغة من قريش فى صد المهاجرين ، وحرصا منها على عدم خروجهم نجدها تلاحقهم فى المدينة كما لاحقتهم فى الحبشة . وان كان الأسلوب يختلف الا أنها استطاعت اقناع عياش بالعودة الى مكة بعد أن احتالت عليه فانخدع رضى الله عنه فلما أن عاد وهو فى الطريق غدروه وأسروه ودخلوا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٠ وانظر السيرة النبوية احمد زينى دحلان جـ ١ ص ٣٠٠ .

به مكة مكتوفا ونادوا بأعلى أصواتهم (ياأهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا) (١) ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

وخرج صهيب واصطحب أمواله لكن قريشا له بالمرصاد فأوقفته وأبت عليه الخروج . الا إن ترك لهم أمواله . فما كان منه رضى الله عنه الا أن تركها وزهد فيها مادامت ستعيقه ولو لحظة عن الهجرة واللحاق بالمسلمين وقبل أن يدخل المدينة بُشر رضى الله عنه بأن صفقته رابحة .

هذه نماذج قليلة تدل على أفعال قريش الشنعة القبيحة فى حق من هاجر من المسلمين . وكان الصحابة رضى الله عنهم منهم من هاجر قبل النبى صلى الله عليه وسلم ومنهم من هاجر بعده . وانما كانت هذه العراقيل والعقبات فى حق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . فما هو الاجراء الذى ستتخذه قريش فى حقه صلى الله عليه وسلم عند ما تعلم بعزمه على الهجرة ؟

انها تعلم أنه لابد وأن يهاجر ، وأن حلف العقبة أصبح واقعا ، وليس مجرد اشاعة على الرغم من نفى الخزرج لوقوع مثل هذا الحلف بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم . لكن هل كل الخزرج على قلب رجل واحد ؟ ذلك ما لم تتأكد منه قريش بعد .

لقد وصل الى سمع قريش أن محمدا صلى الله عليه وسلم عازم على الهجرة تحقيقا للوعد الذى أعطاه الخزرج . عند ذلك بادرت قريش الى عقد أهم اجتماع فى حياتها ألا وهو اجتماع " دار الندوة " وقرروا فى هذا الاجتماع محاصرة بيت النبى صلى الله عليه وسلم وقتله عند ما يريد الخروج .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٥ وانظر الكامل جـ ٢ ص ٧١ .

لقد أقدموا على شيء كانوا يتوقون الاقدام عليه سابقا فكثيرا ما كانت تحدثهم أنفسهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم . لكنهم كانوا اذا فكروا في عواقب القتل استصعبوها ، ورأوا أنهم لا يستطيعون الثبات أمامها ، فيتحاشون الاقدام على القتل . أما في هذا الاجتماع فانهم رأوا أن الخطر الناجم عن القتل أقل بكثير من الخطر الناتج عن السماح له بالهجرة واللحاق بأصحابه في المدينة ، وفعلا حاصروا البيت عازمين على قتله . لكن يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، وأمر الله نافذ لا محالة ، ولن يحول دون نفاذه حائل .

وها هو صلى الله عليه وسلم يخرج من مكة ، ويلحق بأصحابه في المدينه . وحين علمت قريش بوصوله الى المدينة ، وأن خطتها التي رسمتها لصد المهاجرين فاشلة أرادت أن تعمل خارج مكة لالحاق الضرر بالنبي والذين هاجروا معه . فبعثت برسالة الى الأنصار تحرضهم فيها على التخلي عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيما يلي نص الرسالة :-

أما بعد فانه لم يكن حي من أحياء العرب أبغض الينا أن يكون بيننا وبينهم نائرة منكم - أي عداوة - وانكم عمدتم الى رجل منا أشرفنا في الموضع ، وأعرفنا في قومنا منصبا فآويتموه ، ومنعتموه . ان هذا عليكم لعار ونقصه ، فخلوا بيننا وبينه ، فان يك خيرا فنحن أسعد به ، وان يك سوى ذلك فنحن أحق من ولي ذلك منه ؛ (١) .

ان ارسال مثل هذه الرسالة كان ينذر ببوادر الحرب من قريش على

---

(١) الوثائق السياسية د محمد حميد الله ص ٢٣ رقم ٣ .

المسلمين لقد رأى صلى الله عليه وسلم أن أصحابه فى المدينة فى حالة مزرية ، ضنك من العيش ، وضيق فى الرزق ، وبعد عن الأهل لا لشئ الا أنهم قالوا ربنا الله . فى حين كانت قريش تنعم بالرزق الواسع ، وتطرب لأنين المعذبين ، وصراخ أطفال المهاجرين . تعتدي على أموالهم نهبا وسرقة وتتصرف فى دورهم ومتاجرهم تصرف الملاك . ان ترك أموال المسلمين فى أيدى أولئك الظالمين جبن وخنوع لا يقره الاسلام . (لقد كان طبيعيا أن يتوقع المسلمون أن جيوش الشرك من قريش لابد لاحقة بهم فى مهاجرهم بالمدينة بعد أن أعلنت عليهم الحرب ، وأخرجتهم من ديارهم ، فكان من مقتضيات حالة الحرب القائمة بين قريش وبين المسلمين بالمدينة أن يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بالسرايا والبعوث خارج المدينة للكشف والاستطلاع حتى لا تؤخذ المدينة على غرة وكانت هذه السرايا تعود فى كل مرة بمعلومات قيمة عن نيات قريش ، وما يعدونه للمستقبل القريب حتى اذا علموا بمقدم قريش للحرب استعدوا لها .

وقد ذهب بعض كتاب القانون الدولى الأوربى وكثير من مؤرخيهم المستشرقين الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم وهو الذى بدأ بالعدوان على قوافل قريش وطبيعى أن هذا غير صحيح على الاطلاق . فلا خلاف بين الجميع مسلمين وأوربيين ومستشرقين بأن السرايا التى أرسلت لم تكن مأمورة بقتال) (١) .

وقد ذكر أصحاب السير أن كلا من سرية حمزة ، وسعد بن أبى وقاص ، وغزوة الأبواء ، وغزوة بواط كانت كلها الغرض منها التعرض لعير قريش وتجارتها

---

(١) العلاقات الدولية فى الاسلام/ د كامل سلامه الدقسى ص ٣٤ .

طمعا فى استرداد ما أخذته من المسلمين فما هذه العير ، وما عليها الا من أموال صهيب وغيره من المسلمين المهاجرين ، وما كان صلى الله عليه وسلم يأمرهم بقتال لكن قريشا تأبى الا القتال والدخول فى ميدان الحرب .

ولو لم يعلن المسلمون الحرب عليها فهذه أول حرب بين المسلمين وقريش وهى معركة " بدر " هم الذين أشعلوا فتيلها فما كان من المسلمين الا أن وقفوا للدفاع عن أنفسهم . لقد خرج صلى الله عليه وسلم ليعترض طريق قافلة تجارية عائدة من الشام ، ولم ينو حربا ولا قتالا فهو يقول لأصحابه : (هذه عير قريش فيها أموالهم لعل الله أن ينفلكموها فأسرع من أسرع الى ذلك ، وأبطأ عنه بشر كثير ، وكان من تخلف لم يلم لأنهم لم يخرجوا لقتال انما خرجوا للعير) (١) .

أما قريش فان أمر العير لا يهمها بقدر ما هى شغوفة بالقتال وسفك الدماء للارهاب وكسر الشوكة . فهى لما علمت بدخول قوافلها الحدود الآمنة لم تكتف بذلك بل أبت الا الحرب . فما حاجة قريش الى القتال وقد نجت تجارتها ؟ أليس من الخير لها أن تعود من حيث أتت لتنعم بربح تجارتها . لقد كانت هذه فكرة أبى سفيان فانه لما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل الى قريش انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا - لكن كما قلت يأبون الا الحرب ولو سلمت العير - قال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا ، فتنحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ومسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا

---

(١) ابن سعد جـ ٢ ص ١٢ وابن هشام جـ ٢ ص ١٧٤ الى ص ١٧٨ .

أبدا بعدها قامضوا) (١) .

لكن الله كان لهم بالمرصاد اذ جعل الدائرة تدور عليهم ، وبدلا من أن ينحروا الجزر تتلهم المسلمون ، وبدلا من أن يسقوا الخمر سقوا كأس المنون ، وناحت عليهم النوائح مكان عزف القيان ، وسمعت العرب بهزيمتهم بدلا من أن تسمع بنصرهم وهذه عاقبة الظالمين .

وبعد أن نصر الله المؤمنين وأعزهم ، وهزم المشركين وأذلهم ، لم يكن من الممكن أن تكتفي قريش بما لحقها من عار ، وما حل بها من هزيمة ، وأن تكف عن الاعتداء على المسلمين . بل على العكس من ذلك (فهي لما رجعت من بدر نذر أبوسفيان ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا صلى الله عليه وسلم فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر بيمينه) (٢) .

على أنهم كانوا قبل أن يبرحوا ميدان المعركة قد اعلنوا استمرار حالة الحرب وقالوا يامحمد (الحرب سجال بيننا وبينك وموعدنا العام القادم) (٣) .

وقد أرادوا تنفيذ الوعد فتشاوروا فيما بينهم على أن يوقفوا الأموال التى جاءت من الشام وكانت سببا في هزيمتهم . أن يوقفوها على حرب محمد صلى الله عليه وسلم وقتاله (فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يامعشر قريش :- ان محمدا قد وتركم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا) (٤)

(لكن صدق الله ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله

---

(١) ابن هشام جـ٢ ص١٩٠ وابن سعد جـ٢ ص١٢ .
(٢) ابن هشام جـ٣ ص٣ والكامل جـ٢ ص٩٨ .
(٣) انظر المراجع السابقة .
(٤) ابن سعد جـ٢ ص٢٧ وابن هشام جـ٣ ص١٤ .

فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون) (١) .

وجاء الموعد . وعسكروا بالقرب من جبل أحد ، وأوقدوا نار الحرب بينهم وبين المسلمين ، وكانت الغلبة لهم ، وأخذوا بثأرهم لكن غرتهم أنفسهم فهم لا يزالون مصرين على اعلان حالة الحرب . فأبو سفيان يعلن بعد انتهاء الحرب (ان موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه قل نعم . هو بيننا وبينكم موعدا) (٢) فلن تؤثر هذه الهزيمة العارضة علينا ، ولن نطلب منكم الرأفة أو الهدنة ، ولن نستذل أمامكم ونحن الأعزة بالاسلام فمادامت قريش تصر على اشعال نار الحرب فالمسلمون على استعداد لجعل الكفار وقودا لها ، وتأهب صلى الله عليه وسلم للقاء أبي سفيان في المكان الذي حدده وليس ذلك رغبة في الحرب لكن حفاظا على سمعة المسلمين ورفعا لمعنويتهم أمام الأعداء . أما أبو سفيان فرأى أنه لا يستطيع أن يمون جيشه مئونة تجعله قادرا على دخول الحرب فما كان منه الا أن جبن عن لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع من حيث أتى .

ثم لم يلبث أن خرج أبو سفيان قائدا لقريش مع الأحزاب ، وفي نيتهم أن يقضوا قضاء نهائيا على الاسلام ودولته الفتية ، وسُر أبو سفيان لمنظر جيوش الأحزاب وهي تحاصر المدينة ، وكان يظن أنها ان لم تسقط صباحا ففي العشية ، وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا جاء فيه (باسمك اللهم فاني أحلف باللات والعزى لقد سرت اليك في جمعنا ، وانا نريد ألا نعود أبدا حتى نستأصلكم فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق .

---

(١) سورة الانفال آية ٣٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٨ وعيون الأثر ج ٢ ص ٥٣ .

فليت شعرى . من علمك هذا . فانا نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحـــــد) (١) .
فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبى سفيان بن حرب . أما بعد قد أتانى كتابك ، وقديما غرك بالله الغرور ، وأما ما ذكرت انك سرت الينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمك ؟ الذى صنعنا من الخندق . فان الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك) (٢) .

ثم ان الله رد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكف الله المؤمنين القتال وواصلت قريش عداءها للمسلمين تشن الحرب عليهم اذا سنحت لها الفرصة الى أن حجز بينهم وبين المسلمين صلح الحديبية .

---

(١) امتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص ٢٣٨ .
(٢) الوثائق السياسية د . محمد حميد الله ص ٢٧ رقم ٦ ، ٧ .

الباب الثالث

****

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم بعد صلح الحديبية

يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : عقد الصلح والأحداث التى أدت اليه .

الفصل الثانى : آثار صلح الحديبية .

الفصل الثالث : نقض الصلح وفتح مكه .

الفصـــل الأول

عقد الصلح والأحداث التي أدت اليه

الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى زيارة البيت :

في السنة السادسة من الهجرة في شهر ذي القعدة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام أنه دخل مكة ، وطاف بالبيت .

فاخبر أصحابه بذلك ، فسرهم هذا الخبر وفرحوا به فرحا شديدا ، وكيف لا يفرحون وقد بعد بهم العهد عن مكة ولاسيما المهاجرين منهم الذين ولدوا ونشأوا بها .

كانت الظروف الأمنيه مهيأة لهذه الزيارة حيث أنها جاءت بعد غزوة الخندق التي طهرت المدينة من العنصر اليهودي ، وبعدها لم يصبح للمنافقين بأس يخشى ولا للاعراب حول المدينة قوة تخاف . وقريش قائدة الكفر والضلال تحطمت معنوياتها النفسية . لما رأت ان الله يدافع عن الذين آمنوا في كل موطن ، وأنها لم تجن من الأحزاب الا الخيبة والخذلان وفقدان الهيبة من قلوب القبائل العربية ، وأنها كلما حاولت اضعاف المسلمين وزعزعة الايمان من قلوبهم زادوا قوة وكثرة وزاد الايمان رسوخا في قلوبهم .

لما رأى صلى الله عليه وسلم أن الظروف مهيأة لزيارة مكة دعا الناس الى ذلك واستنفر العرب ومن حوله من الأعراب ، واهل البوادي وهو يخشى قريشا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت . (ثم خرج صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والانصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس انه انما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له)(1) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٦ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٣٦ .

(وقد اشار عمر رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم بحمل السلاح والاستعداد للمقاومة لأنه رأى ان النبى صلى الله عليه وسلم يخشى من أبي سفيان ولم يحمل سلاحا كما اشار عليه بذلك ايضا سعد بن عباده لكنه صلى الله عليه وسلم أصرّ على عدم حمل السلاح وقال : لست احمل السلاح انما خرجت معتمرا) (١) .

الا أن النبى صلى الله عليه وسلم وان كان لا يريد حربا لابد وأن يحتاط وأن يأخذ للامر عدته خشية أن يرغم على الدخول فى حرب مع قريش لهذا (يقدم عبّاد بن بشر ، امامه طليعة فى عشرين فرسا من خيل المسلمين ، ويبعث بعين له الى مكة وهو بشر بن سفيان الخزاعي ، ليأتي له باخبار قريش وما تنوى القيام به ازاء هذه الرحلة السلمية ، ودخل بشر مكة فسمع كلامهم وعرف رأيهم ثم رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل (٢) ،قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى (٣) يعاهدون الله لا تدخلها عليهم ابدا وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها الى كراع الغميم (٤) ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياويح قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فان هم أصابوني كان الذى أرادوا وان اظهرني الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين (٥) ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة

---

(١) انظر امتاع الاسماع للمقريزى ص ٢٧٥ .

(٢) العوذ المطافيل اى الابل معها أولادها .

(٣) ذى طوى موضع قرب مكة .

(٤) كراع الغميم موضع بين مكة والمدينة .

(٥) وافرين اى كاملين .

فما تظن قريش فوالله لا ازال اجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد (١) هذه السالفه (٢)) .

رد الفعل من جانب قريش :

سمعت قريش بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد خرج علنا وطلب من العرب وسائر الأعراب ان يخرجوا معه ولقريش فى كل مكان عيون تأتي لها بالاخبار فلما سمعوا بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم ذعروا لهذا الزحف الصامت واخذوا فى التفكير والتخطيط فى سبيل ابعاده عن مكه مهما كان الثمن لانها توقعت أن هيبتها ستزول من قلوب العرب ان هي رضخت لطلب المسلمين وسمحت لهم بزيارة البيت الحرام . لذلك نجدهم يستنفرون قواتهم ومن تبعهم من الأحابيش وثقيف ولأجل الصمود فى وجه الزحف الاسلامي ، ولاشعار المسلمين بان قريشا لن تسمح لهم بدخول مكه الا على جثثهم ، امّا وهم أحياء فلا نجدهم يخرجون بالنساء والاطفال وما يلزم من مئونة الحرب الطويلة (٣) .

تفادى الرسول صلى الله عليه وسلم للقتال :

لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنوايا قريش العربية وأكد له بشر ابن سفيان أن قريشا تريد الحرب . استشار أصحابه ، ومن سياسته صلى الله عليه وسلم الاستشارة وعدم الاستبداد بالرأى ، ولهذا يقول ابو هريرة رضي الله عنه ما رأيت احدا قط كان اكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم امتثالا لقول الله تعالى : (وشاورهم فى الامر) (٤) .

---

(١) السالفه : صفحه العنق .
(٢) ابن سعد جـ ٢ ص ٩٥ وابن هشام جـ ٣ ص ١٩٧ .
(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٧ وانظر السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٠ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

استشار اصحابه هل يمضى لوجهه ويقاتل من صده عن البيت ، أو يخالف الذين أستنفروا الى اهليهم فيصيبهم ، فاشار ابو بكر رضى الله عنه أن يمضوا لوجههم ويقاتلوا من صدهم واشار عليه المقداد بن عمرو بمثل ذلك ووافقهما فى الرأى اسيد بن حضير رضى الله عنهم اجمعين (١) .

لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن راغبا قط فى قتال ، وكان حريصا كل الحرص على ان تكون رحلته هذه سلمية بعيدة عن القتال فهو يتجنب أسبابه ودواعيه منذ خرج من المدينة مهما كلفه ذلك من ثمن ، مادامت النتيجة كسب ودّ القبائل الموالية لقريش واستدرار عطفهم واظهار قريش امام حلفائها بمظهر الظالم الباغي لعل ذلك يخل بالعلاقات فيما بينهم ويزعزع ثقة العرب بقريش .

وعلى الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم كان في مركز القوة الا أنه كان يكره الحرب بقدر ما يحب السلام . فضلا عن انه كان قد احرم بالعمرة والاحرام يتنافى مع الحرب والقتال (فلما رأى أن قريشا متهيأة لحربه وقد ارسلت له الطلائع قال لاصحابه هل من رجل يخرج بنا على غير طريقهم حرصا منه على عدم لقائهم وكراهية لحربهم . فجاء رجل وسار بهم حتى دنوا من الحديبية وهى طرف الحرم على تسعة اميال من مكة فوقعت يد راحلته صلى الله عليه وسلم على ثنية تهبطه على غائط لقوم فبركت ، فقال المسلمون حل حل يزجرونها فأبت ان تنبعث فقالوا خلأت القصواء فقال صلى الله عليه وسلم ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل اما والله لا يسألوني اليوم خطة فيها تعظيم حرمة الله الا أعطيتهم اياها

---

(١) امتاع الأسماع للمقريزى ص ٢٩٧ .

ثم زجرها فقامت فولى راجعا عوده على بدء حتى نزل بالناس على ثمد من أثماد الحديبية (١) .

المفاوضات بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش :

لما استقر صلى الله عليه وسلم بالحديبية وعلم ان الله لا يريد له دخول مكه وانتهاك حرمتها وأعلن انه يقبل التفاوض مع قريش على أية خطة فيها تعظيم حرمات الله ، جاءه بديل بن ورقاء واخبره بان قريشا مستعده لحربه وصده عن دخول مكة . لكن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأنه لم يأت لأجل حرب . بل جاء لقصد الزيارة فقط فرجع بديل الى قريش وأخبرها بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن قريشا كانت مصرة على عدم السماح له بدخول مكه وفي الوقت نفسه تشعر بأنها لا تملك منعه من الدخول لان العرف السائد المتبع ان البيت الحرام للعرب جميعا سواء العاكف فيه والباد . وانها ان منعت المسلمين من زيارة البيت فانها ستقدم على عمل لم تُسبق اليه لذلك نجدها ترغب في المفاوضات وتجرى المحادثات مع النبي صلى الله عليه وسلم لعلها تجد خلاصا من هذا المأزق ومخرجا من تلك الورطة .

سفارة عروة بن مسعود :

كانت سفارة عروة بن مسعود الثقفي على اثر فشل سفارة بديل بن ورقاء . ولعل بديلا تدخل من تلقاء نفسه حبا للاصلاح بين الناس وكراهية للحرب وموالاة للمسلمين اذ كان هو وقبيلته -بني خزاعة- عيبة نصح لرسول الله صلى

(١) ابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٨ .

الله عليه وسلم (١) .

ولما رأى عروة أن بديلا لم يفلح في وساطته وأن الخطة التي جاء بهـا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خطة رشيدة طلب من قريش ان يفوضـوه ليتحدث باسمهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاسيما وأن قريشا لا تتهمه في موالاته لها فاستحسنت ذلك من عروة وأذنت له بالسفارة والمفاوضة . فجـاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحدث اليه . وأخيرا رجع بمثل ما رجـع به بديل وقد وجد من حسن الاستقبال وسلامة النية ووضوح الحجة ما جعلـه يكتشف خطأ قريش ، فقال لهم ياقوم لقد عرض عليكم محمد خطة فخذوه ياقوم اقبلوا ما عرض فاني لكم ناصح مع أني أخاف الا تنصروا عليه . رجل أتى هذا البيـت معظما له معه الهدى ينحره و ينصرف فقالوا لا تتكلم بهذا . عند ذلك غضب وغادر مكة الى الطائف (٢) .

سفارة سيد الاحـابيش (٣) :

لما رفضت قريش سفارة عروة بن مسعود ولم تأخذ برأيه غادر مكة الـى الطائف احتجاجا على عدم الاصغاء لرأيه والاخذ بمشورته (فبعثوا الحليس بـن علقمة ، وهو سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال : ان هذا من قوم يتألهون (٤) ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض (٥) الوادى في قلائده (٦) ، وقد أكل أوباره من طول الحبـس عن محله ، رجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اعظامـا

(١) ان اجعلوا بينكم وبينه مدته .
(٢) امتاع الاسماع للمقريزى ص ٢٨٨ .
(٣) المراد بالاحابيش القبائل التى تجمعت من غير قريش وقد حالفوا قريشـا تحت جبل يقال له حبشي فنسبوا اليه .
(٤) اى يتعبدون ويعظمون أمر الاله . (٥) عرض الوادى جانبـه .
(٦) القلائد : ما يعلق فى اعناق الابل علامة على انها هدى .

لما رأى ، فقال لهم ذلك فقالوا له اجلس فانما أنت اعرابى لا علم لك .

لكن الحليس غضب عند ذلك وقال : يامعشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ! والذى نفس الحليس بيده ، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لانفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له : مه ، كف عنا ياحليس حتى نأخذ لانفسنا ما نرضى به (١) .

سفارة مكرز بن حفص :

لقد بعثت قريش فى سفارتها البر والفاجر من رجالها ، فهذا مكرز بن حفص لما طلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله : ان هذا رجل فاجر ، وفى رواية غادر (٢) ، لكنه لم يكن بأسعد حظا ممن قبله ، حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمه بما كلم به من قبله ، فرجع الى قريش بما رجع به السابقون ، لقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقنع رسل قريش بالحجة تارة ، وبالعمل تارة أخرى ، الشىء الذى جعل بعضهم يغضب من موقف قريش وتصرفاتها ، وبهذا كسب صلى الله عليه وسلم هذه الجولة مع قريش والزمها بالتفاوض الجاد معه .

الرسول صلى الله عليه وسلم يبعث بسفرائه الى قريش :

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبعث من قبله رسولا الى قريش ليؤكد لهم أنه انما جاء زائرا ومعظما لحرمة هذا البيت وانه لا رغبة له فى الحرب ، فبعث (خراش بن أمية الخزاعى) وحمله على بعير له يقال له ، الثعلب ،

(١) ابن هشام ٣ ص ٢٠٠ والكامل جـ ٢ ص ١٣٧ وابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ .
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٩ .

ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وارادوا قتله ، فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله (١) حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا فعلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والغريب في الأمر أن رسل قريش تغدو وتروح على معسكر المسلمين ولا يمسها أحد بسوء ولا مكروه ، ايمانا منهم بشرف مهمة الرسول وحرصا على انجاحها . حقا لقد أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى .

سفارة عثمان بن عفان :

بينا كيف رجع خراش بن أميه الى رسول الله وانه لم يستطيع ابلاغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث انهم حاولوا قتله ، فرضى من الغنيمة بالأياب .

أترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن رفضت قريش سماع رسالته ، أتراه سيجد لنفسه مبررا آخر للحرب وسببا لاقتحام مكة ؟ لا . ان الحرب والعنف في نظرة صلى الله عليه وسلم ليست من وسائل التغيير دائما ، والحرب ليست من وسائل نشر رسالته صلى الله عليه وسلم اللهم الا عند ما يضطر اليها وهى آخر الدواء على الرغم من أنه ثبت لدى جميع القبائل العربية المحيطة بمكة والموالية لقريش خذلأ قريش وتمنتها ، وأنه صلى الله عليه وسلم لو استنفر هذه القبائل لحرب قريش لما وجدها كارهة ، لكنه صلى الله عليه وسلم ، رأى بثاقب بصره الثمار الطيبة التى ستجنيها الدعوة الاسلامية ، اذا ما سادت العلاقات

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠١ وابن سعد جـ ٢ ص ٩٦ .

السلمية شيئا من الوقت بين مكة والمدينة ، وها هو يمد يده مرة أخرى الى قريش طلبا للسلم لعلها تثوب لرشدها ، لقد أراد صلى الله عليه وسلم ارسال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبلغ رسالته الى قريش ، لكن عمر فكر مليا ، كيف يذهب الى قوم قد حاولوا قتل رجل هو أقل شأنا من عمر ، وعمر اخطر منه على قريش ، اذا لو ذهب اليهم لقتلوه ولما وجد من يجيره .

وقد أشار رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبعث عثمان بن عفان ، حيث أنه له من القدر والاحترام عند قريش ما ليس لغيره ، ولعلها أن تصغى له وتسمع منه رسالة رسول الله " فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان وكتب له كتابا الى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت الا زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته وأمره أن يأتى رجالا مسلمين مستضعفين بمكة ونساء مؤمنات مستضعفات بها ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم ان الله وشيك ،اى قريب ، أن يظهر دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالايمان ، فخرج عثمان رضى الله عنه ودخل مكة ومعه عشرة من الصحابة رضى الله عنهم باذن النبى صلى الله عليه وسلم ، ليزوروا أهليهم ، وجاء عثمان الى عظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به وهم يردون عليه ويقولون ان محمدا لا يدخلها علينا أبدا (١) .

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠١ وابن سعد جـ ٢ ص ٩٧ والسيرة النبوية احمد دحلان جـ ٢ ص ١٧٤ .

بيعة الرضـــوان :

طالت المحادثات بين عثمان وقريش واستغرقت من الوقت اكثر مما توقـــع المسلمون . الشيء الذى جعل المسلمين يتخوفون عليه حتى أشيع بينهم أنـــه قتل ولم تكن هذه الشائعة قابلة للشك ولاسيما وان قريشا حاولت قتل رجل قبـــل عثمان قام بمثل مهمته وأيضا (فقد بعثت بخمسين رجلا ليصيبوا من المسلمـــين غرة . لكن المسلمين ظفروا بهم واسروهم) (١) .

هذه الاسباب جعلت المسلمين لا يشكون فى خبر مقتل عثمان فشـــاع الخبر حتى وصل الى سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا نبرح حـــتى نناجز القوم فدعا صلى الله عليه وسلم الى البيعه فكانت بيعة الرضوان تحـــت الشجرة (٢) وقد نزل القرآن منوها بشأن هذه البيعه يقول تعالى :" لقد رضـى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشـــجرة " (٣)

لقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم العذر فى مناجزة القـــوم بعد أن أعلن نيته واضحة صريحة مرارا وتكرارا واظهر رغبته فى السلم قولا وعمـــلا من حين ما خرج من المدينة ولبس ثياب الاحرام . لكن قريشا أبت أن تنصـــاع للحق فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن دعا الناس لحرب قريش .

سعى قريش للصـــلح :

لم يكد المسلمون يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلـــغ خبر البيعه أهل مكه فاخذت قريش تعيد النظر فى موقفها وتفكر فى عاقبه هـــذه

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ص ٢٩٠ عيون الاثر جـ ٢ ص ١١٦ .
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠٢ وابن سعد جـ ٢ ص ٩٧ .
(٣) سورة الفتـــح آيه ١٧ .

الهيمة ، ورأت أن المسلمين لابد وأن يدخلوا مكه عنوة ان هي لم تسع الى طلب الصلح بصدق وجد وان حاولوا اقتحام مكه فلن تستطيع الصمود امامهم حيث ان كثيرا من حلفائها وأنصارها قد تفرقوا عنها وبقيت في حالة نفسيه متحطمة ، لانها تحس بأنها غير محقة في موقفها وانها على باطل . فرأت ان في الصلح ابقاء لهيبتها ومركزها القيادى فسارعت الى ذلك (واوفدت سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت لسهيل ائت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا . فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة ابدا) (١) .

فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، فلما انتهى سهيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم فاطال الكلام وتراجع ثم جرى بينهما الصلح وقد اظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مرونة وتساهلا مع سهيل ، وذهب في ملاينته الى حد بعيد . ظاهره فيه الغبن والحيف وباطنه فيه الفتح المبين كما أخبر رب العالمين ، وجرى مع أصحابه صلى الله عليه وسلم على طبع غير مألوف حيث انه لم يستشر في هذا الاتفاق . ولو كان الامر اليهم لدخلوا مكة عنوة لكن كيف يستشيرهم في أمر اراده الله منذ حبس الناقة عن مكة ولم يمكنها من مواصله السير ؟ وقد أغضب هذه الاتفاق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى قال (يارسول الله ألست نبى الله حقا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى . قال عمر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٢٠٢ ابن سعد ج ٢ ص ٩٧ الكامل ج ٢ ص ١٣٨ .

بلى . قال عمر فلم نعطى الدنية فى ديننا اذا ؟ قال رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم انى رسول الله ولست أعصيه . هو ناصرى قال عمر أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى لكن هل اخبرتك ان نأتيه هذا العام ؟ قال عمر لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانك آتيه ومطوف به .

ولم يقف عمر رضى الله عنه عند هذا الحد ، ولعله هاب أن يراجـــع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فذهب الى ابى بكر وحاول أن يستشيره لعله يساعده على رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل رسول الله يرجع عن ما عزم عليه ويعيد النظر فى موقفه فقال يا أبا بكر أليس هو نبى الله حقا ؟ قال أبو بكر بلى . قال عمر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال ابو بكر بلى قال عمر فلم نعطى الدنيه فى ديننا اذا ؟ قال ابو بكر ايها الرجل انه لرسول اللـــه صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه . وهو ناصره فاستمسك بغرزه فوالله انه على الحق) (١) .

صدق الصديق رضى الله عنه انه لذو ايمان عميق راسخ رسوخ الجبال . اللهم ارزقنا ايمانا كايمان الصديق ابى بكر (اذ لم يكن احد فى القوم راضيـــا بجميع ما رضى به النبى صلى الله عليه وسلم غير ابى بكر رضى الله عنه وبهذا يتبين علو مقامه ، ويمكن أن الله كشف لقلبه والهمه على بعض تلك الاسرار التى ترتبت على هذا الصلح كما اطلع على ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فانه حقيق بـــذلك رضى الله عنه)

(١) صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٢) السيرة النبوية احمد دحلان .

وقد لبى صلى الله عليه وسلم جميع مطالب سهيل بن عمرو ، فانه عند الكتابه رفض سهيل ان يتولى الكتابة الا احد رجلين عثمان بن عفان أو على بن أبى طالب رضى الله عنهما وعند الشروع بالبسملة رفض سهيل أن يكتب الا باسمك اللهــم .

وعند ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو أعلم انك رسول الله ما خالفتك واتبعتك لكن اكتب اسمك واسم أبيك (١) .

شــروط صلح الحديبيــة :

اتفق الرسول صلى الله عليه وسلم مع قريش التى كان يمثلها سهيل بن عمرو على الشــروط التاليــة :

أولا : وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه لا اسلال (٢) ولا اغلال (٣) وان بيننا عيبه (٤) مكفوفة .

ثانيا : أن يرجع محمد صلى الله عليه وسلم هذا العام بأصحابه ويعود للعمرة من العام القادم على الا يقيم فى مكة الا ثلاثة أيام والا يحمل معه سلاحا الا سلاح المسافر .

ثالثا : من أحب أن يدخل فى عهد محمد " صلى الله عليه وسلم " وعقده فعل ،

---

(١) امتاع الاسماع للمقريزى ص ٢٩٧ .
(٢) الاسلال ، السرقة الخفية والرشوة .
(٣) الاغلال ، الخيانة .
(٤) العيبة ، وعاء من أدم يصان فيه المتاع ، والمكفوفة المعقودة والمراد أن بينهم فى هذا الصلح صدرا معقودا على الوفاء بما فى هذا الكتاب نقيا من الغل والغدر والخداع .

ومن أحب ان يدخل في عهد قريش وعقدها فعل .

رابعا : من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده محمد اليه ومن أتى قريشا من أصحاب محمد لم يردوه .

شهد على هذا الاتفاق من المسلمين أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن ابى وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمه .

ومن قبل قريش شهد حويطب بن عبد العزى ، ومكرز بن حفص .

وكتب الكتاب على بن ابى طالب رضى الله عنه واخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طالب سهيل بن عمرو بأن يكون الكتاب عنده فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمه بكتابة نسخة أخرى تكون عند سهيل (١) .

تنفيذ العهد :

لما أوشك النبى صلى الله عليه وسلم ان يوقع هو وسهيل بن عمرو على اتفاق الحديبية أراد الله أن يمتحن صبر المؤمنين ، وقوة ايمانهم ، ووفاءهم بالعهد الذى لم يرتضوه الا خوفا من الله ورسوله ، اذ ساق الله اليهم ابا جندل بن العاوض (القرشى) سهيل بن عمرو ،فلما وصل الى معسكر المسلمين رده والده " وقام اليه فضرب وجهه ، واخذ بتلبيبه (٢) ثم قال : يامحمد قد لجت القضية (٣) بينى وبينك قبل ان يأتيك هذا ، قال صدقت ، فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده الى قريش ، وجعل ابو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أأرد الى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس

(١) انظر ابن هشام جـ٣ ص ٢٠٤ وابن سعد جـ ٢ ص ٩٧ وامتاع الاسماع ص ٢٦٨ والحلبيه جـ ٣ ص ٢١ .

(٢) تلبيبه ، يقال فى الخصومه أخذ بتلبيبه وتلابيبه اذا جمع عليه ثوبه الذى هو لابسه من عند صدره ونحره ،ثم قبضه وجره اليه .

(٣) لجت القضية أى تمت .

الى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك واعطونا عهد الله وانا لانغدر بهم (١) .

وقد حاول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو الذى استفزه هذا الشرط ورأى ان فيه اجحافا فى حق المسلمين حاول مع ابى جندل ، واثار فيه الحمية الدينية ليقتل اباه .

وجعل يقول : يا أبا جندل ، ان الرجل يقتل اباه فى الله والله لو ادركنا أباءنا لقتلناهم فى الله فرجل برجل ، فقال له ابو جندل : مالك لا تقتله أنت ؟ قال عمر نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله وقتل غيره قال ابو جندل : ما أنت أحق بطاعة رسول الله منى (٢) .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ورائه حريصين كل الحرص على الوفاء بهذه الشروط ، وان كان المسلمون لم يرتضوها ، ورأوا انها فى صالح قريش اكثر منها فى صالح المسلمين ، ورأوا ان بعض اخوانهم اصبح ضحية لها ، الا ان الالتزام بها أصبح جزءا من دينهم .

ولما وصل المسلمون الى المدينة قادمين من الحديبية ، وفد ابو بصير قادما من مكة بغير اذن وليه ، فهو ينطبق عليه الشرط الذى بموجبه يرد الى قريش ، ولم يكد يستقر فى المدينة حتى جاء وفد من قريش مكون من رجلين

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠٤ .

(٢) انظر امتاع الاسماع ص ٢٩٥ وعيون الاثر جـ ٢ ص ١٢٠ .

بمطلان كتابا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه " قد عرفت ما شارطناك عليه - وأشهد نا بيننا وبينك - من ردّ من قدم عليك من أصحابنا فابعث الينا بصاحبنا" (١).

فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن رد ابا بصير تنفيذا للعهد ، على الرغم من محاولة استعطاف ابو بصير له وخوفه على نفسه من الفتنة عن الدين ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : انا قد اعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى دينا الغدر ، وان الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجا ومخرجا ، فقال : يارسول الله . تردنى الى المشركين ؟ قال : انطلق يا أبا بصير فان الله جاعل لك مخرجا .

فخرج أبو بصير رضى الله عنه ، يحدوه الامل فى الفرج والمخرج الذى وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم وسرعان ما بدا له ضوء من الفرج عندما رأى غفلة من الرجلين فقتل احدهما وعاد الى المدينة ، فقال - يارسول الله وفت ذمتك وادى الله عنك . وقد أسلمتنى بيد العدو ، وقد امتنعت بدينى من أن افتن فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال .

وأمره صلى الله عليه وسلم بالعودة مرة ثانية مع الرجل الذى فر بنفسه ولجأ الى النبى صلى الله عليه وسلم . لكن هذا الرجل خاف ان يلحقه ابو بصير بصاحبه وامتنع عن الذهاب به الى مكة .

عند ذلك قال صلى الله عليه وسلم لابى بصير الحق حيث شئت (٢)

لقد أدرك ابو بصير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرور بعمله مؤيد لاى أجراء

---

(١) امتاع الاسماع ص ٢٠٣ - الوثائق السياسية ص ١٢ رقم ١٢ ، ١٤ .
(٢) انظر : ابن هشام جـ ٣ ص ٢٠٧ والكامل جـ ٢ ص ١٤٠ .

يقوم به ضد قريش ، الا انه لا يقره على البقاء داخل حدود المدينة عملا بالاتفاق فانطلق رضي الله عنه الي ساحل البحر في منطقة تمر بها قوافل قريش التجارية وشرع يهدد هذه القوافل ولما سمع به المستضعفون بمكه خرجوا اليه وكونوا معه عصابه ضيقت علي قريش أمرها وأخافت طريقها التجاري وأرعبت الوافدين الي مكـه .

لقد صدّقت الحادثات رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم باسرع مما كان يتوقع . فها هي قريش تسأله بالله والرحم الا اعفاها من هذا الشرط الذى اصر عليه سهيل بن عمرو وقبله المسلمون وهم له كارهون فقبل صلى الله عليه وسلم التماس قريش ووافق على قبول المهاجرين من مكه في المدينة (ان هذا الشرط الذى غضب من أجله المسلمون وعارضوه ما لبث أن ظهر انه في غير مصلحة قريش وانه كان وبالاً عليها . والرسول صلى الله عليه وسلم حين قبله كان سياسيا بعيد النظر وكان حكيما عالما بما يصلح الدولة فى داخلها فانه ليس من مصلحة الدولةان يكون بين صفوفها من لا يؤمن بمبادئها ومن كان هواه مع أعدائها وكانت قريش قصيرة النظر حين حبست بعض المسلمين في مكة ومنعتهم من الهجرة وعملت على فتنتهم عن دينهم بالقوة فقد استمسك هؤلاء بدينهم برغم تعذيب قريش وكانوا نقطة ضعف داخل الدولة المكية) (١) .

وقد رأينا كيف ان هؤلاء المستضعفين حين تمكنوا من الهرب من مكه صاروا حربا على قريش وكانت خطورتهم عليها أشد من خطورة المسلمين بالمدينة لأن المستضعفين من أهل مكه وهم أدرى بما يوجعها .

---

(١) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول   احمد الشريف ص ٤٧٠ .

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من المهاجرات :

للمهاجرات المسلمات شأن يخالف شأن المهاجرين فقد وقف منهن رسول الله صلى الله عليه وسلم موقفا غير الموقف الذى وقفه مع المهاجرين اذ أقرهن على البقاء فى المدينة ورفض طلب قريش باعادتهن الى مكة .

(وكانت أول مهاجرة من مكة الى المدينة بعد الحديبية أم كلثوم بنت عقبه بن ابي معيط وقد جاء اخوها فى طلبها وقال يامحمد أوف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه فقال صلى الله عليه وسلم قد نقض ذلك فانصرف الى مكة فاخبر قريشا فلم تبد احتجاجا وكأنها وافقت على استثناء النساء) (١) .

وقد أنزل الله فى شأن النساء المهاجرات قرآنا قال تعالى :

" ياأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا) (٢)

قال سيد قطب رحمه الله (نزلت أحكام هذه الحالة الدوليه تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته دون تأثير بسلوك الفريق الآخر وما فيه من شطط وجور على طريقة الاسلام فى كل معاملاته الداخلية والدولية . وأول اجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحرى سبب الهجرة فلا يكون تخلصا من زوج مكروه ولا طلبا لمنفعه ولا جريا وراء حب فردى فى دار الاسلام) (٣) .

---

(١) انظر ابن هشام جـ ٣ ص ٢١٠ .
(٢) سورة الممتحنة آية ١٠ انظر اسباب النزول للنيسابورى ص ٢٨٥ .
(٣) فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٥٤٦ .

وبهذه الأحداث يتبين بعد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن سياسته وصواب رأيه . واقتنع الصحابه بأنهم كانوا يتعجلون الأمور حين كرهوا ذلك الصلح الذى كان خيرا وبركة على الاسلام والمسلمين .

الفصل الثـــانى

آثـــار صلـــح الحديبيـــة

أولا : القضاء على يهود شبه الجزيرة العربيـــة .

ثانيا : مراسلة ملوك الأمم وامرائهـــــا .

الفصل الثـــانى

آثـــار صلــح الحديبيـــة

لم يمض الا زمن قليل حتى تمخضت شروط صلح الحديبية عن نتائج هـى في صالح المسلمين ، فبعد مضى سنة من الاتفاق عاد الرسول صلى الله عليـه وسلم والمسلمون معه لقضاء العمرة التى صدتهم عنها قريش ، ومكثوا في مكـة ثلاثة أيام بثوا فيها من الدعوة للاسلام ما جعل قلوب كثير من سادة قريش وقادتها تتفتح له وتتقبله ، على الرغم من ان الشرك والولاء للوثنية كان يعمر تلك الأفئدة وكان له فيها جذور عميقة ، الا ان هذه القلوب لما رأت البر والوفاء والاخـلاص يسود بين المسلمين أثر فيها ذلك تأثيرا اقتلع جذور الشرك والوثنية وهذا واضح في سرعة اسلام الصحابيين الجليلين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضـى الله عنهمـا .

(يقول الامام ابن القيم رحمه الله : فى معرض حديثه عن آثار صلـح الحديبية فمنها انها كانت مقدمه بين يدى الفتح الاعظم الذى اعز الله بـه رسوله وجنده ودخل الناس به في دين الله افواجا ، فكانت هذه الهدنه بابا لـه ومفتاحا وموذنا بين يديه ، وهذه عادة الله سبحانه وتعالى في الأمور العظـام التى يقضيها قدرا وشرعا ان يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات تـوذن بها وتدل عليها .

ومنها ان هذه الهدنه كانت من أعظم الفتوح ، فان الناس امن بعضهـم بعضا واختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة واسمعوهم القرآن وناظروهـم على الاسلام جهرة آمنين ، وظهر من كان مختفيا بالاسلام ، ودخل فيه فـى

مدة الهدنة من شاء الله ان يدخل ، ولهذا سماه الله فتحا مبينا .

قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيما ، وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية) (١) .

وقال الزهرى : فى هذا الصـــدد

فما فتح فى الاسلام فتح قبله كان اعظم منه ، انما كان قتال حيث التقى النـــاس فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وامن الناس بعضهم بعضا ، والتقـــوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يكلم احد يعقل شيئا بالاسلام الا دخـــل فيه ، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الاسلام قبل ذلك او أكثر .

قال : ابن هشام ، والدليل على قول الزهرى ان رسول الله صلـــى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية فى الف وأربعمائه ، فى قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين بعشرة آلاف (٢) .

أولا : القضاء على يهود شبة الجزيرة العربية

كان من آثار صلح الحديبية القضاء على يهود شبة الجزيرة ، فبعـــد أن اتفق صلى الله عليه وسلم مع قريش على انهاء حالة الحرب مدة عشر سنيـــن ، أمن على المدينة من الناحية الجنوبية ، فتفرغ للعدو من الناحية الشماليـــة ، وكان ألد الأعداء من هذه الناحية وأقربهم الى المدينة ، اليهود . وكانت خيبر والمناطق المجاورة لها مركزهم ومكان تجمعهم حيث انه قد انضم اليهم بعـــض يهود -بنى النضير- عند ما أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المدينة .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٦ .

وقد أخذ يهود خيبر يخططون للقضاء على المدينة ، وكانوا يضمرون ذلك من حين خروجهم من المدينة وقت الجلاء ، فهذا - ابو رافع - سلام بن ابى الحقيق - يرفع جلد جمل مطوءا حليا ويقول : هذا أعددناه لرفع الارض وخفضها وان كنا تركنا نخلا ففى خيبر النخل (١) .

ولما تولى قيادة الامر فى - خيبر - اتفق مع غطفان ومن حوله من مشركى العرب على حرب المدينة ، فلما علم صلى الله عليه وسلم بذلك بعث اليه عبد الله بن عتيك • فقتله (٢) ، ثم تولى الامر من بعده - أسير بن زارم - وأخذ فى اكمال مخطط ابى رافع ، وقد حاول صلى الله عليه وسلم ان يستميله اليه وان يدخل معه فى اتفاق ، وبعث فى هذا الطلب - عبد الله بن رواحه - رضى الله عنه ، ولما عرض الامر على أسير وافق مبدئيا على الطلب ، وخرج فى وفد من اليهود مع ابن رواحة الى المدينة ، لكنه ندم فى عرض الطريق وحاول الغدر فى وفد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن وفد رسول الله استطاع ان يتفدى برافع ومن معه قبل ان يتمشى بهم (٣) ، ثم تولى الامر من بعده سلام بن مشكم ، وقد سأله اليهود عن رأيه فى الحرب مع محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : نسير الى محمد بما معنا من يهود خيبر فلهم عدد ، ونستجلب يهود تيما ، وفدك ، ووادى القرى ، ولا نستعين بأحد من العرب ، فقد رأيتم فى غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب ، ثم نسير اليه فى عقر داره (٤) فقالوا هذا هو الرأى .

لما علم الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنوايا اليهود ومخططاتهم توجه الى خيبر ، وذلك فى السنه السابعة من الهجرة وامر ألا يخرج معه الا من شهد

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٢٦٧
(٢) ابن سعد جـ ٢ ص ٩١ .
(٣) انظر ابن سعد جـ ٢ ص ٩٢
(٤) الواقدى جـ ٣ ص ٥٣٠ نقلا عن - دراسات فى السيرة النبوية - عماد الدين خليل

الحديبية ، الا أن يكون غازيا متطوعا ليس له من الغنيمة شيء (١) .

والسر في ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن الى قوة نفسه وسمو روحه وبعد تفكيره عن الكسب المادى ، فليس هو قصده الغنيمة ، وان ما ينتظر من قتال أمام حصون خيبر لا تثبت له الا النفوس المطمئنة المؤمنة ، التى تسامت عن المادة والرغبة فيها ، فان النفوس المتعلقة بالمادة لا تثبت امام الامتحان العسير ، ولقد كانت تجربة الاحزاب كافية ليدرك الناس أن النفوس لا تباع رخيصة امام متاع الحياة ، فان غطفان وغيرها من الاعراب يوم الاحزاب لم يثبتوا على حصار يثرب ، فقد كانوا يريدون غنيمة سهلة ، فلما لم يستطيعوا تحقيقها ، أو لما بدا لهم أن تحقيقها امر يحتاج الى الصبر وبذل النفس تضعضعت قلوبهم ، وتفرقت كلمتهم ، ورضوا ان يعودوا من الغنيمة بالاياب ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يريد ان يضم الى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة ، وهو يتوقع الحصار الطويل ، والقتال امام خيبر أشد القتال .

كان صلى الله عليه وسلم يريد جيشا مؤمنا بأهدافه مقدرا للظروف ، موطنا النفس على الصبر والشدة ، يريد سيوفا تحركها قوة النفس وتمنعها عزة الايمان ان تغمد أو تنتصر ، ولا يريد سيوفا سلها جشع النفس ، ثم يغمدها الحرص على الحياة ، وكان جيشه صلى الله عليه وسلم كما اراده قليلا بعدده كثيرا بايمان رجاله وثبات نفوسهم وتصميمهم على الوصول لأهدافهم (٢)

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خيبر ليلا ، ولم يشعر به اليهود الا عند الصباح لما خرجوا الى مزارعهم ، وقد افزعهم منظر الجيش اذ مجيئه

---

(١) ابن سعد جـ ٢ ص ١٠٦ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ١٩٣ .
(٢) مكة والمدينة الشريف ص ٤٩٤ .

فى هذا الوقت فاجئ لهم ، وهربوا الى حصونهم ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

وكان يهود خيبر لا يظنون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم ، لمنعة وقوة حصونهم وسلاحهم وعددهم ، وكانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفا ثم يقولون ! محمد يغزونا !! هيهات هيهات ! فعمّى الله عليهم فخرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى نزل بساحتهم (١) .

قال ابن اسحاق : ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح ، وحاز من الاموال ما حاز ، انتهوا الى حصنهم الوطيح والسلالم ، وكانا آخر حصونهم افتتاحا ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، حتى اذا أيقنوا بالهلكة سألوه ان يسيرهم وان يحقن لهم دماءهم ففعل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أحرز الاموال كلها ، الشق والنطاة والكتيبة (٢) ، وجمع حصونهم الا ما كان من ذينك الحصنين الوطيح والسلالم .

فلما سمع بهم أهل فدك (٣) قد صنعوا ما صنعوا بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم ، وان يحقن دماءهم ، ويخلوا له الاموال ففعل ، وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم فى ذلك محيصة بن مسعود ، فلما نزل اهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢١٢ وامتاع الاسماع ص ٣١٠ .
(٢) الشق ، والنطاة والكتيبة ، اسماء لحصون من حصون خيبر .
(٣) فدك : قرية فى الحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة عن طريق الشمال - معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٤٢ .

وسلم ان يعاملهم فى الاموال على النصف وقالوا : نحن اعلم بها منكم ، واعمر لها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف على أنا اذا شئنا اخرجناكم ، فصالحه اهل - فدك - على مثل ذلك (١) .

يهود وادى القرى (٢) :

واما يهود وادى القرى فان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاهم الى الاسلام واخبرهم انهم ان اسلموا احرزوا اموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله لكنهم ابوا فقاتلهم حتى فتحها عنوة وقسم صلى الله عليه وسلم ما اصاب على اصحابه وترك الارض والنخل فى ايدى اليهود وعاملهم عليها (٣) .

يهود تيماء (٤) :

ولما بلغ يهود تيماء ما وطىء رسول الله صلى الله عليه وسلم به خيبر وفدك ووادى القرى صالحوه على الجزية ، واقاموا بايديهم اموالهم (٥) .

لقد وافق رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان يبقى اليهود ، بخيبر ، ولا يجلوا عنها ليصلحوا ارضها ويزرعوها مناصفة ، وذلك حين امن من شرهم وكسر شوكتهم ولم يصبح لهم باس يخشى ، فهم اقدر على زراعة الارض من غيرهم والرسول عليه الصلاة والسلام بحاجة الى اصحابه اذ ان الدولة لا تزال تحف بها

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ٢١٨ والاموال لابى عبيد ص ١٠٨ والكامل لابن الأثير جـ ٢ ص ١٥٣ .

(٢) وادى القرى وادى بين المدينة والشام كثير القرى - معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) الكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ١٥٠ وعيون الاثر ابن سيد الناس جـ ٢ ص ١٤٤ وامتاع الاسماع للمقريزى ص ٣٣٢ .

(٤) تيماء بلد فى اطراف الشام بين الشام ووادى القرى .

(٥) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢١٨ وامتاع الاسماع ص ٣٣٢ .

المخاطر فهي بحاجة الى كل فرد من رجالها ، وهي بحاجة كذلك الى المؤنة والمال لذلك اقرهم الى اجل يعود تحديده اليه عليه الصلاة والسلام فهم عرضة للجلاء في اية لحظة ، اذ يقول صلى الله عليه وسلم " نقركم ما نشاء " وذلك لانه يعرف طبع اليهود وغدرهم .

وكتب صلى الله عليه وسلم الى بني جنبة وهم يهود بمقنا والى أهل مقنا ، ومقنا قرب ايله واعطاهم ذمة الله وذمة رسوله وأخذ منهم الجزية (١) .

آثار غزوة خيبر :

لقد كان من نتائج سقوط خيبر أن سقط معها النفوذ السياسي والعسكري لليهود في الجزيرة العربية ، وأخذ وجودهم في التقلص شيئا فشيئا حتى إمّحى في آخر الأمر ، وذلك حين أخرجهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ولايته .

ولقد تغير الموقف تغيرا جذريا لصالح المسلمين بعد سقوط خيبر اذ أن قريشا كانت تشعر بأن سلطانها مرتهن بسلطان اليهود ومرتبط به ، فلما انهار سلطان اليهود أخذت ترقب انهيار سلطانها .

يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون معلقا على آثار غزوة خيبر :

" ومما لا شك فيه ان غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتوح الاسلامية اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب نتائجها باهتمام وتنظم شئونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الانصار واليهود وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بادية العرب وحاضرتها يعلقون آمالا كبيرة على تلك الغزوة (٢) .

---

(١) ابن سعد ج ١ ص ٢٧٦ .
(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٦٢ .

ويقول الدكتور محمد جمال الدين :

كان لانتصار المسلمين فى خيبر أهمية خاصـــة فقد ترتب عليه أن أصبح لدولتهم الناشـــئة أراض مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج ، كما أدى الى وجود جماعة من اليهود يشملها السلطان السياسى للدولة الاسلامية ،وهكذا وجـــد بتلك الدولة لأول مرة أهل ذمة (١) .

---

(١) قيام الدولة العربية الاسلامية فى حياة الرسول صلى الله عليه وســــلم ص١٤٩ .

ثانيا : مراسلة ملوك الأمم وأمرائها

لما اطمأن صلى الله عليه وسلم على الأوضاع الأمنية فى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية وغزوة خيبر ، وأصبح الموقف السياسى فى الجزيرة العربية فى صالحه . أخذ يعمل لنشر دعوته خارج الجزيرة العربية ، ولك أن تعجب كيف أقدم صلى الله عليه وسلم على دعوة هؤلاء الملوك على الرغم من أن الاسلام لم ترسخ أقدامه بعد فى قلب الجزيرة العربية ، وأن زعماء القبائل العربية ، وبالأخص قريش صاحبة القول المسموع لم يستجيبوا بعد للدعوة ، فكيف بالبلاد الأعظم شأنا ، والأظهر حضارة وقوة خارج الجزيرة العربية (ان توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل . لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه جحودا " واذا رأوك أن يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا "(١) فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ألا يكونوا أسرع الى السخرية ، وأدنى الى الكفران ؟

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون الى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور فان ثقتهم العميقة فى سيادة فكرتهم ، وامتداد نطاقها تصغر العقبات المفروضة فى الطريق ، وتجعلها ولو كانت الشم الرواسى هباء منثورا) (٢) .

ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان موقنا كل اليقين بأن الله ناصر دينه ، ومكمل كلمته ، وأن دعوته ستبلغ ما بلغته الشمس ، وأنه ليس عليه الا البلاغ ،

---

(١) سورة الفرقان آية ٤٠ .
(٢) فقه السيرة محمد الغزالى ص ٣٩١ .

ولكمال يقينه صلى الله عليه وسلم نجده يعد سراقة ابن مالك بعد أن لحق به أثناء خروجه صلى الله عليه وسلم مهاجرا من مكة الى المدينة (١) يعده بأنه سيلبس سوارى كسرى ، ويتساءل سراقة باستغراب سوارى كسرى بن هرمز ؟ ويجيبه صلى الله عليه وسلم وكله ثقة ويقين نعم كسرى بن هرمز ، ويتحقق الأمر بعد ، حين . يوم أن دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه سراقة بن مالك وقال له (ارفع يديك وألبسه السوارين وقال له قل الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول أنا رب الناس) (٢) .

لقد كشف الله تعالى لرسوله خارطة دولة الاسلام وألهمه عليها ، ورأى ببصيرته وكمال يقينه حدود الدولة الاسلامية فى وقت كانت فيه رقعة الدولة الاسلامية لا يتجاوز رأى العين ، وأفرادها يعدون بالمئات وكان ذلك اثناء حفر الخندق قال : ابن اسحق وحدثت عن سلمان الفارسى ، أنه قال : ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على صخرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان علىّ ، نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى قال : ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة اخرى . قال : قلت بأبى أنت وأمى يارسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : أوقد رأيت ذلك ياسلمان ؟ قال : قلت نعم ، قال : أما الأولى فان الله فتح بها على اليمن وأما الثانية فان الله

---

(١) أنظر قصة سراقة " أسد الغابة " جـ ٢ ص ٣٣١ .
(٢) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٤٥ .
(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ١٣٠ .

فتح على بها الشام والمغرب وأما الثالثة فان الله فتح على بها المشرق[1]، وبعد أن أخذ خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم ، باكمال خططه وتحويل الخارطة الموعودة الى واقع ملموس ، علق أبو هريرة رضى الله عنه على تلك الفتوح بأن قال : " افتحوا ما بدا لكم فو الذى نفسى ابى هريرة بيده ، ما أفتتحتم من مدينة ولا تفتحونها الى يوم القيامة الا وقد اعطى الله سبحانه محمدا مفاتيحها قبل ذلك " [2] .

لعل بعد هذه المقدمة يزول العجب ، ويذهب ما فى النفس من تساؤل لماذا أقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أرسال رسله خارج الجزيرة العربية فى حين لم تكن الدولة الاسلامية متهيأة لهذه الأعمال حسب رأى بعض الناس .

كانت الدول الكبرى فى ذلك العهد هى دولة الروم ودولة الفرس ، وكان بين الدولتين تنافسا شديدا ، وحروبا طاحنة ، من أجل السيطرة على الامارات الصغيرة ، وقد أنتهى الأمر فى ذلك الوقت واليمن والعراق تحت النفوذ الفارسى والشام ومصر والحبشه تحت النفوذ الرومى

وحين عزم صلى الله عليه وسلم على ارسال رسله الى الملوك والأمراء " خرج على أصحابه فقال لهم : ان الله بعثنى رحمة وكافة . فأدوا عنى يرحمكم الله ، ولا تختلفوا علىّ كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه السلام . قالوا : وكيف يارسول الله كان اختلافهم ، قال : دعاهم لمثل ما دعوتكم له .

---

(١) ابن هشام جـ ٣ ص ١٢٠ .
(٢) المصدر نفسه .

فأما من بعثه مبعثا قريبا فأحب وسلّم . وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وأبى . فشكا ذلك عيسى منهم الى الله فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وجه اليهم (١) .

والذى يظهر من كلام ابن سعد فى الطبقات ، ان رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبحوا وكل واحد منهم يعرف لغة الملك الذى ارسل اليه (٢) .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان الملوك لا يقرؤن كتابا الا مختوما فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله (٣) .

وكانت اللغة التى كتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله هى اللغة العربية . ولسائل أن يسأل ، لماذا لم يخاطب كلا بلغته التى يعرفها ؟

يقول حسين بن على الاحمرى " ولكنه صلى الله عليه وسلم كتب الى ملوك العجم " كقيصر وكسرى والنجاشى " بلغة العرب مع أن الجدير أن يكتب الى كل قوم بلسانهم اظهارا للمعجزة ، واستحداثا للالفة ، فما الوجة فى ذلك ؟ وأى فائدة فى الكتابة بالعربية ؟

والذى يقضى به التدبير ، وينتهى اليه الفكر . أن الفائدة فى ذلك هى حفظ شئون الملة الاسلامية وصونا لجانب الاستقلال والعظمة ، ألا ترى أن الأمم الراقية المتمدنة تسعى فى نشر لسانها فى العالم حتى تصير لغتها لغة عالمية اعلاء للسيادة ، وتثبيتا للعظمة ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يلاحظ جانب الاسلام وأنه يعلو ولا يعلى عليه ، وأن لغة القرآن لابد وأن

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ١٨٨ والسهيلى جـ ٧ ص ٤٦٤ .
(٢) ابن سعد جـ ١ ص ٢٥٨ .
(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٠٨ .

تنتشر وتعم العالم لأن القرآن كتاب للعالم . فعظمة القرآن وعموم دعوته ، وعظمة النبى ورسالته العالمية تقضى بأن يكتب اليهم بلغة القرآن .

فعلى ملوك العالم أن يتعلموا لسانه المقدس ، ولغته السامية لغة القرآن المجيد تثبيتا لهذا المرمى العظيم ، والغرض النبيل (١) .

هذا وسوف أكتفى بذكر بعض رسائله صلى الله عليه وسلم ولاسيما الموجهة الى الحكام العظماء كقيصر الروم وكسرى فارس ، ومن كان تحت نفوذهم حيث أننى لا أريد من رسالتى هذه جمع وثائق النبى صلى الله عليه وسلم بل المراد والغرض ذكر سياسته مع أولئك الحكام ، والرسائل التى سأذكرها تعتبر نقطة البداية فى سياسته صلى الله عليه وسلم الخارجية ، ولعل فيما أذكر ان شاء الله ما يفى ببعض الغرض ، ويلقى شيئا من الضوء على سياسته صلى الله عليه وسلم الخارجية . هذا مع أن كتب النبى صلى الله عليه وسلم جميعها تتضمن معنى واحدا وترمى الى هدف واحد وهو الدعوة الى الله تبارك وتعالى .

<u>كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل :</u>

روى ابن حبان فى صحيحه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ينطلق بكتابى هذا الى قيصر وله الجنة . قال رجل . وان لم يقبل ؟ قال : وان لم يقبل فأخذه دحية بن خليفة الكلبى رضى الله عنه .

يبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان علم الرغم بما يكنه الروم من ازدراء وسوء معاطلة للعرب ، وأن الوصول اليهم ولا سيما الحكام ليس بالأمر

---

(١) مكاتيب الرسول صلى الله عليه وسلم على بن حسين الأحمدى ص ١٧ .

اليسير . من أجل ذلك نجده صلى الله عليه وسلم لم يعين رجلا عن طريق الأمر والتكليف لحمل الرسالة خشية ألا تكون لديه القدرة على تحمل عبئها . بل طرح الفكرة على جمع من الصحابة ليختار منهم من لديه الاقتناع ، والحماس والجرأة . وذلك أدعى الى انجاح المهمة فالرسول صلى الله عليه وسلم رأى أن هذا الأمر يناسبه التطوع ولا يناسبه التكليف . وقد حمل الرسالة من هو أهل لهذه المهمة . ألا وهو دحية الكلبي رضي الله عنه ، فلما وصل الى قيصر طلب منه أن يسجد بين يديه احتراما وتعظيما . لكنه رضي الله عنه امتنع وقال :-

لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير الله .

نعم . ان الاسلام لا يسمح لأحد بالركوع أو السجود الا لله . فهي شعائر خضوع وتعظيم لا تنبغي الا له وحده سبحانه ، فرضي الله عن دحية الكلبي . لقد أبت عليه نفسه أن يشرك مع الله غيره ، ولقد استطاع دحية أن يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون خضوع أو خنوع أو صرف شيء من حقوق الله لعباده ، وصدق الله " ومن يتق الله يجعل له مخرجا " فلقد قال له أحد الفرس عندما قالوا له . ان لم تسجد لا يؤخذ كتابك . أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد لمفقال لهدحية رضي الله عنه :- وما هو ؟ فقال ان له على كل عتبة منبر يجلس عليه . فضع صحيفتك تجاه المنبر فان أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها ، ففعل رضي الله عنه . فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا الترجمان الذى يقرأ بالعربية (١) .

---

(١) انظر السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٤٢ .

نـص الرسـالة :

لما فتح قيصر(١) الكتاب وقرأه القارئ وجد فيه :-

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فانى أدعوك بدعوة الاسلام . أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم الأريسيين (٢) ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٣) .

هرقل يتحرى حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام :

بعد أن قرأ هرقل الرسالة وكان على علم واطلاع بالكتب السابقة ، وكان يتحرى مبعث آخر الأنبياء ، وكأنه أحس بأن صاحبها هو النبى الموعود ، وصاحب الرسالة الخاتمة لرسالات السماء . أمر أن يلتمس له من العرب من يسأله عن هذا الرجل الذى يدعى النبوة ليسأله عن بعض صفاته ، ويتحقق منها صدق الرجل فيما يدعيه أو كذبه . وكان على علم بهذه الصفات من الكتب السابقة ، وصادف وجود أبى سفيان مع جماعة من قريش فى الشام فى تجارة فأدخلوا على هرقل ، فقال لهم هرقل عن طريق ترجمانه أيكم أقرب نسبا لهذا الرجل ؟ قال أبو سفيان أنا قال هرقل أدنوه منى وقربوا أصحابه وليكونوا خلف ظهرى ، وقال لهم انى سائل هذا الرجل عن الذى يزعم أنه نبى فان كذب فكذبوا فقال أبو سفيان

---

(١) قيصر معناه فى اللغة : البقر . لأنه شق عنه . لأن أم قيصر ماتت فى المخاض فشق عنه وأخرج ثم أطلق على كل من ملك الروم .
(٢) الأريسيون : الراجح أن المراد بهم عموم رعيته الأموال ص ٣٣ .
(٣) صحيح البخارى جـ ١ ص ٧ .

فلولا الحياء من أن يؤثر عني الكذب لكذبت عليه . قال أبو سفيان ثم كان أول ما سألني عنه أن قال كيف نسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو نسب . قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت لا . قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : يزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها . قال أبو سفيان :- ولم يمكنني كلمة أدخل فيها شيئا أنتقصه به لا أخاف أن يؤثر عني غيرها قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه قال : ماذا يأمركم ؟ قلت يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا . واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف ، والصلة فقال لترجمانه :

قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت انه ذو نسب فيكم : وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت ان : لا . فقلت لو كان احد قال هذا القول لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت ، ان : لا قلت : فلو كان من آبائه من ملك لقلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ فذكرت ان : لا : فقد عرفت انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أ أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم

يتبعونه . وهم اتباع الرسـل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون : وكذلك أمر الايمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟فذكرت ان : لا . . وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت انه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشـركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة ، والصدق ، والعفـاف

فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ! وقد كنت أعلم انـه خارج ، ولم اكن اظن أنه منكم ، فلو أني أخلص اليه لتجشمت لقـاءه ، ولـو كنت عنده لغسلت عن قدميه (١) .

<u>موقف قيصـر من الرسالـة :</u>

لقد قرب الاسلام من قلب قيصر وأوشك على الدخول فيه لولا مقاومـة شيطانية تتمثل في حب قيصر للسلطة وخوفه من انتزاع الملك من يده .

ولو أن قيصر فكر قليلا وأعاد النظر فيما دعاه اليه محمد لربما دخـل الاسلام قلبه لأنه قد علم أن الاسلام لابد وأن يقتحم البلاد وينتزع السلطـة ويذهب بالملك من يديه اذ هو يقول لابي سفيان ، ان كنت حقا فيما تقـول فيوشك ان يملك موضع قدمي هاتين ولأجل ان تعلم مدى ما وصل اليه اقتنـاع قيصر بصحة ما يدعو اليه محمد وصدق رسالته اليك هذا الحوار بين قيصر واحـد رجال دولته ، لما اظهر ذلك الرجل الاستياء من موقف قيصر من رسالة محمـد

---

(١) صحيح البخاري جـ ١ ص ٧ .

وعدم الاكتراث بها واقراره لاسلامها الخطابى :

قال صاحب السيرة الحلبية : ان أخا قيصر لما سمع الترجمان يقرأ من محمد رسول الله الى قيصر صاحب الروم ، ضرب فى صدر الترجمان ضربة شديدة ونزع الكتاب من يديه واراد ان يقطعه ، فقال له قيصر ، ما شأنك ، فقال : تنظر فى كتاب رجل قد بدأ بنفسه قبلك وسماك قيصر صاحب الروم وما ذكر لك ملكا ، فقال : له قيصر انك أحمق صغير أو مجنون كبير أتريد ان تمزق كتاب رجل قبل ان انظر فيه ولعمرى ان كان رسول الله كما يقول ، لنفسه أحق ان يبدأ بها منى ولئن سمانى صاحب الروم لقد صدق ما أنا الا صاحبهم وما أملكهم ولكن الله سخرهم لى ولو شاء لسلطهم على (١) ولقد رأى قيصر ان يعلم مدى رغبة كبار قومه فى الاسلام والدخول فيه ، فان رأى منهم الرغبة فى الاسلام أعلن اسلامه وأظهر رغبته علانية والا بقى على نصرانيته . ولو كان راغبا عنها وزاهدا فيها (فقد جمع كبار رجال دولته ، وقال :- يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ؟ ، وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى بن مريم عليه السلام ؟ قالت الروم وما ذاك أيها الملك ؟ قال : تتبعون هذا النبى العربى قال فحاصوا حيصة حمر الوحش وتنازعوا ورفعوا الصليب . فلما رأى هرقل ذلك منهم يئس من اسلامهم ، وخافهم على نفسه وملكه فسكتهم ، ثم قال انما قلت لكم ما قلت أختبركم لأنظر مدى صلابتكم فى دينكم ، فقد رأيت منكم الذى أحب فسجدوا له) (٢)

ولقد استطاع أن يقنع أبا سفيان بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن أمره سيعلو ، وأن دعوته لابد وأن تظهر على الدين كله ، ولو كره الكافرون

(١) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٤٥ .
(٢) صحيح البخارى جـ ١ ص ٨ وطبقات ابن سعد جـ ١ ص ٢٥٩ .

وقد جاء في الرسالة :

من محمد ، رسول الله الى صاحب الروم ، انى ادعوك الى الاسلام ، فان أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، فان لم تدخل في الاسلام فأعط الجزية فان الله يتبارك وتعالى يقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) والا فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام ان يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية (١) وحمل الرسالة دحية الكلبى رضى الله عنه .

الرّد على الرسالة النبوية :

في مسند الامام احمد رحمه الله أنه " لما جاء كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل دعا قسيس الروم وبطارقتها ثم اغلق عليه وعليهم بابا فقال قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم وقد أرسل الى يدعونى الى ثلاث خصال ، يدعونى الى ان أتبعه على دينه ، أو على ان أعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا أو نلقى اليه الحرب ، والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب ليأخذن ما تحت قدمى فهلم نتبعه على دينه او نعطيه مالنا على أرضنا ، فنخروا نخرة رجل (٢) واحد حتى خرجوا من براسنهم ، وقالوا تدعونا الى ان ندع النصرانية ، او نكون عبيدا لأعرابى جاء من الحجاز ؟ فلما ظن انهم ان خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم رفأهم (٣) ولم يكد وقال : قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم ثم دعا رجلا من عرب تجيب كان على نصارى العرب فقال : ادع لى رجلا حافظا

---

(١) الاموال لأبى عبيد ص ٣٢ عدد ٥٥ .
(٢) اى تكلموا كلام رجل واحد وكأنه كلام مع غضب ونفور .
(٣) أى سكنهم ودعا لهم - ولم يكد - اى لم ينازعهم في الامر .

للعديث عربى اللسان ابعثه الى هذا الرجل بجواب كتابه ، فجاء بى (المتكلم هو التنوخى) (١) فدفع الىّ هرقل كتابا فقال اذهب بكتابى الى هذا الرجل فما ضيعت من حديثه فأحفظ لى منه ثلاث خصال (٢) ، انظر هل يذكر صحيفته التى كتب الىّ بشئ ، وانظر اذا قرأ كتابى فهل يذكر الليل وانظر فى ظهره هل به شئ يريبك - قال التنوخى - فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك فاذا هو جالس بين ظهرانى أصحابه محتبيا على الماء فقلت أين صاحبكم قيل ها هو ذا ،فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه فناولته كتابى فوضعه فى حجره ثم قال من أنت ؟ فقلت أنا أحد تنوخ قال هل لك فى الاسلام الحنيفية ملة أبيك ابراهيم ؟ قلت انى رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع اليهم فضحك وقال : انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين "

يا أخا تنوخ . انى كتبت بكتاب الى كسرى فمزقه والله ممزقه وممزق ملكه وكتبت الى النجاشى بصحيفة فخرقها والله مخرقه (٣) ومخرق ملكه وكتبت الى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسا مادام فى العيش خير ... ثم ناول الصحيفة رجلا عن يساره فاذا هو معاوية وجاء فى الكتاب تدعونى الى جنة عرضها السموات والارض اعدت للمتقين . فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله اين الليل اذا جاء النهار فلما

---

(١) التنوخى نسبة الى تنوخ وهم اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديما بالبحرين وتحالفوا على التناصر فأقاموا هناك فسموا تنوخا والتنوخ الاقامة .

(٢) اى مهما نسيت من حديثه فلا تنس هذه الخصال الثلاث فأنا حريص عليها كل الحرص .

(٤) هذا نجاشى آخر غير الذى اسلم ونعاه صلى الله عليه وسلم وصلى عليه بالمدينة .

فرغ من قراءة الكتاب قال : ان لك حقا وانك رسول فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، انا سفر[1] مرملون (٢) .

---

(١) اى مسافرون - مرملون - اى نفد زادنا واصله من الرمل كانهم لصقوا بالرمل .

(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد الشيبانى - ج ٢١ ص ١٩٨ - مختصر وللحديث بقيه أحببت تركها رغبة فى الاختصار .

رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى كسرى :

اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمل رسالته الى كسرى رجلا كان يكثر التردد عليه وهو "عبد الله بن حذافة السهمي" وكان أيضا من المهاجرين الى الحبشة (١) فله علم بعادات الناس، وتقاليد الشعوب خارج الجزيرة العربية، فلا غرابة في أن يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمل رسالته الى كسرى .

ولما علم كسرى بقدوم رسول محمد صلى الله عليه وسلم اليه أمر بأن يؤخذ منه الكتاب، وألا يسمح له بالدخول عليه في ايوانه لأنه أعرابي وهو في نظره ونظر سائر الفرس لم يصل بعد الى درجة مخاطبة الملوك أو لقائهم . لكن عبد الله بن حذافة أبى أن يسلم الرسالة الا الى كسرى فما كان من كسرى الا أن رضخ لطلب عبد الله، وسمح له بالدخول (٢) .

نص الرسالة :

وهذا هو نص الرسالة "بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله . صلى الله عليه وسلم - الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله، فانى أنا رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم . فان أبيت فعليك اثم المجوس (٣) .

(١) ابن سعد ج ٤ ص ١٨٩ والاصابة ج ٢ ص ٢٩٦ .
(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٤٦ .
(٣) الأموال ص ٣٤ رقم ٥٩ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦١ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٤٦ .

موقف كسرى من الرسالة :

لما قُرئت الرسالة على كسرى غضب لمّا سمع القارئ يقول ، من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، غضب لان محمدا صلى الله عليه وسلم بدأ بنفسه وصاح ومزق الرسالة قبل معرفة ما فيها ، وأمر باخراج عبد الله بن حذافة فركب رضى الله عنه على راحلته ورجع الى المدينة ، فلما ذهب عن كسرى الغضب بعث فى طلب عبد الله لكن الطالب عجز عن ادراكه ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بموقف كسرى من رسالته وأنه مزقها قال : مزق الله ملكه (١) .

وذكر المؤرخ اليعقوبى أن كسرى ارسل الى النبى صلى الله عليه وسلم رسالة وهدية قال اليعقوبي : وكتب كسرى الى النبى صلى الله عليه وسلم كتابا جعله بين سرقتى حرير وجعل بينهما مسكا فلما دفعه الرسول الى النبى صلى الله عليه وسلم فتحه فأخذ قبضة من المسك فشمه وناوله أصحابه وقال لا حاجة لنا فى هذا الحرير ليس من لباسنا وقال ، لتدخلن فى أمرى أولا تينك بنفسى ومن معى وامر الله اسرع من ذلك فأما كتابك فانا اعلم به منك فيه كذا وكذا ولم يفتحه ولم يقرأه فرجع الرسول الى كسرى فأخبره (٢) .

وقد ذكر الامام احمد فى مسنده (٣) ان كسرى اهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فقبلها وكذلك ذكر البيهقى فى سننه (٤) فان صح هذا فانه يعضد خبر اليعقوبي واكثر المؤرخين يقول (ان كسرى لما قرأ الرسالة بعث الى عامله على اليمن ، أن أرسل الى من يأتينى بهذا الرجل الذى ظهر

---

(١) عيون الاثر جـ ٢ ص ٢٦٢ والسيرة النبوية والاثار المحمدية احمد دحلان جـ ٣ ص ٦٤ .

(٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ ص ٦١ . (٣) مسند الامام احمد جـ ١ ص ٩٦ .

(٤) السنن الكبرى للبيهقى جـ ٩ باب ما جاء فى هدايا المشركين للامام .

بمكة يزعم انه نبى ، وان لم تأتنى به فعلت فيك الافاعيل ، فما كان من هذا العامل ويدعى - باذان - الا ان أرسل الى المدينة رجلين ، فلما قدما على النبى صلى الله عليه وسلم طلبا منه الخروج معهما الى كسرى والا فسيحل عليه وعلى بلاده الهلاك والدمار وسوء العاقبة فطلب منهما الرسول صلى الله عليه وسلم ان يعودا اليه غدا لينظر فى الامر ، فأوحى الله اليه ان كسرى قُتل على يد ابنه فأخبر الرجلين وكتب معهما رسالة الى عامل اليمن فلما جاءت الرسالة الى " باذان " اذا بالأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك علم " باذان " أن محمدا صادق فيما يقول فآمن به هو ومن كره قبله ،،وأرسل بذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم) (١) .

والذى يظهر لأول وهله أن بين الخبرين تضاربا . خبر اليعقوبي القائل بأن كسرى أهدى الى النبى هدية وبعث اليه برسالة ، والخبر القائل بأن كسرى طلب من عامله على اليمن أن يبعث الى محمد من يقتله ان لم يستطع الاتيان به حيا . اذ ليس من المستساغ فى حكم العقل أن ملكا بلغت به الغطرسة والجبروت درجة حملته على أن يبعث الى عامله باليمن أمرا بأن يأتيه بمحمد ، أن يتنازل ويرسل اليه بهدية هى آية التقدير والاحترام ان لم تكن دليلا على المودة .

ولعل الجمع بين الخبرين يتيسر اذا علمنا أن كسرى الابن قتل أباه وتولى الأمر من بعده ، وأنه اتخذ تجاه النبى صلى الله عليه وسلم موقفا غير موقف أبيه . ربما كان ألين من موقف الأب . فقد بعث برسالة الى عامل اليمن" باذان"

---

(١) عيون الاثر جـ ٢ ص ٢٦٤ والسيرة النبوية والآثار المحمدية احمد دحلان جـ ٣ ص ٦٤ .

يقول فيها (اذا جاءك كتابى هذا فخذلى الطاعة ممن كره قبلك وانطلق الى الرجل الذى كان كسرى قد كتب فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه) (١)

أقول لعل كسرى الابن هو الذى أهدى الى النبى صلى الله عليه وسلم وراسله .

رسائل النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الحبشة :

يذكر المؤرخون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم راسل ملكين من ملوك الحبشة ، اما الأول فهو الذى آوى المهاجرين الى بلاده وأكرمهم ، ومكنهم من اقامة شعائر الاسلام ، وزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من أم حبيبه بنت ابى سفيان بن حرب بطلب منه صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعد وفاة زوجها الذى ارتد عن الاسلام ودخل فى النصرانية ، وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الى هذا الملك يدعوه فيها الى الدخول فى الاسلام ، فأسلم ورد على الرسالة باخرى يعلن فيها اسلامه ، وبعث بوفد الى المدينة برئاسة ابنه وقد توفى هذا الملك الصالح رحمه الله تعالى ونعاه صلى الله عليه وسلم الى المسلمين وصلى عليه فى المدينة (٢) .

واما النجاشى الثانى فلا يعلم أنه اسلم ، وقد خلط بعض المؤرخين بين الرسالتين وظن انهما لملك واحد والحق انهما لنجاشيين اثنين ، يدل على ذلك ما فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه : " ان النبى كتب الى كسرى والى قيصر والى النجاشى والى كل جبار يدعوهم الى الله وليس بالنجاشى الذى صلى

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٠ .

(٢) صحيح مسلم حديث ٤٧٥ وابن سعد جـ ١ ص ٢٥٨ والكامل لابن الاثير جـ ٢ ص ١٤٥ .

عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ويدل على ذلك ايضا ما جاء فى مسند الامام احمد وذلك عندما ذكر رسالة هرقل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقول النبى وقد كتب الى النجاشى برسالة فخرقها والله مخرقه (٢) .

نص رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى النجاشى الأول :

وقد اختار صلى الله عليه وسلم لحمل الرسالة - عمرو بن أمية الضمرى الفارس المشهور والمقدام الشجاع وصاحب الاسلوب المقنع والحجة المفحمة فى الدعوة الى الله . وقد ذكر بعض المؤرخين ان عمرو لما قدم الحبشة ، حُدد له موعد لمقابلة الملك فلما سمح له بالدخول عليه وجد ان الداخلين يمرون بباب صغير لا يتمكنون من الدخول منه الا وهم منحنون وذلك تعظيما للملك .

اما عمرو فقد ولى ظهره القهقرى فشق ذلك على الحبشة فى مجلسهم عند النجاشى وهموا به وقالوا للنجاشى ان هذا لم يدخل كما دخلنا ، قال : ما منعك ان تدخل كما دخلوا ؟ قال : إنّا لا نصنع هذا بنبينا ولو صنعناه باحد صنعناه به قال : صدق دعوه (٣) فسلمه الرسالة ولما فتحها النجاشى وجد فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد ان عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول (٤) الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق

---

(١) صحيح مسلم حديث ١١٢١ .
(٢) الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى ج٢٢ ص ١٠٨ .
(٣) اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين : شمس الدين محمد بن على بن طولون .
(٤) البتول : اى المنقطعة عن الرجال ولا شهوة لها فيهم والمنقطعة عن الدنيا وما فيها .

آدم بيده واني ادعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فاني رسول الله واني ادعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى (١) .

استمالة النجاشي الى الاسلام :

بعد أن قرأ النجاشي رسالة النبي صلى الله عليه وسلم رأى عمرو أن النجاشي تبدوا عليه ملامح الرضا عما في تلك الرسالة والقبول لما جاء فيها ، واخذ في التفكير فيما عرض عليه ، فأحب عمرو ان يغتنم الفرصة فقلب النجاشي متهيء للاسلام ، والمقاومة الشيطانية منهارة ضعيفة لا تقوى فقال عمرو : يا أصحمة إنّ على القول وعليك الاستماع ، انك كأنك في الرقة علينا منا ، وكأنا في الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيرا قط الا نلناه ولم نخفك على شر قط الا امناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم والانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور ، وفي ذلك موقع الخير واصابة الفصل ، والا فأنت في هذا النبي الامي كاليهود في عيسى بن مريم وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله الى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وامنك على ما خافهم عليه لخير سالف واجر ينتظرك .

فقال النجاشي : اشهد بالله انه للنبي الذي ينتظره اهل الكتاب وان بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار كبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام براكب الجمل وان العيان ليس بأشفى من الخبر (٢) .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٢ وزاد المعاد   الاعشى جـ٦ ط ٣٧٩ .

(٢) زاد المعاد جـ٣ ص٦٠ والسيرة الحلبية جـ٣ ص٢٤٨ واعلام السائلين ص ٦ .

الرد على تلك الرسـالة :

كان النجاشي من المعجبين بالاسلام وذلك عند ما سمع رأى القـرآن في عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وأنه عبد الله ورسوله وبعد الحوار الـذي دار بينه وبين - جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه - وقد تلا عليه جعفر بعضـا من سورة - مريم - فبكى وبكى معه أساقفته ايمانا بوحدة مصدر الكتابين الانجيـل والقرآن ، فليس غريبا أن تأتي الانباء بعد ذلك باسلامه ، بل لقد عرض علـى النبي صلى الله عليه وسلم موافقته للمجيء الى المدينة ان طلب منه ذلك ولما كان لا يملك الا نفسه وابنه فقد ارسل ابنه على رأس وفد مكون من ستين رجلا لمقابلـة النبي صلى الله عليه وسلم ، لكن الله تعالى لم يشرفهم بلقاء النبي حيث انهـم غرقوا في البحـر(١) .

وقد جاء في الرسـالة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليـك يانبي الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا اله الا هو ، أما بعد بلغـني كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيـد على ما ذكرت تفروقا(٢) - انه كما ذكرت وقد عرفنا ما بعثت به الينا وقربنا ابن عمـك واصحابك فأشهد انك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين (٣) .

---

(١) الكامل في التاريخ : ابن الاثير جـ٢ ص ١٤٥ .

(٢) التفروق غلاف بين النواة والقشر ؟ يقصد أنه لا يوجد بينهما تفاوت ولـو كان يسـيرا .

(٣) البداية والنهاية جـ ٣ ص ٨٤ وزاد المعاد جـ ٣ ص ٦٠ وصبح الاعشـى جـ ٦ ص ٤٦٦ .

الرسالة الى النجاشي الثاني :

بعد ان توفى نجاشي الحبشة ذلك الرجل الصالح الذى أسلم تولى الامر من بعده نجاشي آخر فأرسل اليه النبي صلى الله عليه وسلم رسالة يدعوه فيها الى الدخول في الاسلام .

نص الرسالة :

هذا كتاب من النبي الى النجاشي عظيم الحبشة سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وان محمدا عبده ورسوله وادعوك بدعاية الله فأسلم تسلم (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون) فان أبيت فعليك اثم النصارى من قومك (١) .

موقفه من الرسالة :

جاء فى مسند الامام أحمد فى قصة الرسالة التى تلقاها من هرقل وهو فى تبوك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - وكتبت الى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مخرقه (٢) .

الفرق بين اسلوب الرسالتين :

نلاحظ فرقا بين اسلوب الرسالتين اللتين بعث بها صلى الله عليه وسلم الى قادة الحبشه فالاولى نجده صلى الله عليه وسلم يخاطبه بالملك وكأنه يقر له

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٤ والسيرة النبوية والآثار المحمدية احمد دحلان ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى ج٢١ ص١٩٩ .

بذلك ويعترف له بالملك والسلطان حيث علم صلى الله عليه وسلم انه ملك صالح يدين بالانجيل الذى يدعوه الى الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم عند ما بُعث وقد علمنا انه عليه الصلاة والسلام اشار على اصحابه بالهجرة الى الحبشة وقال ان بها ملك عادل لا يظلم عنده أحد .

واما فى الرسالة الثانية فانا نجده صلى الله عليه وسلم يخاطب زعيم الحبشة دون ان يعترف له بالملك فهو يقول الى عظيم الحبشة لعلمه صلى الله عليه وسلم ان هذا الرجل ليس من الصالحين فلا يعترف له بالملك كما لم يعترف لقيصر وكسرى .

رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة الى المقوقس(١) ملك القبط ، مع حاطب بن ابى بلتعه وذلك بعد صلح الحديبية ولما كتب الرسالة صلى الله عليه وسلم عرض حملها على جمع من الصحابة وقال : ايها الناس من ينطلق بكتابى هذا الى صاحب مصر واجره على الله ؟ فبادر الى الاجابة حاطب وقال : انا يارسول الله ، قال : صلى الله عليه وسلم بارك الله فيك ياحاطب(٢) .

رضى الله عن حاطب لقد استحضر كل المصاعب التى ربما يلاقيها فى سفره هذا ولم يطلب عوضا دنيويا ، بل رضى بأجر الله ان عاجلا أو آجلا .

وحاطب هذا على درجة كبيرة من الفطنة والدهاء وحدة الذكاء ، وعند المناظرة فى احكام الدين يلقن الحجة والبرهان وكأن الله يوحى اليه بها وقد بلغ من اعجاب المقوقس به ان قال - انك حكيم جاء من عند حكيم .

---

(١) المقوقس - لقب لكل من ملك مصر ، ومعناه مطول البناء - .
(٢) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٤٩ .

نص الرسالة :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى .

اما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولو فقولوا اشهدوا بانا مسلمون (١) .

فلما قرأ الكتاب دعا بحاطب بعد ان جمع بطارقته وقال : انى سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عنى . قال حاطب هلم ، قال : اخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟ قال حاطب ، بلى هو رسول الله قال : المقوقس فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حين اخرجوه من بلده الى غيرها ؟ قال حاطب : عيسى بن مريم أليس تشهد انه رسول الله ؟ قال المقوقس بلى . قال حاطب : فما له حين أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه الا يكون دعا عليهم بان يهلكهم الله حيث رفعه الله الى السماء الدنيا ؟ قال المقوقس أحسنت انت حكيم جاء من عند حكيم (٢) .

حاطب يعظ المقوقس ويذكره بمصير الحكام الطغاة :

ما كان على حاطب من بأس لو أنه لمّا سلم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عاد الى المدينة ، فقد انتهى الامر الذى انتدب من أجله وما كان امره صلى الله عليه وسلم يقتضى اكثر من ذلك ، لكن حاطب رضى الله عنه

---

(١) زاد المعاد جـ ٣ ص ٦١ وصبح الاعشى جـ ٦ ص ٣٧٨ واعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ص ١٩ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٧٢ والحلبية جـ ٣ ص ٢٥٠ .

اعتبر نفسه سفيرا لرسول الله وداعية الى الله ولعل حاطب لما وجد من المقوقس حسن الاستقبال والحفاوة والاكرام وانه يسمح له بالدخول عليه حين وصوله الى قصره ولا يطيل عليه الانتظار بالباب(١) اقول لعل حاطبا ظن بالمقوقس خيرا وانه سيستجيب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أنه من الافضل التعقيب على رسالة رسول الله بموعظة يذكر فيها المقوقس بمصير حكام مصر السابقين من الفراعنة والطغاة المعتدين .

قال حاطب رضى الله عنه . انه كان قبلك رجل يزعم انه الرب الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ان هذا النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش واعداهم له يهود ، واقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليهما السلام الا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الأنجيل ، وكل نبى ادرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه فأنك ممن أدرك هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس :

انى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ووجدت معه آلة (٢) النبوة باخراج الخبء (٣) والاخبار بالنجوى (٤) وسأنظر .

---

(١) ابن سعد ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) آلة النبوة - اى علامات النبوه .

(٣) الخبء - اى الشىء الغائب .

(٤) يقال أن المقوقس علم هذا من الاخبار الواردة عليه بذلك قبل كتابه النبى صلى الله عليه وسلم اليه فقد ذكر الواقدى ان المغيرة بن شعبة لقى =

رد المقوقس على الرسالة :

كتب المقوقس رسالة ردا على رسالة النبى صلى الله عليه وسلم جاء فيها

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد بن عبد الله ، من المقوقس عظيم القبط ، سلام عليك

اما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبينا قد بقى وكنت أظن انه يخرج بالشام ، وقد اكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكانة فى القبط عظيمة وكسوة واهديت اليك بغلة لتركبها والسلام عليك (١) .

ودعا المقوقس حاطب وقال له ، ارجع الى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا .

قال حاطب فرحلت من عنده بعد خمسة أيام من وصولى وبعث معى جيشا يحرسنى الى ان دخلت جزيرة العرب ، ووجدت قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش - أى رجع - وارتفقت بالقافلة (٢) .

= المقوقس وسأله عن النبى فلما أجابه بما اجابه به قال : هذا نبى مرسل الى الناس كافة ولو اصاب القبط والروم لا تبعوه وقد امرهم بذلك عيسى وهذا الذى تصف منه نعت الانبياء من قبله وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه احد ويظهر دينه الى منتهى الخف والحافر - السيرة النبوية ٣ - ٧٠ - دحلان - الروض الانف ٧ - ٥١٧ .

(١) زاد المعاد ٤ - ٦١ - الاحوال ٣٦٧ - ٦٣٢ - الحلبية ٣ - ٢٥ - القلقشندى ٦ - ٤٦٧ .

(٢) ابن سعد ج ١ ص ٢٦١ والسيرة النبوية ، احمد دحلان ج ٣ ص ٧٠ .

رسائله صلى الله عليه وسلم الى الامراء العرب :

يلاحظ على رسائله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للأمراء العرب تغير الاسلوب وشدة الخطاب فنجد انه يستعمل أسلوب التهديد ويتحدث من مركز القوة ويحذر من اطاعه باقراره في منصبه وحكم ولايته ، ومن عصاه بأنه سيحاربه وينزع منه سلطانه بالقوة كما فعل مع ملكي - عمان - حيث يقول :- ان اقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما فان ملككما زائل عنكما وخيلي ستحل بأرضكم .

وكذلك فعل مع صاحب - اليمامة - هوذة بن علي - اذ يقول اعلم ان ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك .

وكذلك فعل مع - الحرث بن ابي شمر الغساني - عامل دمشق من قبل قيصر ومع - المنذر بن ساوى - صاحب البحرين من قبل - كسرى - .

فما هو السبب في اتخاذ هذا الاسلوب؟ ولماذا لم يتخذ مثله مع الروم ومع الفرس ؟

أما بالنسبة للجواب عن الاستفسار الاخير فأعتقد أن السبب في ذلك هو ان الروم والفرس في معزل عن المدينة بينهم وبينها مسافات شاسعة يصعب الوصول اليهم وليس من اليسير حربهم في مثل هذه الظروف ، فليس هناك قواعد حربية للدولة الاسلامية في ما بين المدينة والشام ، فلو أنه صلى الله عليه وسلم شدد عليهم الخطاب واستفزهم لربما أساءوا الى رسله واهانوهم ان لم يقتلوهم ، عند ذلك يصبح من الصعب السكوت على ما حصل منهم واصعب من السكوت القيام لحربهم على بعد دارهم .

وايضا فان ما بين حدود المدينة وحدود الروم والفرس أمارات عربية خاضعة للروم أو الفرس ويسر عال تلك الامارات لو ان اسيادهم امروهم بغزو المدينة كما فعل - الحرث بن ابى شمر الغسانى - صاحب دمشق من قبل قيصر (١) .

اقول بعد ذلك انه ليس من الحكمة فى شئ تهديدهم بالحرب ونزع السلطة منهم وهذه ظروفهم ، وايضا ليس من السياسة الحربية اغضاع العدو البعيد قبل العدو القريب ، مهما كان القريب من الضعف وقلة العدد ، ولو انه صلى الله عليه وسلم شدد عليهم الخطاب لاستخفوا به ، واستحضروا شأنه ، واعتبروا ذلك حمقا وتسرعا ، لذلك استعمل معهم صلى الله عليه وسلم الاساليب السابقة في الدعوة الى الله ، دعوة مجردة من استعمال القوة والتهديد بالحرب .

واما بالنسبة لاسلوبه صلى الله عليه وسلم مع الامراء العرب فلعل السبب يعود الى ان هذه الامارات العربية قريبة من المدينة وعلى اتصال بها ولديها الاخبار عن الانتصارات التى حققها النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى تعلم بان قريشا وهى العدو اللدود للاسلام قد خُضدت شوكتها بعد صلح الحديبية ، على ما هى عليه من القوة وكثرة الانصار ، والاخبار التى تصل اليهم من المدينة توحى بان دولة الاسلام تتسع ولا تضيق ، ويزيد افرادها ولا ينقصون ، فدولة

---

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارسل الى الحرث بن ابى شمر الغسانى كتابا فلما قرأه ، رمى به وقال من ينتزع منى سلطانى أنا سائر اليه ولو كان باليمن جئته وأمر بالاستعداد للحرب واعداد الجيوش وكتب بذلك الى قيصر لكن جاءه الجواب مخيبا لأمله حيث قال له قيصر ، لا تسر اليه واله عنه ووافنى بأيليا - السيرة النبوية ، احمد دحلان جـ ٣ ص ٧٨ .

هذا شأنها لا يوقف فى طريقها ، فلابد من الخضوع لها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يعلم بان هذا الشعور راسخ فى اذهان بعض حكام الامارات العربية .

اذن ليس هناك من داع يجعل النبى صلى الله عليه وسلم يلين لهم فى رسائله ، ويحاول استمالتهم ، فلا صعوبة فى حربهم ان منعوا المسلمين من عرض احكام دينهم على شعوبهم ، فهم قريبون من المدينة يهون على المسلمين الوصول اليهم .

وايضا فان الله سبحانه وتعالى لما اختار خاتم الانبياء منهم ، وجعل كتابه الخالد بلسانهم ، قد اصبحوا هم مادة الاسلام وذخره ، بهم ينتصر وعلى ايديهم ينتشر ، فلهذا كان لابد من حسم مسألة انضوائهم تحت لوائه ولو بالقوة عند الاقتضاء .

رسالته صلى الله عليه وسلم الى ملكى عمان[1] :

بعث صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص الى ملكى عمان وكعادته صلى الله عليه وسلم فى بعث رسله يختار منهم أهل الذكاء والفطنة والدهاء وعمرو بن العاص ممن تجتمع فيه هذه الصفات ، وزيادة على ذلك فهو الذى أوفدته قريش الى النجاشى فى شأن المهاجرين من المسلمين فهو يتمتع بالجرأة فى الخطاب والانطلاق فى الحديث مع الحكام والأمراء قلما يتلعثم فى الحديث أو تغيب عنه الحجة ، وان كان لم يفلح فى سفارته لقريش فما ذلك الا لأنه سفير باطل واهى الحجة .

(١) اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند فى شرق هجر تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع الا انه يضرب فى حرها المثل واكثر أهلها خوارج أباضية . معجم البلدان ج ٤ ص ١٥٠ .

نص الرسـالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله الى جيفر وعبد ابني الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ،

فانى ادعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لا نذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فانكما ان أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر على ملككما (١) .

عمرو فى حوار مع عبد :

قال عمرو رضى الله عنه لما وصلت الى -عمان- قدمت أول ما قدمت على - عبد - لحلمه وحسن خلقه ، وقد أحسن عمرو الفراسة وأصاب فيها ، حيث ان عبدا هو الذى أثر على أخيه - جيفر - واقنعه بضرورة الدخول فى الاسلام .

يقول عمرو : فقلت لعبد ، انى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليك والى أخيك بهذا الكتاب ، فقال عبد : أخى المقدم على بالسن والرئاسة . ولكن من حقك علىّ أن أوصلك اليه فتبلغه ما أُمرت به . ثم حصل بينهما الحوار التالى عبد : ما لذى تدعو اليه ياعمرو ؟ عمرو : ادعوك الى عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع ما عُبد من دونه وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . عبد : انك ياعمرو ابن سيد قومك فكيف صنع ابوك ؟ فان لنا فيه قدوة . عمرو : مات ولم يؤمن بمحمد

(١) زاد المعاد جـ ٣ ص ٦٣ وصبح الاعشى جـ ٦ ص ٣٨١ واعلام السائلين ص ٢٦ .

وودت أنه كان اسلم وصدق به ، وقد كنت انا على مثل رأيه حتى هداني الله للاسلام . محمد : متى تبعته ياعمرو ؟ عمرو : قريبا ، وقد أسلمت عند النجاشي في الحبشة ، وأزيدك علما يامحمد أن النجاشي قد أسلم ، وقد دُعي قبل ان يسلم الى ما دعيت اليه الآن فأجاب وأسلم . محمد : وكيف صنع قومه بملكه ياعمرو ؟ . عمرو : أقروه واتبعوه . محمد : والأساقفة ياعمرو والرهبان ؟ عمرو : والاساقفة والرهبان اتبعوه أيضا . محمد : ان هذا لشيء عظيم انظر ما تقول ياعمرو ، انه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب . عمرو : ما كذبت وما نستحله في ديننا . محمد : ما أرى هرقل علم باسلامه ؟ عمرو : بلى لقد علم باسلامه . محمد : باي شيء علمت ياعمرو ان هرقل علم باسلام النجاشي ؟ . عمرو : لقد كان النجاشي يُخرج خراجا لهرقل ، فلما أسلم قطعه وقال : لا والله ولو سألني درهما واحدا ما أعطيته ، وقد وصلت الاخبار الى هرقل ونقل كلام النجاشي اليه . وقد حاول اخو هرقل أن يثير هرقل على النجاشي وأن يستفزه ليأمر بتأديب النجاشي الذى خالف دين سادته وشق عصا الطاعة ، لكن هرقل كان من المقتنعين بصحة نبوة محمد وانها لابد ظاهرة على الدين كله فترك النجاشي وما يدين به ، بل لقد قال : يامحمد قولا عظيما ، لقد قال : والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع النجاشي .

محمد : انظر ما تقول ياعمرو ؟ انك لتقول قولا منكرا . عمرو : والله ما كذبتك بشيء محمد : أخبرني ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ عمرو : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الأحجار والاشجار والأوثان والصليب . محمد : ما أحسن هذا الذى يدعو اليه وما أطيبه ، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن

بمحمد ونصدق به ، ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا بعد أن كان رأسا . عمرو : يقطع الحديث على عبد ويقول ان أسلم بقي على ملكه وسلطانه يأخذ الصدقة من الأغنياء ويردها على الفقراء ويحكم بينهم بالعدل .

قال عمرو : ثم مكثت في عمان أياما آتي الى عبد واجلس عنده وهو يتصل بأخيه ويخبره خبري ، وفي يوم من الأيام دعاني فأدخلني عليه فلما دخلت أخذ أعوانه وخدمه (بضبعي) فقال دعوه ،فذهبت لأجلس عند الملك فأبوا علي ومنعوني من الجلوس على عادة ملوك الأعاجم فان الرسول لا يجلس عند الملك ، ولو كان مرسل من ملك مثله .

قال : عمرو فنظرت اليه ،وكأن عمرو رضي الله عنه مستنكرا هذه المراسيم والاجراءات التي خرجت عن نطاق المألوف والعادات المعروفة عند عرب الجزيرة . ثم أخذ جيفر الرسالة وقرأها الى آخرها ثم دفعها الى أخيه عبد فقرأها الا أنه كان ارق من جيفر واللين ، وظهرت عليه امارات الرضا والقبول لما عُرض عليه في الرسالة . ثم ان جيفرا قال : ياعمرو اخبرني عن قريش كيف صنعت ؟ قال عمرو : تبعوه اما راغب في الدين واما مقهور بالسيف . قال جيفر ، ومن معه ؟ قال عمرو : الناس قد رغبوا في الاسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله لهم انهم كانوا في ضلال فما اعلم أحدا بقي غيرك في هذه - الحرجة[1] - وان لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويبيد خضراءك[2] فأسلم تسلم ويستعملك على قومك فتبقى على ملكك مع الاسلام والا تدخل عليك الخيل والرجال وفي هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال .

---

(١) الحرجة : هي الشجرة الملتفة والمراد التجوز .
(٢) اي جماعتك .

ان حوار عمر على هذا النحو يكشف لنا عن الصفات التي من اجلها اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم لابلاغ رسالته ، حكمة في التصرف ، وشجاعة في المواجهة ، وفطنة في المحاجة ، ولله در الشاعر حيث يقول :

اذا كنت في حاجة مرسلا فأرس حكيما ولا توصه

وأى حاجة تلك التي أُرسل بها سفير النبي صلى الله عليه وسلم ، أنها مقاومة الشرك ولى عنقه لينضوي اربابه المعاندون تحت لواء الاسلام فيمتزون ويحتربهم الاسلام ، ولعل الذى شجع عمرو بن العاص على حمل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، قوله عليه الصلاة والسلام " انى لا علم ارضا يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا حجر(١) .

قال عمرو ، ثم ان جيفر قال : دعني يومى هذا وأرجع الى غدا فرجعت الى عبد فقال : ياعمرو انى أرجو ان يسلم أخي ان لم يضن بملكه .

ثم ان عمرا عاد في اليوم الثاني الى جيفر فقال له جيفر : لقد فكرت فيما دعوتني اليه فاذا انا أضعف العرب ان ملكت رجلا ما في يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا لبعد ما بيني وبينه ، وان هي بلغت خيله بلادى وجدت قتالا لم تجده قبل عند العرب .

فقال عمرو: فقلت انا خارج غدا . فلما أيقن بخروجي خلا به اخوه فقال له : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل اليه أجابه ، فانظر فيما يدعوك اليه مرة ثانية لعلك تجده صوابا وخيرا . قال عمرو : فلما أصبحت اذ برسوله يدعوني اليه فلما جئته اعلن اسلامه واسلام اخيه وخليا بيني وبين الحكم فيما

---

(١) رواه أحمد .

بينهم وكانا عونا لي على من خالفني (١) رضي الله عنهم جميعـــا .

آثـــار الرســـائل :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدف من وراء مراسلاته لملوك العالم وامرائه الى ابلاغ الرسالة التي بُعث بها الى الناس جميعا ، عربا وعجمـــا = وما أرسلناك الى كافة للناس (٢) = ان رسائل النبي صلى الله عليه وسلم كانت بمثابة حملة اعلام وبلاغ خارج نطاق الجزيرة العربية .

(ان المكسب الاكبر الذي حققه رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء مكاتباته تلك أنها جاءت حملة - اعلامية - على النطاق الدولي من ان هـــذا الدين ليس دين عرب أو جزيرة عربية وانما هو دين الانسان حيثما كان هـــذا الانسان ، ونداء الى السلطات الحاكمة ان تستجيب للدعوة او تسمح على الاقل لدعاتها بممارسة نشاطهم بحرية ، ولشعوبها في مقابلة هؤلاء الدعاة والاستمـــاع اليهم لكي يختاروا عقيدتهم على بينة بعيدا عن الضغط والقسر والاكراه،وانـــذارا لهذه السلطات بأنها ان لم تلب وتستجيب فان جيوش الدعوة الجديدة ستجتـــاح عما قريب مشارق الارض ومغاربها لكي تسقط التيجان وتهد العروش وتـــنزل الطواغيت من مناصبها العليا وتُخرج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الكفر الى عدل الاسلام ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده لا شريك له (٣) .

ولقد كانت ردود الفعل على هذه الرسائل متباينة جدا فمنهم من اســـلم واعلن اسلامه كالنجاشي وملك عمان ، وعامل اليمن ، ومنهم من صدق بالرسالـــة

---

(١) الروض الانف جـ ٧ ص ٥٢١ وزاد المعاد جـ ٣ ص ٦٢ والسيرة النبـــوية والآثار المحمدية جـ ٣ ص ٧٤ .
(٢) سورة سبـــأ آية ٢٨
(٣) دراسات في الســـيرة د / عماد الدين خليل ص ٢٩٣ .

واقتنع بصلاحيتها للبشرية وان كان لم يؤمن بها ايمانا عمليا وأثر الحياة الدنيا على الآخرة كقيصر والمقوقس ، ومنهم من كذّب الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن العرب عليه ككسرى ، ومنهم من ذهب الى ما هو ابعد من ذلك وابشع وهو - شرحبيل بن عمرو الغساني - عامل الروم على البلقاء (١) حيث قتل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حاكم بصرى (٢) وهذا الفعل يعد خروجا منه على العرف السائد والقانون الدولى المتبع آنذاك والذى يقضى باحترام الرسل والمبعوثين وعدم التعرض لهم بسوء ولا مكروه .

لقد وجد صلى الله عليه وسلم فى صنيع هذا الرجل مبررا لتأديبه وتأديب الروم الذى اقدموا على قتل -فروة بن عمرو الجذامى (٣) لاسلامه .

كما رأى صلى الله عليه وسلم ان المنطقة التى وقعت فيها هذه الاحداث هى المنطلق الطبيعى للدعوة الى الاسلام خارج الجزيرة العربية ، فعليه ان يقوم بازالة تلك الحواجز والعقبات التى بدأت تقاوم انتشار الدعوة فى مهبطها وتريد ان تئدها فى مكان ولادتها ، لكن يأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون .

---

(١) البلقاء ، من اعمال دمشق بين الشام ووادى القرى فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، معجم البلدان جـ ١ ص ٤٨٩ .

(٢) بصرى بالضم والقصر احدهما بالشام من اعمال دمشق مشهورة عند العرب قديما وحديثا ذكرها كثير فى اشعارهم - وهى المراد هنا - وبصرى ايضا من قرى بغداد قرب عكبراء - معجم البلدان جـ ١ ص ٤٤١ .

(٣) فروة بن عمرو الجذامى - عامل الروم على - معان - وما حولها من أرض الشام اسلم وارسل الى الرسول صلى الله عليه وسلم يخبره باسلامه فلما علم بذلك الروم اخذوه وحبسوه عندهم ثم قتلوه وصلبوه على ماء يقال له - عفراء بفلسطين وقد قال رحمه الله عند ما قدموه للقتل :

بلغ سراة المسلمين بأننى ... سلم لربى أعظمى ومقامى

الروض الأنف السهيلى جـ ٧ ص ٤١٧ .

(لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحارث بن عمير الازدى - الى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤته (١) عرض له - شرحبيل بن عمرو الغسانى - فقتله ولم يُقتل لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول سواه) (٢) ، فاشتد ذلك عليه (وندب الناس فأسرعوا وعسكروا - بالجرف (٣) - وهم ثلاثة آلاف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امير الناس - زيد بن حارثة ، فان قُتل فجعفر بن ابى طالب فان قتل فعبد الله بن رواحة فان قُتل فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم . وقد ودع رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه واوصاهم فقال : أوصيكم بتقوى الله ومن معكم من المسلمين خيرا اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، ولا امرأة ولا كبيرا ولا منعزلا بصومعته ولا تقطعوا نخلا ولا شجرا ولا تهدموا بناء) (٤) .

وكان ما كان من امر هذا الجيش بعد استشهاد من سماهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتولى خالد بن الوليد قيادة هذا الجيش واستخلاصه المسلمين من براثن الروم بالحيلة البارعة على ما هو معروف فى المغازى والسير .

أثـــر هذه الغـــزوة :

على الرغم من ان جيش المسلمين لم يحرز - فى هذه الغزوة - نصرا محققا للفارق الكبير بينه وبين جيش الروم فى العدد والعدة - لقد كان كل جندى من جنود المسلمين يقابله ويقاومه ثلاثون من الروم . وكان من توفيق الله لخالد

---

(١) مؤتة ، قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام وهى بادنى البلقاء والبلقاء دون دمشق - معجم البلدان

(٢) ابن سعد جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٣) الجرف ، موضع على ثلاثة اميال من المدينة نحو الشام معجم البلدان ٣-٨٧ .

(٤) شرح الزرقانى جـ ٢ ص ٢٦٩ .

بن الوليد انه استطاع ان يخلص به بعد ان كان مهددا بالابادة ان لم يستسلم ، على الرغم من ذلك فان الحملة قد حققت اغراضها .

فهى قد اظهرت للروم بجلاء ان المسلمين ليسوا جماعة من المغامرين يمكن القضاء عليهم بجيش كبير ، بل هم امة تسعى لنشر دعوتها بعزيمة تهون امامها كل العقبات مهما كانت من الكثرة والقوة فلن توقف زحفهم . وهى من جهة أخرى قد اوقفت ما فى نفوس الروم من عزم على غزو المدينة بعد ان حصلت فى نفوسهم الهيبة من المسلمين نتيجة لبسالتهم وعدم تهيبهم الموت .

الفصل الثالث

نقض الصلح وفتح مكة

الفصل الثـــالث

نقض الصلـح وفتح مكـــة

كان الهدف الرئيسى من وراء صلح الحديبية فى نظر المسلمين هـو " توفير الأمن والاستقرار واعطاء كل من المسلمين والمشركين الحرية الكاملـة ليتصل بعضهم ببعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، ولأجل أن يطلع المشـركون على أخلاق المسلمين وسلوكهم عن قرب حتى تتضح لهم الأخلاق العظيمـة ، والسلوك القويم لعله يكون فى ذلك حافز لهم الى الدخول فى الاسلام. ولقـد كان الأمر عند حسن ظن المسلمين ، وأثبتت الأيام صحة ما يتوقعون . اذ كثـر الداخلون فى الاسلام بعد صلح الحديبية .

ولقد كان مما أُقِرَ فى صلح الحديبية . أن من أحب أن يدخل فى عقـد محمد وعهده فليدخل ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها فله ذلك . ومعنى ذلك أن من انضم الى أى فريق من الفريقين فله ما للفريق الذى انضم اليه وعليـه ما عليه من حيث الالتزام بما جاء فى شروط هذا الصلح ، وأن أى اعتداء علـى أى فرد من أفراد الحلفاء ، أو اعتداء منهم يعتبر نقضا للعهد وانتهاكا للاتفاق .

وقد دخلت " خزاعة " فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ودخلـت بنو بكر فى عهد قريش فأصبح العهد شاملا لهم ، والالتزام بما جاء به مطلوبـا منهـم .

وفاء النبى صلى الله عليه وسلم بالعهد :-

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ورائه حريصين كـل الحرص على الوفاء بالعهد والالتزام بالصلح على الرغم من أن ظاهرة فيـه

اجحاف فى حق المسلمين . لكن الوفاء بالعهد قاعدة من قواعد الاسلام راسخة الجذور يلتزم بها المسلمون . سواء فى العهود فيما بينهم أم فيما بينهم وبين الكفار قال الله تعالى : (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ،ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) (١) وقال سبحانه :- " وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا " (٢) .

ولقد رأينا كيف أثبت صلى الله عليه وسلم مدى التزامه بالعهد ، وأظهر عمليا وفاءه به وذلك عندما سلّم " أبا جندل " - المسلم الذى فر بدينه الى المدينة - الى والده - المشرك - ليعود به الى مكة .

وكذلك رد صلى الله عليه وسلم " أبا بصير " للمشركين ليعودوا به الى مكة ولما استطاع " أبو بصير " الخلاص من المشركين لم يسمح له صلى الله عليه وسلم بالبقاء فى المدينة ، وما ذلك الا تمسكا بالصلح ووفاء بالعهد .

لقد صمد صلى الله عليه وسلم أمام هذه الظروف ، ولم تؤثر فيه العواطف ولم تلينه الاستعطافات من أولئك المستضعفين على الرغم من ظهور ميل بعض الصحابه اليهم . الا أن الوفاء بالعهد فوق كل الظروف والغدر لا وجود له فى خلقه صلى الله عليه وسلم حتى تستدره العواطف . أما الرحمة فلها ميدان آخر.

كيف نقضت قريش العهد :

لما دخلت " خزاعة " فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعقده ، ودخلت " بنو بكر " فى عهد قريش وعقدها أمن كل من الطرفين الآخر ، (وكان بين

---

(١) سورة النحل آية ٩٠ .
(٢) سورة الاسراء آية ٣٤ .

القبيلتين حروب خمدت نارها لما جاء الاسلام . لأن الناس انشغلوا به (١) .

لكن بني بكر ما لبثت أن غدرت " بخزاعة " مفتنمة الهدنة واطمئنان خزاعة على أن الناس آمنون وأن الذى بينها وبين بنى بكر من الحروب قد انطفأت ناره ، وكان تصور " خزاعة " أن " بنى بكر " لن تجترئ على الاعتداء عليهم ظنا منها أن قريشا وحلفاءها يهادلونهم هذا الشعور .

قال ابن اسحاق :- (فلما كانت الهدنة اغتنمها " بنو الديل " وهم من بنى بكر لأجل الاعتداء على " خزاعة " وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأرا بأولئك النفر الذين أصابوا منهم فى الجاهلية (٢) فخرج " نوفل بن معاوية الديلى " فى بنى الديل وهو يومئذ قائدهم وليس كل " بنى بكر " تابعه حتى بيّت " خزاعة " وهم على الوتير (٣) فأصابوا منهم رجلا ، وتجاوزوا واقتتلوا ورفدت بنى بكر قريش بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا حتى حازوا خزاعة الى الحرم . فلما انتهوا اليه قالت " بنو بكر " يانوفل انا قد دخلنا الحرم الهك الهك (٤) فقال كلمة عظيمة لا اله له اليوم . يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى انكم لتسرقون الحاج بالحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه) (٥) .

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٢ وشرح الزرقانى جـ ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) يقول المقريزى فى امتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٥٧ " ان السبب فى القتال بين خزاعة وبنى بكر أن أنس ابن زنيم الديلى هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه فثار الشر بين القبيلتين " .
ان صح ما قاله المقريزى فأى الفريقين يعتبر نقض العهد ؟ لا شك أنهم بنو بكر لأن هذا الرجل منهم هو الذى أشعل الشرارة الأولى حيث سب النبى صلى الله عليه وسلم اذ كان الواجب يقتضى ألا يسبه . لأن فى سبه صلى الله عليه وسلم استثارة لحلفائه واستفزازا لهم .

(٣) الوتير : بفتح الواو وكسر التاء ماء لخزاعة بأسفل مكة . معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٥٢

(٤) الهك الهك : أى خف من ربك وعظم حرمة الحرم ولا تنتهكها .

(٥) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٢ والكامل جـ ٢ ص ١٦١ .

لقد لجأت " خزاعة " الى الحرم لتحتمى به لعلها تجد فيه مأمنا حيث
ن من دخله كان آمنا وهذا عرف العرب جميعا أن من لجأ الى الحرم لا يُمس
سوء . لكن بنى بكر أصرت على التمادى فى قتال خزاعة ، ولم تعترف بحرمة
لحرم ، وواصلت القتال ولحقت بخزاعة داخل الحرم ، ومازالوا يقاتلونهم حتى
سفر الصبح (وقد طلبت " بنو بكر " من قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح
لى خزاعة فأمدوهم بذلك فبيتوا خزاعة ، ووقع القتال بينهم وكان جملة من
تل من خزاعة . عشرين أو ثلاثة وعشرين رجلا ، وقاتل مع بنى بكر جمع من قريش
فية ، منهم صفوان بن أميه وحويطب بن عبد العزى وعكرمه بن أبى جهل
سهيل بن عمر وكل هؤلاء أسلموا بعد ذلك . ولم يشاوروا فيما أقدموا عليه
ا سفيان ، وقيل شاوروه فأبى عليهم وظنوا أنهم لم يعرفوا وأن هذا لا يبلغ
رسول صلى الله عليه وسلم) (١) .

وبعد فهل كان هذا الحدث من قريش وحلفائها وليد ساعته ؟ وهل
نت عاقدة العزم عند ما وقعت " صلح الحديبية " على الوفاء به ؟ أغلب الظن
نها كانت تنوى الغدر بخزاعة . وربما كشف عن تلك النية بعض القرشيين عند ما
لنت خزاعة أنها سوف تدخل فى عقد محمد صلى الله عليه وسلم . وقالت :
نحن ندخل فى عهد محمد صلى الله عليه وسلم وعقده ، ونحن على من ورائنا
، قومنا فقال " حويطب بن عبد العزى " لسهيل بن عمرو " بادأنا أخوالك
لعداوة وقد كانوا يتسترون منا قد دخلوا فى عقد محمد وعهده فقال سهيل :

---

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية احمد دحلان جـ ٢ ص ٢٣٨ .

ما هم الا كغيرهم . هؤلاء أقاربنا ولحمتنا (١) قد دخلوا مع محمد قوم اختاروا لأنفسهم أمرا فما نصنع بهم ؟ قال حويطب نصنع بهم . أن ننصر عليهم حلفائنا بني بكر قال سهيل :- اياك أن تسمع هذا منك بكر فانهم أهل شؤم فيقتصوا بخزاعه فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه) (٢) .

موقف قريش من هذه الأحداث :

لقد ندم عقلاء قريش على الذى صنعت بكر وبعض من قريش ، وعلموا أنه نقض صريح للعهد الذى بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم (وجاء " الحرث بن هشام " وهو لم يشترك فى القتال مع بنى بكر جاء الى أبى سفيان يخبره الخبر فقال أبو سفيان هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه ولا يحمل الا علىّ . والله ما شوورت فيه ولا هويته حتى بلغنى ليغزونا محمد ان صدقنى ظنى وهو صادقى وقال : - لقد رأت زوجتى هند رؤيا كرهتها وخفت من شرها قالوا :- وما هى ؟ قال رأت دما أقبل من الحجون (٣) يسيل حتى وقف بالخندمة (٤) مليا ، ثم كان ذلك الدم كأن لم يكن) (٥) .

وقد اجتمع كبار رجال قريش ليتبادلوا الرأى فيما بينهم ، وما عسى أن يعملوه تجاه هذا الحدث الذى سيعتبره محمد صلى الله عليه وسلم بابا يدخل

---

(١) اللحمة : القرابة والنسب .

(٢) امتاع الاسماع للمقريزى جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٣) الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٤) الخندمة : جبل بمكة اجتمع فيه بعض رجال قريش لصد النبى صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الفتح المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(٥) السيرة النبوية والآثار المحمدية احمد دحلان جـ ٢ ص ٢٤١ .

ه لغزو مكة واخضاعها للدولة الاسلامية (فقال " عبد الله بن سعد بن أبي
سرح "(١) ان محمدا لا يغزوكم حتى يخيركم فى خصال كلها أهون من غزوكم
سل اليكم أن أدوا دية قتلى خزاعة أو تبرءوا من حلف بنى بكر أو ننبذ اليكم
ى سواء وقال أبو سفيان : - ان الرأى الأصوب أن نجحد هذا الأمر ، وننكر
ى قريشا اشتركت مع بنى بكر ، وأن الذين نقضوا العهد نقضوه بغير مشورة
، ولم نرض الذى صنعوا فقال القوم :- هذا هو الرأى) (٢) .

لقد التبس الرأى على أبى سفيان وعمى عليه الأمر ، ولو أنه فكر مليا
ستصوب رأى ابن أبى السرح مع أنه لا يدرى عن موقف الرسول صلى الله عليه
لم . وهل ظن ابن أبى السرح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتحقق
لا ؟

لقد رأوا بعد ذلك أن يذهب أبو سفيان الى المدينة ليزيد فى مدة
دنة ويؤكدها .

---

(١) عبد الله بن سعد بن أبى السرح : هو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة أسلم وكان من كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن الشيطان أضله فارتد ولحق بقريش . وقد أهدر النبى صلى الله عليه وسلم دمه عام الفتح . لكن عثمان أمنه وقد أسلم وتوفى سنة ٣٦ هـ الاصابة فى تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٣١٦ وقد قال ما قال بناء على معرفته بخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن رسول الله أكره ما يكره الحرب وسفك الدماء وأنه يحاول درء الحروب ما استطاع الى ذلك سبيلا .

(٢) شرح المواهب للزرقانى جـ ٢ ص ٢٩٠ .
والسيرة النبوية والآثار المحمدية احمد دحلان جـ ٢ ص ٢٣٩ .

موقف النبى صلى الله عليه وسلم :

" عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
صبيحة الوقعة قال لها :- لقد حدث فى خزاعة حدث قالت :- فقلت يا رسول
الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم فقال ينقضون العهد
لأمر يريده الله فقلت خيرا قال : خير " (١) .

وعن ميمونة رضى الله عنها :- (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ات عندها ليلة فقام ليتوضأ للصلاة قالت فسمعته يقول :- لبيك . لبيك . لبيك
لاثا نصرت . نصرت . نصرت ثلاثا فلما خرجت قلت يا رسول الله :- سمعتك
قول لبيك ثلاثا نصرت ثلاثا كأنك تكلم انسانا فهل كان معك أحد ؟
ل :- هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل قالت
مونة :- فأقمنا ثلاثا ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فسمعت
راجز يقول :-

يارب انى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا (٢)
ان قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا (٣) ... وقتلونا ركعا وسجدا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :- نصرت ياعمرو بن سالم ، وعمرو
سالم هو الخزاعى الراجز بهذه الأبيات) (٤) .

) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٧١ .
) الأتلد : القديم العهد .
) هجدا : أى غدروا بنا ونحن نصلى بالليل .
) المعجم الصغير للطبرانى جـ ٢ ص ٧٣ .

(وعن عائشة رضى الله عنها قالت :- لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب مما كان من شأن بنى كعب غضبا لم أره غضبه منذ زمن وقال لا نصرنى الله تعالى ان لم أنصر بنى كعب) (١) .

ولما جاءه رجال خزاعة وأخبروه الخبر قال : تفرقوا فى الأودية ، يريد بذلك صلى الله عليه وسلم أن يعمى الأخبار عن قريش ، وألا تعلم بمجئ خزاعة الى المدينة ، ثم جاء " بديل بن ورقاء " على رأس وفد آخر من خزاعة طلب للنصرة أيضا واستعجالا لها . ولما أخبروه صلى الله عليه وسلم الخبر رجعوا الى مكة

(وروى ابن عائذ عن ابن عمر أن ركب خزاعة لما قدموا وأخبروه خبرهم قال صلى الله عليه وسلم فيمن تهمتكم ؟ قالوا بنى بكر . قال أكلها ؟ قالوا : لا ولكن بنو نفاثه ورأسهم نوفل . قال هذا بطن من بنى بكر وأنى باعث الى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم فى خصال ثلاث فبعث اليهم " ضمرة " يخبرهم بين أن يدوا قتلى خزاعة أو يبرءوا من حلف بنى نفاثه . أو ينبذ اليهم على سواء . فأتاهم ضمرة فأخبرهم فقال " قرطة بن عمرو " لا ندى ولا نبرأ لكنا ننبذ اليه على سواء فرجع بذلك) (٢) .

لقد أنذر صلى الله عليه وسلم قريشا وهذا من كمال خلقه وعطفه ورحمته . ولا ما كان عليه من بأس لو أنه غزاهم بدون انذارهم الذين نقضوا العهد ، وانتهكوا الميثاق عن قصد واختيار ولو كان لدى قريش قليل من التفكير لقبلوا ما عرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن صدق رسول الله صلى الله عليه

---

١) رواه أبو يعلى بسند جيد . أنظر السيرة الحلبية أحمد دحلان جـ ٢ ص ٤٠

٢) شرح الزرقانى على المواهب جـ ٢ ص ٢٩٢ .

لم عند ما قال لعائشة :- ينقضون العهد لأمر يريده الله ، وها هـى ارادة
ه تترتب لتطهر مكة وتوحد جزيرة العرب لتكون قاعدة منها تنطلق الدعـوة
ى الله فى أرجاء الأرض .

اولة قريش تلافى نتائج ما فعله حلفاؤهم :

لقد أحست قريش بسوء صنيعها ، وأن الدائرة ستدور عليها فأوفـدت
مها أبا سفيان الى المدينة لعله أن يزيد فى مدة الصلح ويؤكده ويتلافـى
جة هذا الخطأ ، وقد توقع رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن أبا سفيـان
تى اليه " فقال لأصحابه :- كأنكم بأبى سفيان قد جاء ليشد العقد ويزيـد
المدة زاد فى السيرة الحلبية :- وأنه راجع بسخطه) (١) .

وفعلا وقع ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما لبث أن قـدم
سفيان الى المدينة ، وكأنه كره أن يفاجئ الرسول صلى الله عليه وسـلم
خول عليه لأنه يعلم خطورة الأمر الذى قدم من أجله فرأى أن أمس القوم به رحما
" أم حبيبة " زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل أول ما قدم عليهـا
ا أن تشفع له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكنه أصيب بخيبة أمـل
ى عند ما أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوتـه
، ولم تمكنه من الجلوس عليه . وقالت له : انه فراش رسول الله وأنت مشـرك
لا يحق لك الجلوس عليه . فكان تصرفها معه طعنة له لم يكن يتوقعهـا
قرب الناس اليه . فخرج من عندها) (٢) .

ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧ والسيرة الحلبية جـ ٢ ص ٧٢ .
ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧ وزاد المعاد جـ ٤ ص ١٦١ .

و لم تذكر كتب التاريخ والسير أنه عرض عليها الأمر الذى كان يود عرضه .
ولعله استشف الجواب من سوء استقبالها له ، ومعاملتها معه . فاكتفى بـذلك
ولم يعرض عليها شيئا ، وقرر الدخول على النبى صلى الله عليه وسلم . فلمـا
خل عليه قال :- (انى كنت غائبا فى صلح الحديبيه فامدد العهـد
ز نا فى المدة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألذلك جئت ياأبـا
فيان ؟ قال نعم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان فيكم من حدث؟
جاب أبو سفيان - كذبا وزورا - معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغيـر
نبدل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :- فنحن على مدتنا وصلحنـا
اد أبو سفيان القول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليـه
يئا) (١) .

أين سيذهب ياترى بعد أن سمع من النبى صلى الله عليه وسلم كلامـا
يغنى عن قريش شيئا ؟ . لقد فكر فى الذهاب الى كبار المهاجرين لعلـه
عندهم ما يشفى فؤاده ، فذهب الى أبى بكر (وكلمه أن يكلم رسـول
صلى الله عليه وسلم وقال رضى الله عنه ، ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بـن
خطاب رضى الله عنه ، فرده ردّا سيئا حيث قال :- بعد أن عرض عليه القيـام
ساطة أنا أشفع لكم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجـد
لـذ ر لجاهدتكم به ، ثم ذهب الى عثمان والى سعد بن عبادة لكن لم يجـد
ا الا مثلما وجد من أبى بكر رضى الله عنهم ثم جاء الى على بن أبى طالـب
ه فاطمة وحسن رضى الله عنهم وحسن غلام يدب بين يديها فقال :- ياعلـى
أس القوم بى رنط وانى قد جئت فى حاجتى فلا أرجعن كما جئت خائبـا

شرح الزرقانى على المواهب جـ ٢ ص ٢٩٢ والسيرة الحلبية جـ ٣ ص ٧٣ .

شفع لي الى محمد فقال :-ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه ، ثم التفت الى فاطمة رضي الله عنها قال :- أجيري بين الناس فقالت :- انما أنا امرأة ، قال :- قد أجارت اختك زينب زوجها أبا العاص بن الربيع وأجاز ذلك محمد صلى الله عليه وسلم لت انما ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :- فأمري أحد ابنيك لت انما هما صبيان ليس مثلهما يجير ثم أعاد القول الى علي رضي الله عنه ال :- بصرني لأمري فانه قد ضاق علي فمرني بأمر ترى أنه نافعي ، قال والله أجد لك شيئا أمثل من أن تقوم فتجير بين الناس ، قال :- ترى ذلك مغنيا ي شيئا ؟ قال لا أظن ذلك والله ، ولكن لا أجد لك غيره . فقام أبو سفيان ن ظهري الناس ، فصاح ألا اني قد أجرت بين الناس) (١) ثم ركب راحلته د الى مكة .

ان موقف الصحابة رضي الله عنهم تجاه أبي سفيان . هذا الموقف الصلب تشدد ليثير التساؤل . هل هم على اتفاق سبق فيما بينهم على هذا الموقف ه أبي سفيان ؟ أم هو تعبير عن شعور كل واحد منهم ، والذي يظهر لي كلا منهم أجاب حسب ما فهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يريد يفعله مع قريش ، وأنه لا ينوي التفاوض مع أبي سفيان ، وأنه عازم على التوجه مكة حيث أنه قال :- قبل مقدم أبي سفيان (كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم المعقد ويزيد في المدة وأنه راجع بسخطه) (٢) فالصحابة رضي الله عنهم وا من قوله عليه الصلاة والسلام هو راجع بسخطه أن أبا سفيان راجع بما لا يغني قريش شيئا ، فكان هذا جوابهم لأبي سفيان .

) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٧ وامتاع الأسماع ص ٣٦٠ والسيرة الحلبية جـ٣ص ٧٣ .
) انظر ص ١٩٨ .

توجهه صلى الله عليه وسلم لفتح مكة :

لما رجع أبو سفيان لمكة أمر صلى الله عليه وسلم الناس بالتأهب والاستعداد وأمر عائشة رضى الله عنها بأن تهيئ له زاده ، وتكتم أمره (فدخل أبو بكر رضى الله عنه عليها وهى تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى بنية . أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوا ؟ قالت :- نعم قال :- فأين ترينه يريد ؟ قالت لا والله ما أدرى ، ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس أنه سائر الى مكة ، وأمر بالجد والتهيؤ) [1] وبلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل وهو عدد لم تشهد مثله جزيرة العرب من قبل في وحدة هدفه ، ووحدة قيادته ، وحرصا منه صلى الله عليه وسلم على مباغتة قريش حتى لا تستعد للمقاومة يحاول كتمان أمره ليأخذ القوم على غره فلا يقاوموا خشية أن يكون فى المقاومة سفك دماء ، واستباحة حرمات وهو لا يرغب فى ذلك ويبتهل الى الله (ويقول :-" اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني الا بغتة ، ولا يسمعون بى الا فجأة " وأخذ صلى الله عليه وسلم بالانقاب [2] وكان عمر رضى الله عنه يطوف عليها ويقول :- لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه الا رددتموه ، وكانوا يتحفظون فى طرق مكة أشد من غيرها) [3] .

وقد أخذت " حاطب بن أبى بلتعه " رضى الله عنه لحظة لضعف البشرى حيث أنه بعث برسالة الى قريش يخبرهم فيها بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسير اليهم بجنود لا قبل لهم بها ، وبعث بالرسالة مع امرأة استأجرها

---

(١) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٩ وابن سعد جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٢) الأنقاب جمع نقب : وهو الطريق بين جبلين .
(٣) امتاع الاسماع جـ ١ ص ٣٦١ .

لهذا الغرض . لكن الوحي كشف أمرها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل
أن تبلغ الرسالة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باللحاق بها والاتيان
بالرسالة ولما كاشف بها حاطب اعتذر رضي الله عنه الى النبي صلى الله عليه
وسلم ، وقال :-(يارسول الله لا تعجل اني كنت امرءا ملصقا في قريش
أي حليفا - ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات
يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ
يدا يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ، ولا رضا بالكفر
بعد الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه قد صدقكم فقال
عمر يارسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم :- انه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال
اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " فأنزل الله تعالى " ياأيها الذين آمنوا
لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق
يخرجون الرسول واياكم ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلي ، وابتغاء مرضاتي
تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد
ضل سواء السبيل " (١) .

ولما خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة ،وكان ذلك في رمضان سنة
ثمان من الهجرة لقيه عمه العباس بالجحفة (٢) وكان اسلام العباس قبل فتح مكة
وبقي بمكة بأمر من الرسول صلى الله عليه وسلم يزوده بالأخبار ، ولما رأى
العباس أن قريشا نقضت العهد الذي بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الممتحنة آية (١) وصحيح البخاري جـ ٥ ص ١٨٥ .
(٢) الجحفة : على طريق مكة وهي ميقات أهل مصر والشام ان لم يمروا على
المدينة وكان اسمها " مهيعة " وانما سميت الجحفة لأن السيل اجتحفها .

رأى أن مهمته قد انتهت . لأنه علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لابـــــد وأن يتوجه لفتح مكة . فكرة البقاء فيها ، وأحب أن يدخل مع الفاتحين (١) .

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم مر الظهران (٢) أمر المسلمين أن يوقـــد كل واحد منهم نارا ولعل الهدف من ذلك أن يُرى قريشا كثرة الجيش ان كـــان لها عيون وطلائع يتجسسون الأخبار ، ولما رأى العباس رضى الله عنه أن جيـــش المسلمين قرب من مكة وأنه جيش لا قبل لأهل مكة به ، وأن أية مقاومة لهـــذا الجيش أو اعتراض لطريقه لابد وأن تسحق خشى العباس رضى الله عنه على أهـــل مكة وتمنى أن لو استأمنوا لأنفسهم من رسول الله ، فخرج راكبا على بغلة رســـول الله صلى الله عليه وسلم لعله أن يجد من الرعاة أو الحطابة من يوصيه لأهل مكـة أجل أن يأتوا طلبا للأمان من الرسول صلى الله عليه وسلم (أما قريش فقـــد بعثت أبا سفيان يتجسس لها الأخبار وان لقى محمدا صلى الله عليه وسلـــم أخذ لها منه جوارا ، فان رأى رقة من أصحابه آذنه بالحرب) (٣) فخرج ومعـــه حكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران فـــاذا هم بنيران كأنها نيران عرفة فقال أبو سفيان ما هذه ؟ لكأنها نيران عرفة . فقال بديل بن ورقاء :- نيران بنى عمرو فقال أبو سفيان :- عمرو أقل من ذلك ، قـــال العباس رضى الله عنه :- فعرفت صوت أبى سفيان فقلت :- يا أبا حنظلة فعـــرف صوتى فقال : أبو الفضل ؟ قال :- قلت :- نعم ، قال :- مالك فداك أبـــى وأمى ؟ قال :- قلت :- ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر ابن هشام جـ ٤ ص ٣٠ وشرح الزرقانى جـ ٢ ص ٣٠٠ .
(٢) مر الظهران : الظهران : واد قرب مكة ، ومر : قرية قرب هذا الوادى تضاف اليه فيقال مر الظهران : معجم البلدان جـ ٤ ص ٦٣ .
(٣) امتاع الأسماع ص ٣٦٨ .

فى الناس واصباح قريش والله . قال فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قال :- قلت :- والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك قال :- فركب خلفى ورجع صاحباه فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فقال يا رسول الله :- هذا أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى لأضرب عنقه قال :- قلت يارسول الله انى قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيه الليلة دونى رجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب به ياعباس الى رحلك فاذا أصبحت فائتنى به . قال العباس فلما أصبحت أتيته به فأسلم رضى الله عنه ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يأخذ أبا سفيان معه الى المضيق الذى تخرج منه جيوش المسلمين ليرى بعينه ما أعد الله لأهل الشرك ، ولأجل أن يزداد ايمان أبى سفيان اذا رأى من الجنود مالا طاقة له به ، فلما رأى كتائب الايمان تواصل الزحف نحو مكة أخذ يسأل العباس عنها كتيبة كتيبة فلا يهمه أمرها حتى اذا مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبة الخضراء (١) ، قال : سبحان الله من هؤلاء ياعباس ؟ قال : قلت هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال : قلت : يا أبا سفيان انها النبوة ، قال : فنعم اذن (٢) .

---

(١) العرب تطلق الخضراء على السواد ، وانما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٨٤ وابن هشام ٤ - ٣٠ وامتاع الاسماع ١ - ٣٦٨ .

دخوله صلى الله عليه وسلم مكة :

لما وصل صلى الله عليه وسلم الى ـ ذى طوى (١) ـ قسم جيشه الى فرق لتدخل كل فرقة من جهة ، وقادة الفرق هم ، الزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن عبادة ، وابو عبيدة بن الجراح ، وكان صلى الله عليه وسلم حريصا كل الحرص على ألاّ يراق دم ، فنهى عن القتال الا دفاعا وصدا لعدوان ، ولما قيل له ان سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، عزله عن القيادة وأسندها الى ابنه قيس رضى الله عنهم (٢) ولما دخلت تلك الفرق الى مكة ، حصل بعض المقاومة لفرقة خالد بن الوليد ، ذ تعرض لها بعض رجال قريش ، لكنهم سرعان ما نهزموا " وعلم صلى الله عليه سلم أن قريشا تريد المقاومة وصد المسلمين ، وانها قد جمعت جموعا من سفالة الناس وعوام القوم لتخوض بهم حربا ضد المسلمين ، فكوّن صلى الله عليه وسلم تيبة من الانصار وأمر الا يشترك فيها الا أنصارى ليقاوموا القوم ويقاتلوهم ففعلوا تى خشى ابو سفيان على قريش وطلب من النبى صلى الله عليه وسلم ان يجدد هم الامان فقال : من دخل دار ابى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد هو آمن ومن اغلق دونه بابه فهو آمن) (٣) .

ومبالغة منه صلى الله عليه وسلم فى تأمين قريش وكراهية منه لحربهم عقد لواء لرجل من أصحابه يقال له ـ أبى رويحة ـ وأمر من ينادى بأن من دخل ت لواء أبى رويحة فهو آمن) (٤) ، وقد امر صلى الله عليه وسلم بقتل أناس وان

---

(١) مكان قرب مكة معجم البلدان ـ وهو المعروف الآن بحدائق الزاهر ـ فتح مكة باشميل .

(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٨٧ وامتاع الاسماع ص ٣٧٥ .

(٣) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٨٥ وشرح الزرقانى جـ ٢ ص ٣١٧ .

(٤) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٨١ .

وجدوا تحت استار الكعبة ، لأن لهم أعمالا اجرامية بشعة يصعب معها العفو عنهم ، وهكذا دخل صلى الله عليه وسلم مكة بدون مقاومة تذكر ، وفتح البلد الأمين بدون اراقة دماء ، وطهر البيت من الاصنام وهو يتلو قول الله تعالى : " جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا "(١) فكان كلما أهوى الى صنم تهوى الى الارض وستقط سقوطا لا قيام بعده ان شاء الله فلا عبودية الا لله ، ويجب أن يكون الدين كله لله ، واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد طهر قاعدة الاسلام ومنطلق دعاته من الأصنام والأوثان فعلى المسلمين تطهير سائر أرض الله من الاصنام والأوثان .

خطبة الفتح والعفو عن أهل مكة :

لما طهّر صلى الله عليه وسلم البيت العتيق من الأصنام وقف في باب الكعبة وخطب الناس خطبة جاء فيها " ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية " يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير " ثم قال : يامعشر قريش ما ترون انى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم قال : اذهبوا فانتم الطلقاء "(٢) لقد بين صلى الله عليه وسلم في هذه الخطبة ان ما كان من اخلاق الجاهلية وافتخار الناس بآبائهم وكل ما من شأنه تقسيم الناس الى طبقات وفئات امر قضى الله عليه ، فلا عصبية لأرض ولا لقبيلة ، كل الخلائق تعود الى اصل واحد وهو آدم عليه السلام ولا فضل لاحد على أحد الا بالتقوى والأعمال الصالحة

---

(١) سورة الاسراء آية ٨١ .

(٢) سنن الترمذي جـ ٥ حديث ٣٢٧٠ ص ٣٨٩ وابن هشام جـ ٤ ص ٤١ .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها بناء المجتمع الانساني العالمـي ، اما دعوى الجاهلية فانها خبيثة منتنة ، وفي الحديث الصحيح دعوها فانهـا منتنة ، واذا كان الله سبحانه وتعالى جعل الخلائق شعوبا وقبائل فما ذلـك الا ليتعارفوا ويتآلفوا ، لا ليختلفوا ويتنافروا وليس اختلاف الألسن والألـوان والاوطان الا امر عارض فلا يصح ان يكون داعيا للفرقة والنزاع بين ابناء الاسـرة الانسانية الواحدة .

ولقد عفا صلى الله عليه وسلم عن اهل مكة عفوا عاما ما كانوا يتوقعونه ، لانهم آذوه وحاربوه طيلة عشرين سنة ، واكرهوه على الخروج من مكة ، وفـي تقديرهم انهم اهل لاى انتقام يلحقه بهم صلى الله عليه وسلم ، لكنه وقف مـن اعدائه صلى الله عليه وسلم موقفا فريدا لم يشهد مثله التاريخ برا ورحمة ، وذلـك لانه ما كان يريد من حربه الانتقام ، وما كان يريد ملكا ولا رئاسة ، والا لفعـل ما يفعله الملوك والرؤساء لقد ضرب صلى الله عليه وسلم بذلك للعالم كله مثـلا رائعا ما كان ليصـدر عن غير نبي ولقد كان لعفوه صلى الله عليه وسـلم اثر بالغ في نفوس قريش فاقبلوا على الاسلام وبايعوه رجالا ونساء وخرجوا معـه بعد شهر من فتح مكة ليقاتلوا اعداءه وينصروا دينه ، وبفتح مكة أنهد ذلك السد المنيع الذى كان يحول دون انطلاق الدعوة ويحمي الاصنام .

آثـار فتـح مكـة :

كان لفتح مكة اثر بعيد من الناحيتين الدينية والسياسية على الجزيـرة العربية . اما من حيث الاثر الديني فان النبي صلى الله عليه وسلم لما طهـر لبيت العتيق من الاصنام والاوثان وقضى على الوثنية في معقلها ، امر بتتبـع لاصنام والقضاء عليها في سائر انحاء الجزيرة العربية ، وكان اكثر عبدة الاصنـام

قد بدأ بمراجعة نفسه والتفكير فيما يعتقد ويعبد ، وذلك بعد ان علم ان اهـل مكة وهم أشد الناس ولاء لاصنامهم وتعظيما لاوثانهم لم تغنهم تلك المعبودات عن الله شيئا ، اخرج البخارى فى صحيحه عن جرير بن عبد الله الطحـان قال : كان بيت فى الجاهلية يقال له ذو الخلصة والكعبة اليمانية والكعبـة الشامية ، فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم ،الا تريحنى من ذى الخلصـة فنفرت فى مائة وخمسين راكبا فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده "(١) . وبعث صـلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ، لهدم ـ العزى ـ وبعث عمرو بن العـاص الى ـ سواع ـ فهدمه وبعث سعيد بن زيد الاشهلى الى ـ مناة ـ فهدمه (ونادى نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله ورسوله فلا يدعـن فى بيته صنما الا كسره او حرقه ، وادرك المسلمون الذين كانوا قبل الفتـح عبدة اصنام وعباد اوثان انهم كانوا على باطل فيما كانوا يعتقدون فأخـذوا بتكسير اصنامهم بايديهم مقتنعين بانها لا تنفع ولا تضر ، فهذا ابو سفيـان يقول وهو يرى مصرع الاصنام لو كان مع اله محمد غيره لكان غير ما كان ، وهـذه زوجته هند بنت عتبه تضرب صنما فى بيتها بالقدوم وهى تقول كنا منك فى غرور) (٢) هذا هو الاثر الدينى الذى احدثه فتح مكـة .

وأما الأثر السياسى فان قريشا بعد ان سلّمت مكة لرسول الله صلـى الله عليه وسلم والقت لواء المعارضة لم يكن ليحمل حملها قبيلة من القبائـل ، ذلك لان القيادة كانت بيدها والرئاسة تعود اليها ، فهى صاحبة السلطـة والزعامة واكثر القبائل العربية لم تتخذ تجاه الاسلام موقفا واضحا ، منتظـرة

---

(١) الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى ج٢١ص ١٦٥ .
(٢) امتاع الاسماع ص ٣٨٤ - ٣٩٨ .

ما تسفر عنه الحروب بين محمد صلى الله عليه وسلم وقريش ، وما كانت لتبت بالامر وتعلن الاسلام وقريش لا تزال على ولائها للوثنية وعبادة الأصنام ، (عن عمرو بن سلمة قال : كانت العرب تلوّم - اى تنتظر - باسلامها الفتح ، فيقولون اتركوه وقومه فانه ان ظهر عليهم فهو نبى صادق فلما كانت وقعة اهل الفتح بادر كل قوم باسلامهم) (١) وكان سقوط نظام الوثنية فى مكة مؤشرا لسقوط كل انظمة الشرك فى سائر انحاء الجزيرة العربية ودليلا واضحا على انتصار التوحيد ودعاته .

وقد اظهرت بعض القبائل العربية رغبة في قتال المسلمين وهم هوازن وثقيف لكنهم سرعان ما انهزموا وتم دخولهم فى نطاق الدولة الاسلامية .

وبفتح مكة اتسعت رقعة الدولة الاسلامية فلم تعد تقتصر على المدينة فقط بل اتسعت حتى شملت الحجاز كله بما فيه مكة .

وبفتح مكة ازداد الاسلام قوة وعزة ، فلا غرابة ان يقول صلى الله عليه وسلم " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا " (٢) .

قال الخطابى " فى مقام التعليل لقطع الهجرة من مكة ، كانت الهجرة واجبة من مكة الى المدينة ، لان اهل الدين بالمدينة كانوا قليلين ضعيفين فكان الواجب على من اسلم ان يهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان حدث حادث استعان بهم فى ذلك ، فلما فتحت مكة استغنى عن ذلك ، اذ كان معظم الخوف من اهلها ، فأمر المسلمين ان يقيموا فى اوطانهم ويكونوا على نية الجهاد ومستعدين لان ينفروا اذا استنفروا) (٣) .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٩١ .
(٢) متفق عليه .
(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جـ ١ ص ١٥ .

الباب الرابع

****

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفتح الى أن انتقل الى الرفيق الأعلى

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : سياسته صلى الله عليه وسلم مع الروم .

الفصل الثانى : سياسته صلى الله عليه وسلم مع المشركين .

الفصل الثالث : وفود العرب .

الفصل الأول

سياسته صلى الله عليه وسلم مع الـــــــروم

أولا : موقف الروم من الاسلام والمسلمين .

ثانيا : استنفار المسلمين لغزو الروم .

الفصــل الأول

سياسته صلى الله عليــه وسلم مع الـــــروم

أولا : موقف الروم من الاسلام والمسلمين

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث برسالة الى هرقل ، بعد صلـح الحديبية ، يدعوه فيها الى الدخول في الاسلام ، وكان هرقل على يقين مـن أن الاسلام لن يقتصر نوره على المدينة المنورة فحسب ، بل لابد وأن يمتـد ذلك النور خارج الجزيرة العربية ، وأن يبلغ ما بلغ الليل والنهار ، وبناء علـى هذا لابد وأن يقتحم المسلمون بلاد الروم ويفتحونها ، وقد قال يوما من الايـام لأبي سفيان بن حرب بعد أن اطلع على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعـد ان تأكد من صفاته " ان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين "(١) .

وكان هرقل قد رغب في الاسلام وأحب الدخول فيه ، الا أن رغبتـه لم تكن ناتجة عن اقتناع بالاسلام ، لانه لو كان كذلك لأرخص كل شيء في سبيـل اسلامه ولما اهتم بملك ولا بسلطان ، لكن الذي يظهر لنا أن رغبته في الاســلام كانت ناتجة عن حبه للملك ورغبته في السلطة حيث انه علم أن هذا الدين لابـد وأن يدخل كل بيت وان يهدم كل سلطان يستعصى على الاصلاح ، فكأنه رغـب بالاسلام أول الامر اعتقادا منه أن النبي صلى الله عليه وسلم سيُبقي عليه ملكـه ويتنازل له بحزه وسلطانه .

وقد عرض هرقل على قومه ان يستجيبوا لدعوة محمد صلى الله عليه وسـلم ويدخلوا في الاسلام ، لكنهم امتنعوا واصروا على البقاء على النصرانيـة ،

---

(١) صحيح البخـاري ج ١ ص ٦ .

فآثر قيصر الحياة الدنيا على الآخرة ولم يجب داعي الله ، وليت الروم اكتفـــوا
بالتمسك بالنصرانية وتركوا الناس وما يدينون ، لكنهم ابوا على الناس الا النصرانية
دينا ، فمن رأوا منه خلاف ذلك قتلوه ، كما فعلوا مع فروة بن عمرو الجذامي (١) ،
وكما فعلوا مع الاسقف - صفاطر - وذلك عند ما جاء رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم
دحية الكلبي فأخبره بما جاء به من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقـــل
وبما يدعو اليه فقال صفاطر : والله صاحبك نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده فـــي
كتابنا باسمه ، ثم دخل وألقى ثيابا كانت عليه سودا ولبس ثيابا بيضاء ثم أخـــذ
عصاه فخرج على الروم في الكنيسة فقال : يامعشر الروم انه قد جاءنا كتاب مـــن
أحمد يدعونا فيه الى الله واني اشهد ان لا اله الا الله وأن أحمد عبده ورسوله .
قال : فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه (٢)) وقد بعث صلى اللـــه
عليه وسلم جيشا لتأديبهم تحت قيادة زيد بن ثابت ، فالقى الرعب في قلوبهـــم
وعاد الى المدينة تاركا هذا الأثر من الخوف والفزع في قلوب الروم (٣) .

ولما كانت السنة التاسعة من الهجرة ، وحين صارت للاسلام دولة قويـــة
بعد فتح مكة ودخول معظم الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام ، علم الـــروم أن
مصالحهم في الجزيرة العربية لابد وان تتأثر بهذا الحدث الكبير ، وللروم مصالـح
تجارية متمثلة في رحلة الصيف التي يقوم بها العرب الى الشام ، ومصالح عسكريـة
حيث ان القبائل العربية القاطنة شمال الجزيرة العربية موالية للروم ، فهـــي
بمثابة درع أمان للروم من هجمات عرب الصحراء وغيرهم من الأعداء ، فلابـــد أن

(١) أنظر ص ٢٣٢ من هذه الرسالة .
(٢) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٢٦٦ والكامل جـ ٢ ص ١٤٤ .
(٣) انظر ص ٢٣٣ من هذه الرسالة .

يقوم الروم بعمل يعمون فيه مصالحهم ، وكان الروم يتابعون سير أحداث هذه الدعوة وتطورها ، ولهم عيون داخل هذه الدولة الفتية يرسلون لهم الأخبار بكل ما يجد ويحدث من التطورات ، وكان الروم يهتمون بكل ما يحدث بين الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه ، ويحاولون بكل وسيلة صد الناس عن الاسلام ، ولا يتوانون في ذلك ولا سيما اذا سنحت لهم الفرصة ، يقول كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك : (ثم غدوت الى السوق فبينما أنا أمشي بالسوق اذا نبطي (١) يسأل عني من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ، قال : فجعل الناس يشيرون له الى حتى جاءني ، فدفع كتابا من ملك غسان في سرقة من حرير (٢) ، فاذا فيه ، أما بعد فانه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا ضيعة فالحق بنا نواسيك ، قال كعب : قلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضا ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ، قال : فعمدت بها الى التنور فسجرته بها (٣)) .

وفي قصة مسجد الضرار ما يشير الى علاقة الروم بالمنا[فقين] ، وحرصهم على كل ما من شأنه عرقلة سيرة هذه الدعوة واعتراض طريقها ((وذلك أن أبا عامر الراهب لما رأى أمر النبي صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور ، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من الانصار من اهل الريب والنفاق يعدهم ويمنيهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه

(١) النبطي واحد النبط قوم كانوا يسكنون بين العراق والاردن عاصمتهم - البتراء -
(٢) سرقة من حرير ، اى قطعة من حرير .
(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام جـ ٤ ص ١٣٢ والسيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٤٥ .

ويرده عما هو فيه ، وأمرهم ان يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه ويكون مرصدا له اذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه واحكموه وفرغوا منه قبل خروج الرسول صلى الله عليه وسلم الى تبوك (١)) لكن الله تعالى أطلع نبيه على نوايا اولئك المفسدين ،فأمر صلى الله عليه وسلم باحراق هذا المسجد بعد ان عاد من تبوك وبعد ان قال له ربه " لا تقم فيه ابدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق ان تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين (٢)) .

بهذا يتبين لنا مدى حرص الروم ورغبتهم في القضاء على الاسلام والمسلمين ، وكان المسلمون على خشية من الروم وأتباعهم من العرب أن يغزوا المدينة ، يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

(كان لي صاحب من الانصار اذا غبت أتاني بالخبر واذا غاب كنت آتيه بالخبر ، ونحن حينئذ نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا انه يريد ان يسير الينا ، فقد امتلأت صدورنا منه ، فأتى صاحبي الانصاري يدق الباب وقال : افتح ، فقلت جاء الغساني ؟ قال : أشد من ذلك اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه (٣) .

هكذا يصور لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدى حذر المسلمين من أتباع الروم وانهم كانوا يتوقعون منهم غزو المدينة .

---

(١) تفسير بن كثير ، جـ ٢ ص ٣٨٨ .
(٢) سورة التوبة آية ١٠٧ .
(٣) صحيح مسلم باب قول الله تعالى " وان تظاهرا عليه " حديث رقم ٨٥٧ .

ثانيا : استنفار المسلمين لغزو الروم

(أ) أسـباب الغـزو

ذكر ابن سعد أن السبب فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم بلغه أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ،وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم الى البلقاء ، فندب رسول اللـه صلى الله عليه وسلم الناس الى الخروج وأعلمهم المكان الذى يريد ليتأهبـوا لذلك ، وبعث الى مكة والى قبائل العرب يستنفرهم (١) .

وقد روى الطبرانى من حديث عمران بن حصين الخزاعى رضى الله عنهما سببا نحو هذا الذى ذكره ابن سعد (٢) .

الا أن بعض اهل السير يذكر سببا غير هذا اذ يقول ان السبب فـى ذلك ان الله تعالى لما أمر المؤمنين بمنع المشركين من قرب المسجد الحـرام بقوله : " يأيها الذين أمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسـوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهـم صاغرون (٣) .

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحـال وغيرهم انه لما امر الله تعالى ان يمنع المشركون من قربان المسجد الحرام فـى

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) انظر السيرة النبوية احمد دحلان ج ٢ ص ٣٢١ .

(٣) سورة التوبة آية ٢٧ .

الحج وغيره ، قالت قريش : لينقطعن عنا المتاجر والاسواق ايام الحج وليذهبن ما كنا نصيب منها ، فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا او يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، قلت : فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال الروم لأنهم اقرب الناس اليه (١) .

والذى يظهر لى والله أعلم ان السبب فى هذه الغزوة ، اى غزوة تبوك ، هو ما ذكره ابن سعد والطبراني ، وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم عزم على هذا الامر فى ظروف قاسية ، فالوقت صيف ، والشمس حارة ، والفقر شديد ، والظهر قليل ، وللناس رغبة فى البقاء لجنى ثمار نخيلهم ، والاستنفار فى مثل هذه الظروف لا يكون عادة الا لصد عدو ان يوشك ان يقتحم البلاد .

وايضا فان المسلمين لما وصلواالى تبوك لم يجدوا للروم أثرا من آثار الاستعداد للحرب والعدوان ، وتبين لهم ان ما أشيع من عزم الروم على غزو المدينة مجرد دعاية وارجاف وتخويف ، وعند ذلك استشار النبى صلى الله عليه وسلم الناس هل يتقدم ويتوغل فى بلاد الروم " فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ان كنت أمرت بالسير فسر . فقال صلى الله عليه وسلم : لو أمرت به ما استشرتك فيه . قالوا : يارسول الله ان للروم جموعا كثيرة ، وليس بها احد من اهل الاسلام وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد افزعهم دنوك ، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى ، او يحدث الله لك فى ذلك أمرا " (٢) ، فلو كان هدفه صلى الله عليه وسلم من الخروج لقتال الروم ان يسلموا أو يعطوا الجزية لمضى لما خرج من أجله .

---

(١) البداية والنهاية ، ابن كثير جـ ٥ ص ٢ .
(٢) امتاع الاسماع ص ٤٦٣ .

وهناك أيضا ما يدعو الى الجزم بصحة هذا السبب دون غيره من الاسباب وهو ان بعض المفسرين يرى ان قول الله تعالى "ياأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " وهي الآية التى قال عنها البعض بأنها هي السبب في غزو الروم ، اقول : ان بعض المفسرين يرى ان هذه الآية نزلت قُبيل الحج وبعد غزوة تبوك في السنة التاسعة (وأنها نزلت في ثلاث مراحل . . . المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام . والمرحلة الثانية كانت في اثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها . اما مقدمات السورة من أولها الى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قُبيل موسم الحج في ذى القعدة أو في ذى الحجة . . وهذا على الاجمال هو كل ما يمكن ترجيحه والاطمئنان اليه (١) .

وان كانت الاسباب التى ذكرت سابقا هي الاسباب المباشرة لغزو الروم ، فهناك أسباب أخرى ، وهي حماية حرية نشر الدعوة الاسلامية خارج الجزيرة العربية بعد ان استقرت داخلها ، وتقوية معنويات القبائل العربية القاطنة شمال الجزيرة العربية لعلها تميل الى الاسلام وتدخل تحت لوائه ، وكذلك محو أثار الانسحاب من مؤتة - من النفوس(٢) ، من أجل ذلك كله لم ير النبى صلى الله عليه وسلم بدا من غزو الروم .

---

(١) فى ظلال القرآن ، سيد قطب جـ ٢ ص ١٥٦٤ .

(٢) الرسول القائد ، محمود شيت خطاب ص ٣٩٧ .

(ب) الخروج الى تبوك

(أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان من عسرة الناس ، وشدة الحر ، وجدب من البلاد وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّما يخرج فى غزوة الاكنى عنها ، واخبرانه يريد غير الوجه الذى يقصده ، الا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز ، واخبرهم انه يريد الروم (١) .

والذى يظهر لى ان الذى دعا النبى صلى الله عليه وسلم الى الاعلان عن الجهة التى يريد غزوها الى عدم التكنية والايهام فى هذه الغزوة من غزواته ، ان هذا كان سياسة منه صلى الله عليه وسلم ، لانه أُشيع من الاخبار ما يفيد بأن الروم قد زحفوا نحو المدينة ودنوا منها ، فليس من السياسة فى مثل هذه الظروف التخفى والاسرار ، بل الاعلان عن الاستنفار العام خير وأجدى ، لأن عيون الأعداء سينقلون اليهم ما يفت من قوتهم ويقهر معنويتهم اذا علموا بأن المسلمين على علم بزحفهم وأنهم متأهبون لصدهم وقد خرجوا لملاقاتهم .

وواصل صلى الله عليه وسلم زحفه نحو الروم يقود ثلاثين ألفا من المسلمين ، ولحق به بعد أن قطع مسافات من الطريق بعض من تخلف من المسلمين الذين أراد الله بهم خيرا ، ووصل صلى الله عليه وسلم الى تبوك وعسكر فيها عشرين ليلة ، وبعث برسالة الى هرقل يدعوه فيها الى الاسلام أو الجزية ، ورد هرقل جوابا على هذه الرسالة (٢) .

---

(١) السيرة النبوية ، ابن هشام جـ٤ ص١١٨ (٢) طالع ص ٢٢٢ من هذه الرسالة .

(ب) آثار غزوة تبوك

بدأ صلى الله عليه وسلم اثناء اقامته بتبوك يتصل بالقبائل ويعقد معهم المعاهدات ليقطع بذلك ولاءهم للروم وينهى علاقتهم معهم ، وكان ممن جاءه وهو بتبوك . يوحنا بن رؤبة صاحب ايله فصالح الرسول عليه الصلاة والسلام واعطاه الجزية وكتب له النبى صلى الله عليه وسلم كتابا جاء فيه .

((بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليحنة ابن رؤبة وأهل ايلة (١) سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن كان معهم من أهل الشام واهل اليمن واهل البحر فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من بر او بحر)) (٢) .

واتفق صلى الله عليه وسلم مع اهل - اذرح - وجرباء (٣) وكتب لهم كتابا جاء فيه : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم لاهل اذرح وجرباء انهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وان عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة والله كفيل بالنصح والاحسان الى المسلمين)) (٤)

وصالح صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانيا ، وكان صلى الله عليه وسلم قد بعث خالد بن الوليد

---

(١) ايلة ، مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام وهى آخر الحجاز وأول الشام ، معجم البلدان ج ١ ص ٣٩١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ١٢٥ .

(٣) اذرح اسم بلد فى اطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان - والجرباء موضع من أعمال عمان بالبلقاء من ارض الشام معجم البلدان ج ٣ ص ٧٢ .

(٤) البداية والنهاية ج ٥ ص ١٧ .

اليه فوجده قد خرج من حصنه في ليلة مقمرة الى بقر يطارد ها هو وأخوه حسان فشدت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر وامتنع اخوه حسان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما ، فدخل الحصن ، واجار خالد اكيدر من القتل حتى يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان يفتح له دومة الجندل،ففعل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع واربعمائة رمح ، ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد وكان في الحصن،وبما صالحه عليه قافلا الى المدينة فقدم بأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاهدى له هدية فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ [1] بظفره (٢) .

وقد جاء في الكتاب :

" من محمد رسول الله ، لاكيدر ، حين أجاب الى الاسلام وخلع الانداد (٣)، والاصنام ، مع خالد بن الوليد سيف الله في دوماء الجندل واكنافها : ان لنا الضاحية (٤) من الضحل ، والبور (٥) ، والمعامي (٦) ، واغفال الارض (٧)، والحلقة والسلاح (٨) ، والحافر (٩) ، والحصن (١٠) ، ولكم الضامنة (١١) من النخل والمعين

(١) لعله يريد ابهامه .
(٢) ابن سعد ج ٢ ص ١٦٦ .
(٣) الانداد : الامثال والشركاء .
(٤) الضاحية : كل أرض بارزة من نواحي الارض واطرافها والضحل : القليل من الماء .
(٥) البور : الارض التي لم تحرث .
(٦) المعامي : البلاد المجهولة .
(٧) الاغفال : الارض التي لا أثر بها .
(٨) الحلقة : الدروع .
(٩) الحافر : الخيل وغيرها من ذوات الحافر .
(١٠) الحصن : يعني حصنهم .
(١١) الضامنة : ما حمل من النخل .

الفصل الثـــانى

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع المشركين

يشتمل هذا الفصـــل على :

أولا : آثار غـــزوة تبـــوك بالنســـبة للعـــرب .

ثانيا : اعلان البراءة من المشـــركين .

الفصــل الثانى

سياسة النبى صلى الله عليه وسلم مع المشركين

أولا : آثار غزوة تبوك بالنسبة للعرب

عاد صلى الله عليه وسلم من تبوك بدون قتال اذ لم يجد هناك من يقاومه، فعاد عودة المنتصر حيث انه ظفر بولاء القبائل الواقعة على حدود الجزيرة من الناحية الشمالية ، عاد الى المدينة وقد اكتسب مزيدا من الجلال والاحترام والهيبة للدولة الاسلامية ، فها هى دولة الروم التى يخشى العرب بأسها نكصت على عقبيها وهابت لقاء المسلمين ، فما كان من القبائل العربية فى قلب الجزيرة الا ان مدت يدها معلنة البيعة والولاء والدخول فى الاسلام ، بعد ان تبين لها ان الاسلام فى ظهور وعلو . فهذه ثقيف تبعث بوفدها الى المدينة ليعلن البيعة والدخول فى الاسلام ، وذلك فى شهر رمضان وهو الشهر الذى قدم فيه صلى الله عليه وسلم من تبوك ، ولما علم صلى الله عليه وسلم بقدوم الوفد سره ذلك وأفرحه (١) ، وأمر بأن ينصب لهم خيام بقرب المسجد ليسمعوا القرآن ويروا المصلين لعل ذلك يزيدهم رغبة ، وأمر لهم بالطعام والشراب والحفاوة والاكرام ، وجعل خالد بن سعيد بن العاص سفيرا بينه وبينهم ، وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الاتصال بهم والتحدث اليهم .

الصلح مع ثقيف :

طال النقاش والجدال بين النبى صلى الله عليه وسلم ووفد ثقيف اذ أنهم مع اعلانهم الدخول فى الاسلام طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعفيهم

---

(١) الطبقات الكبرى ، ابن سعد ج ١ ص ٣١٢ .

من بعض احكام الاسلام وان يسمح لهم بارتكاب بعض محظوراته ،لكنه صلى الله عليه وسلم رفض قبول مطالبهم لانها تتصادم مع مبادئ الاسلام وقواعده . وكان من بين مطالبهم " ان يسمح لهم بالزنا وقالوا : انا قوم نغترب ولابد لنا منه ، قال : هو عليكم حرام فان الله يقول " ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا" (١) قالوا : أفرأيت الربا فانه أموالنا كلها قال : لكم رؤوس اموالكم ،ان الله تعالى يقول : " يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين(٢)" قالوا : أفرأيت الخمر فانه عصير أرضنا لابد لنا منها ، قال : ان الله قد حرمها ، وقرأ " يا أيها الذين أمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" (٣) . فارتفع القوم فخلا بعضهم ببعض ، فقالوا : ويحكم انا نخاف ان خالفناه يوما كيوم مكة ، انطلقوا نكاتبه على ما سألناه ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : نعم لك ما سألت " (٤) .

وكان من مطالبهم ايضا ان يعفيهم من الصلاة لكنه صلى الله عليه وسلم قال : لا خير في دين لا صلاة فيه ، ثم كان من مطالبهم ما تهون عنده كل المطالب "وهو ان يدع لهم الطاغية ، وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهرا واحدا بعد مقدمهم ، فأبى ان يدعها شيئا مسمى " (٥) .

(١) سورة الاسراء آيه ٣١ .
(٢) سورة البقرة آيه ٢٧٧ .
(٣) سورة المائدة آيه ٨٩ .
(٤) زاد المعاد - ابن القيم جـ ٣ ص ٢٦
(٥) ابن هشام جـ ٤ ص ١٣٧ .

وكان قصد ثقيف من ذلك الا يستفزوا مشاعر قومهم ،اذ لا يزال في نفوسهم شيء من الولاء للوثنية ، ولا سيما النساء والسفهاء ، فأرادوا أن يأخذ وهم بالتدريج وان يزيلوا معاقل الشرك والوثنية شيئا فشيئا ، لكنه صلى الله عليه وسلم لا يسمح ببقاء اى رمز للوثنية ولو ساعة من الزمان ، اذا هو تمكن من القضاء عليه ، وما يمس العقيدة الاسلامية لا يمكن التفاوض عليه ، لكنه صلى الله عليه وسلم سمح لثقيف واعفاهم من ان يلزمهم بهدم صنمهم بأيديهم وقال : نحن نتولى هدمه ، وبعث ابا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فهدماها .

كتاب الصلح :

دعا صلى الله عليه وسلم خالد بن سعيد بن العاص ليكتب لثقيف كتابا يلتزم فيه صلى الله عليه وسلم لهم ببعض الالتزامات ، وكأنه كره أن يرفض جميع مطالبهم ، ولا سيما وانهم جاءوا اليه طائعين فلا بأس بتلبية بعض المطالب اذا كان لا مساس لها بالدين ، وقد جاء في الكتاب :

" بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى رسول الله ، الى المؤمنين ان عضاة وج ، وصيدة ، لا يعضد (١) ، من وجد يفعل شيئا من ذلك فانه يجلد وتنزع ثيابه ، فان تعدى ذلك فانه يؤخذ فيبلغ به الى النبى محمد وان هذا امر النبى محمد "(٢) .

(١) العضاة ، كل شجر ذى شوك ، وجّ اسم لمنازل ثقيف بالطائف ، يعضد ، يقطع .

(٢) الاموال ص ٢٧٩ وابن هشام جـ ٤ ص ١٢٨ والوثائق السياسية ص ٢٠٨ رقم ١٨٢ .

ثانيا : اعلان البراءة من المشركين

بعد ان وحد صلى الله عليه وسلم جزيرة العرب وأصبح زمام الامر في جميع أنحائها ، الا ما ندر ، بيد المسلمين ، وبدأت اكثر القبائل العربية توفد من يمثلونها لاعلان الطاعة والخضوع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان هناك بعض القبائل الوثنية لم تحدد موقفها بعد من الاسلام ، ووجود مثل هؤلاء داخل الدولة الاسلامية يشكل خطرا كبيرا ، اكبر من خطر الاعداء خارج محيط الدولة الاسلامية ، واذا كان لاهل الكتاب عقيدة يقرون عليها بعد اعلان الطاعة والولاء للدولة الاسلامية ، فليس للوثنين عقيدة سماوية حتى يقروا عليها ، فوجودهم داخل الدولة الاسلامية يشكل كيانا داخل الكيان الاسلامي ودولة داخل الدولة الاسلامية لها قوانينها ومبادؤها التي تتعارض مع مبادئ الاسلام وقوانينه ،فليس بالامكان اقرارهم على ذلك وقد امر الله تبارك وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باعلان البراءة من المشركين .

تكليف علي باعلان البراءة من المشركين في موسم الحج :

جاء في مسند الامام احمد رحمه الله عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من سورة براءة على النبي صلى الله عليه وسلم دعا ابا بكر رضي الله عنه فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ، ثم دعا بي صلى الله عليه وسلم وقال : ادرك ابا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه واقرأه على أهل مكة ، فلحقته بالجحفة ، فأخذت الكتاب منه ، ورجع ابو بكر رضي الله عنه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله نزل في شيء ؟ قال : لا ولكن جبريل جاءني فقال لي لن يؤدي عنك الا أنت أو رجل منك (1) .

(١) الفتح الرباني في ترتيب مسند الامام احمد جـ ٢١ ص ٢١١ .

ولعل السبب في اختصاص علي رضي الله عنه في هذا الغرض هو ما جرت عليه عادة العرب ان لا ينبذ العهد الا من كان قريبا ممن اراد النبذ (١) ، جاء في تفسير البغوي بعد ما ذكر اسناد اعلان البراءة الى علي :

(وكان السبب فيه ان العرب تعارفوا فيمابينهم في عقد العهود ونقضها ان لا يتولى ذلك الا سيدهم او رجل من رهطه فبعث عليا رضي الله عنه ازاحة للعلة لئلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه فينا في نقض العهد) (٢) .

وأيضا لاجل ان يعطي الموضوع أهمية خاصة لئلا يحسبه المشركون من اعمال الحج فحيث ان أمير الحج هو ابو بكر رضي الله عنه فاذا سمعوا هذا البيان يصدع به غيره علموا أنها حالة طارئة تستدعي الانتباه والاهتمام (٣) .

النص القرآني :

سوف اقتصر على النص القرآني الخاص بهذا الموضوع من سورة - براءة - وهو تحديد علاقة المسلمين بالمشركين .

قال الله تعالى :

((براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين * وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا

---

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية جـ ٢ ص ٣٤٢ .
(٢) تفسير البغوي جـ ٣ ص ٤٩ .
(٣) انظر مكة والمدينة في الجاهلية والاسلام ص ٥٣٢ .

بعذاب أليم * الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم
يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين *
فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم
واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم
ان الله غفور رحيم * وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام
الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند
الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم
فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين * كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم
الا ولا ذمة يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات
الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن
الا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فان تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فاخوانكم
فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون * وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم
وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا
تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة اتخشونهم
فالله احق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم
وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على
من يشاء والله عليم حكيم * أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا
منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما
تعملون * ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم
بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * انما يعمر مساجد الله
من أمن بالله واليوم الأخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك

أن يكونوا من المهتدين * أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن
أمن بالله واليوم الأخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدى
القوم الظالمين * الذين أمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم
وانفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه
ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا ان الله عنده أجر
عظيم * ياأيها الذين أمنوا لا تتخذوا أباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر
على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون * قل ان كان اباؤكم وأبناؤكم
واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله
بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين * لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم
حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم
وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم
تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على
من يشاء والله غفور رحيم * ياأيها الذين أمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا
المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله
ان شاء ان الله عليم حكيم * قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر
ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب
حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

ما تضمنه هذا النص الكريم :

ما تضمنه هذا النص القرآني الكريم انه تبرأ من المشركين الناقضين للعهد ، وامهلهم مدة اربعة اشهر يفكرون خلالها فيما عساهم ان يفعلوه مع المسلمين بعد هذا البيان ، وبعد مضي المدة يقاتل المشركون ويضيق عليهم الخناق لعلهم يسلمون .

ومن له مع المسلمين عهد محدد الى اجل فانه يوفى له عهده ان كان ملتزما به ولم يحصل منه خروجا على العهد ولا نية للخروج .

والمشركون بالنسبة للعهود ثلاث طوائف ، منهم من له عهد مطلق ، ومنهم من له عهد مقيد بأمد محدود ، ومنهم من لا عهد له ، وقد اشار النص القرآني الى الموقف الذي يجب ان يتخذ تجاه كل طائفة .

قال الامام الطبري : الاجل الذي جعله الله لاهل العهد من المشركين واذن لهم بالسياحة فيه بقوله " فسيحوا في الارض أربعة أشهر " انما هو لاهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته ،فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه ، فان الله جل ثناؤه أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - باتمام العهد بينه وبينهم الى مدته بقوله : الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين" (1) .

---

(1) تفسير الطبري ج ١٤ ص ١٠١ .

وقد أشار الامام البغوى الى الذين نقضوا عهودهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم[1] .

وقال الامام ابن كثير : هذه الآية - اى أول السورة - لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، او من له عهد دون أربعة اشهر فيكمل له أربعة اشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله الى مدته مهما كان لقوله تعالى " فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم " الآية والحديث من كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فعهده الى مدته ، وهذا أحسن الأقوال واقواها [2] .

هذا وقد أنصف الاسلام مع المشركين غاية الانصاف ، ولم يأخذهم على غرة وكان له الحق لو عمل لانهم سبقوا فى نقض العهد ، لكنه لم يعمل وكيف يعمل ذلك ومن طبيعته العدل والانصاف حتى مع الخصوم والشرف مع الاعداء ، فقد اختار للاعلان عن نقض العهد مع المشركين يوما مشهورا من أيام السنة وهو يوم الحج الاكبر وفى مكان يجتمع فيه جمع كبير من الناس وهو - منى - ومع ذلك لم يباغتهم بل أجلهم اربعة أشهر يسيحون فى الارض ويروا رأيهم ويتشاوروا فيما بينهم ، وينهوا ما لهم من الاعمال والارتباطات مع غيرهم وفى خلال هذه المدة لن يبق مشرك يهمه هذا البيان الا وقد سمعه سواء حضر الحج أو لم يحضر ، فيعد المدة للعلاقات الجديدة مع الاسلام ودولته .

---

(١) تفسير البغوى بهامش تفسير الخازن ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٣١ .

الفصل الثالث

وفود العرب

الفصل الثالث

وفود العرب

لما سمع الناس بيان - براءة - اثناء الحج مع أبي بكر رضي الله عنه ، وعلموا سياسة محمد صلى الله عليه وسلم النهائية التي سيبنى عليها علاقته مع الآخرين ، سياسته بعد أن خضعت له القبائل ذات الشأن في الجزيرة العربية ، وبعد ان خضعت له القبائل الموالية للروم وأسلمت له قياداتها ، لما تبين لهم ذلك قدموا الى المدينة طائعين معلنين البيعة والدخول في الاسلام .

قال ابن اسحاق :

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضرب اليه وفود العرب من كل وجه ، وانما كانت العرب تربص بالاسلام امر هذا الحي من قريش وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن قريشا كانوا امام الناس وهاديهم ، وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد اسماعيل ابن ابراهيم عليهم السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه ، فلما أفتتح مكة ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام وعرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله ، كما قال عز وجل أفواجا ، يضربون اليه من كل وجه ، يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : " اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك وأستغفره انه كان توابا " : أى فاحمد الله على ما اظهر من دينك واستغفره انه كان توابا "(١) .

(١) السيرة النبوية ، ابن هشام ج ٤ ص ١٥٢ .

وفى تاريخ الطبرى ، ان عليا رضى الله عنه لما قرأ سورة - براءة - فى موسم الحج قال المشركون : نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك ، ثم انهم رجعوا ولا موا أنفسهم وقالوا : ما تصنعون وقد أسلمت له قريش ؟ فأسلموا (١) ، وقال هذيم بن قضاعة : رئيس وفد بني سعد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافدا فى نفر من قومى وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد واداخ العرب ، والناس صنفان اما داخل فى الاسلام راغبا فيه واما خائفا من السيف (٢) .

أستقبال الوفود :

كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الوفود ويحسن استقبالهم ويبالغ فى ذلك ، على الرغم من أن بعضهم كان لا يعرف الأدب اللائق بحضرته صلى الله عليه وسلم ولا الاخلاق الواجب التزامها عند القدوم عليه ، اذ يسيئون اليه بالقول ويرفعون أصواتهم عند خطابه أو مناداته ، وكل ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير محمود ، الا انه كان يتجاوز عن سيئاتهم رغبة فى اسلامهم وطمعا فى هدايتهم ، اذ لو كان فظا غليظ القلب لا نفضوا من حوله .

وكان قد جاء ، وفد بنى تميم فدخلوا المسجد وذلك فى وقت صلاة الظهر والمسلمون ينتظرون خروج النبى صلى الله عليه وسلم (لكن هذا الوفد استبطئوه فنادوه : يامحمد اخرج الينا ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقام بلال ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر ثم أتوه ، فقال الأقرع

---

(١) انظر تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٢٣ وامتاع الاسماع ، للمقريزى ص ٥٠١ .
(٢) زاد المعاد جـ ٣ ص ٤٧ .

وهو من رؤسائهم : يامحمد ائذن لى ، فوالله ان جهدى لزين وان ذمى لشين ، فقال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كذبت ذلك لله تبارك وتعالى ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وخطب خطيبهم وهو عطارد بن حاجب فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لثابت بن قيس بن شماس : أجبه ، فأجابه ، ثم قالوا : يامحمد ائذن لشاعرنا ، فأذن له ،فقام الزبرقان بن بدر فأنشد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت : أجبه فأجابه بمثل شعره ، فقالوا : والله لخطيبه ابلغ من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولهم أحلم منا ، ونزل فيهم " ان الذين يناد ونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون " (١) وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد ، فأعطاهم بلال اثنتى عشرة أوقية ونشا " (٢).

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد محارب عام حجة الوداع ، وهم كانوا اغلظ العرب وافظهم ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك المواسم أيام عرضه نفسه على القبائل يدعوهم الى الله ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عشرة نائبين عمن وراءهم من قومهم فأسلموا وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء الى أن جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الظهر الى العصر فعرف رجلا منهم فأمده النظر فلما رآه المحاربى يديم النظر اليه

---

(١) سورة الحجرات آية ٣ .

(٢) ابن سعد جـ ١ ص ٢٩٤ وانظر ابن هشام جـ ٤ ص ١٥٢ .

قال : كانك يارسول الله توهمتني ؟ قال : لقد رأيتك . قال المحاربي : اى والله لقد رأيتني وكلمتني وكلمتك بأقبح الكلام ورددتك باقبح الرد بعكاظ وانت تطوف على القبائل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نعم . ثم قال المحاربي : يارسول الله ما كان في اصحابي أشد عليك يومئذ ولا ابعد عن الاسلام مني فأحمد الله الذى ابقاني حتى صدقت بك ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذه القلوب بيد الله عز وجل فقال المحاربي : يارسول الله استغفرلي من مراجعتي اياك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الاسلام يجب ما قبله من الكفر ، ثم انصرفوا الى اهليهم(١) . وكذلك قدم عليه ، صلى الله عليه وسلم ،ضمام بن ثعلبة - وافدا عن بني سعد فدخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في اصحابه ، وكان ضمام بن ثعلبة رجلا جلدا اشعر ذا غديرتين فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه ، فقال : ايكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انا ابن عبد المطلب ، قال محمد ، قال : نعم ، قال : يابن عبد المطلب انى سائلك ومغلظ لك في المسألة ، فلا تجدن في نفسك . قال : لا اجد في نفسي فسل عما بدا لك (٢).

هكذا نجده صلى الله عليه وسلم يتجاوز عما يبدر من هفوات الوفود التي يدفعها جفاء البداوة وخشونتها لعلمه ان الخير كل الخير في الصفح والتجاوز ولا سيما اذا كان فيه استمالة للاسلام .

---

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ٥١ وانظر ابن سعد ج ١ ص ٢٩٩ وشرح المواهب للزرقاني ٤ - ٥٩ وعيون الاثر ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ١٢٤ وانظر ابن سعد ج ١ ص ٢٩٩ .

اسكان الوفــود :

كان صلى الله عليه وسلم يأمر باسكان الوفود فى أماكن مخصصة للضيافة، منها دار رملة بنت الحارث ، اسكن فيها صلى الله عليه وسلم وفد بنى حنيفـة، وكذلك وفد محارب ووفد بنى كلاب ، ومنها دار ابى أيوب الانصارى ، اسكـن فيها صلى الله عليه وسلم وفد نجران ، ومنها ايضا دار المغيرة بن شعبة أنـزل فيها الاحلاف من وفد ثقيف ، وانزل باقى الوفد فى خيام نصبت لذلك بالقـرب من المسجد ، ومن دور الضيافة ايضا دار يزيد بن ابى سفيان ، اسكن فيهـا عبد الرحمن بن ابى مالك الهمدانى (١) .

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر لهم بالطعام والشراب ، فقد أمر لوفـد بنى حنيفة بالعشاء والغداء ، مرة خبزا ولحما ، ومرة خبزا وسمنا ، ومرة خـبزا ولبنا ومرة خبز وتمرا وكذلك امر بلال رضى الله عنه بان يأتى بالغداء والعشـاء لوفد محارب ، وكان صلى الله عليه وسلم يأتى بالتمر لوفد -بلى -(٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم يجعل مع بعض الوفود مرافقا من الصحابـة ، يمشى بينه وبينهم فقد جعل صلى الله عليه وسلم خالد بن سعيد بن العاصـى مع وفد ثقيف وجعل معاوية بن ابى سفيان مع وائل بن حجر الحضرمى (٣) ، وهـذا يشبه الى حد كبير مع ما يجرى عليه العمل الآن فى الاستقبالات الرسمية لكبـار الضيوف أو الوفود ونحو ما يسمى بمرافق الشـرف .

---

(١) أنظر : الاصابه ج ٢ ص ٤٢١ وابن سعد ج ١ ص ٢٩٩ و٣٠٤و ٣١٦ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٧ وزاد المعاد ج ٤ ص ٢٧ وما بعدهـا .

(٢) انظر ابن سعد ج ١ ص ٣١٦ وابن كثير جـ ٥ ص ٢ ، وعيون الأثر ج ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ١٥٦ وامتاع الاسماع ص ٣٢٧ .

اجازة الوفـــود :

علمنا ان النبى صلى الله عليه وسلم يعنى بكل ما من شأنه اكرام الوفـــود وراحتهم ، فقد تبين لنا أنه كان يسكنهم ويأمر لهم بالطعام والشراب ، ويجعـل معهم مرافقين من الصحابة اما اذا عزم الوفد على الاياب والعودة الى بلادهـم فانه صلى الله عليه وسلم يأمر لهم بالجوائز ، فقد جاء وفد غولان لوداعه عليـه الصلاة والسلام بعد أيام من مجيئهم فأمر لهم بجوائز اثنتى عشرة أوقية ونش ، وأجاز وفد طىء لكل رجل منهم خمس أواق من الفضة واعطى سيدهم زيد الخيل اثنـتى عشرة اوقية ، وقدم عليه فروة بن مسيك المرادى فأجازه صلى الله عليه وسلـم اثنتى عشرة اوقية ، وحمله على بعير نجيب واعطاه حلة من نسيج عمان ، وعلـى هذا الكرم والجود منه صلى الله عليه وسلم وسعـة العطـاء يطلب أحيانا من الساعين على خدمة الوفود الاعتذار اليهم بأن فى المـال قـلـ يقول حبيب بن عمرو السلامى : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم فاقمنا ثلاثا وضيافته تجرى علينا ، ثم ودعناه وامرلنا بجوائز فأعطينا خمـس اواقى لكل رجل منا واعتذر الينا بلال وقال : ليس عندنا اليوم مال ، فقلـنا ما اكثر هذا وأطيبه (١) .

وبعد فهذه جوائزه صلى الله عليه وسلم لوفود الاسلام الراغبين الدخـول فيه ، وقد أمر أمته بان تسير على هذا المنهج وتسلك هذا السبيل ، عن ابـن عباس رضى الله عنهما قال : " اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يـوم الخميس وأوصى عند موته بثلاث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، واجيزوا

---

(١) ابن سعد ج ١ ص ٢٩٨ و ٣٢١ والطبرى ج ٣ ص ١٢٩ وعيون الاثـر ج ٢ ص ٢٥٧ .

الوفود بنحو ما كنت أجيزهم ونسيت الثالثة " متفـق عليه (١) .

وبدخول القبائل فى الاسلام على هذا النحو أصبحت الجزيرة العربية كلها تحت سلطان دولة واحدة ، ولأول مرة فى تاريخ الجزيرة العربيـــة يتوحد العرب تحت سلطان دولة عربية واحدة (٢) ، ذات دين واحد ، ورب واحد .

يتبين لنا بعد ذلك ان من اهم آثار فتح مكة ازدياد هيبة الدولـــة الاسلامية فى نفوس عرب الجزيرة جميعا ، واقتناعهم بان الاسلام هو دين الحق ولولا ذلك ما انتصر معتنقوه هذا النصر العظيم ، فقد وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفود هم من كل انحاء الجزيرة العربية ، اما لاعلان الاســـلام والخضوع للدولة الاسلامية ، واما للرغبة فى طلب المال ، وفى كلتا الحالتيـن نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يكرم الوفود حتى تتمكن محبة الاسلام والمسلمين فى قلوبهم ، ثم هو بعد هذا نراه يبتكر نظاما جديدا فى -الدبلوماسيـــة- وهو نظام مرافق الشرف الذى اضحى فى ظل النظام - الدبلوماسى -المعاصـــر وبعد بلوغه اقصى التطور جزءا هاما من هذا النظام ، وكان من أثر هذا كلـــه سيادة الاسلام على الجزيرة كلها ثم على اكثر انحاء المعمورة .

---

(١) نيل الاوطار ج ٧ ص ٢٢ .

(٢) مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرســول ص ٥٣٨ .

الخاتمة

أولا : بيان استقلال السياسة الخارجية للدولة الاسلامية

قد تبين لنا مما عرضناه في الرسالة أن أول تأسيس حقيقي للدولة الاسلامية كان عقب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة وترؤسه فيها لجماعة اسلامية تسودها أحكام الاسلام التي يتنزل بها القرآن من عند الله سبحانه وتعالى والتي يقوم بتنفيذها النبي صلى الله عليه وسلم ، فمنذ البداية وحتى انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى كان الحال على عكس ما كان عليه الأمر في بني اسرائيل من الفصل بين الملك والنبوة أو الدين والدولة كما أشار الى ذلك القرآن الكريم في قصة طالوت وجالوت أو اسباغ صفة الملك وسلطانه على النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يكون نبيا وملكا في آن واحد ، كما كان شأن داود وسليمان عليهما السلام ، بل نبوة تصرف شئون الناس مباشرة على هدى الوحي ليكون في ذلك ترسيخ لنظام الاسلام المتكامل في مجتمع المسلمين ، وليكون صنيع النبي صلى الله عليه وسلم معهم بحضور ومشاعدة أهل الرأي منهم تعليم وتدريب لهم على سياسة الدولة من بعده وفقا لنظام الاسلام في كل ناحية من نواحي السياسة الداخلية أو الخارجية على حد سواء .

ومن هنا نستطيع القول بدون تردد أن سياسة الدولة الاسلامية الخارجية في عهد النبوة لم تكن اقتباسا من أي نظام آخر لأية دولة سابقة عن الاسلام أو معاصرة له ، فلقد اتضح لنا مما أوردناه من تفاصيل سياسة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عليه الصلاة والسلام يتصرف في كل حالة وفقا لما تقضيه المصلحة

فيها تبعا لظروفها وملابساتها . والعمل الرشيد الذى كان يصدر عنه عليه الصلاة والسلام كان يتلقاه عن الوحى كما فى غزوة بنى قريظة . وهذا كان فى حالات محدودة ، أو كان يصدر عنه بعد مشاورته لأصحابه ، وتقليب الأمر على وجوهه المختلفة ، حتى يتضح المسلك الأصوب والطريق السوى فيأخذ به وهذا هو الذى كان يحدث فى أغلب الأحوال ، بل انه كان أمرا ضروريا لأنه منهج أمته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، حيث أن الوحى سينقطع بوفاته عليه الصلاة والسلام، ولن يكون أمام المسلمين بعد ذلك سوى الاجتهاد بالرأى ، فكان لابد من بيان أن ذلك أمر مشروع ،كما كان لابد من تدريبهم عليه ، وتعليمهم طرقه المختلفة ، وانتزاع الهيبة من نفوسهم التى ربما قد تحصل عند ارادة الاجتهاد ، وليعرفوا أنه لا حرج على المجتهد ان أخطأ فى اجتهاده بل له أجر فى ذلك مادام قد بذل أقصى وسعه فى الاجتهاد . وقد ضُرب لهم المثل فى هذا بما اتبع فى شأن أسرى موقعة بدر حيث أظهر لهم الوحى أن الحل الذى اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم كان غيره أولى منه ، يقول تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (١) .

وهكذا ارتفعت المؤاخذة عن النبى وأصحابه فى لجوئهم الى ذلك الحل المجانب للأولى ، فنعلم منه أن غيره صلى الله عليه وسلم أولى بعدم المؤاخذه كما ضرب لهم المثل أيضا فى تصرفه عليه الصلاة والسلام فى شأن المعتذرين عن

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٦ .

غزوة تبوك ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قبل منهم جميعا أعذارهم ، وبين القرآن الكريم أن هذا التصرف غيره أولى منه . قال تعالى :- "عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين "(١)، وبهذا وغيره تأكد أنه لا شيء على من أخطأ في اجتهاده مادام قد استفرغ الجهد في التعرف على وجه الحقيقة والصواب .

هكذا نرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما كان يتصرف فى أمر من الأمور سواء كان متعلقا بالسياسة الداخلية أو السياسة الخارجية الا عن وحى واجتهاد .

وأما الاقتباس من الأنظمة التى كانت تتبعها الدول الأخرى السابقة على الاسلام أو المعاصرة له ، فانه كان أمرا غير وارد على الاطلاق ، وان حصل تشابه بين السياسة الاسلامية وبين بعض الأنظمة القديمة أو المستحدثة فى بعض الجزئيات فان هذا لا يعنى أن نضع هذا النظام أو ذاك الى جانب الاسلام فنقول :- انه يماثل هذا النظام أو ذاك ؛ لأن التشابه الذى يعول عليه فى هذا الصدد هو التشابه التام فى جميع الجزئيات الأساسية ، وليس ذلك بحاصل بالنسبة للاسلام والانظمة الأخرى ، فالاسلام فى مجموعه نظام فريد فى بابه لا يشبه أى نظام آخر ، ومن هنا يحق لنا أن نقول ان الاسلام هو الاسلام بنظامه الفذ الفريد فى كل شأن من الشئون وفى كل نظام من الأنظمة الداخلية أو الخارجية على حد سواء ، ولا يصح القول بأنه يتطابق مع أى النظم الوضعية اشتراكية كانت أو ديمقراطية أو ثيوقراطية .

---

(١) سورة التوبة آية ٤٢ .

ثانيا : بيان معالم السياسة الخارجية للدولة الاسلامية فى عهد النبوة

تتضح لنا سياسته صلى الله عليه وسلم الخارجية فى النقاط التالية :

١ - تأمين الجبهة الداخلية قبل الانتشار فى الخارج ، حيث أنه عليه الصلاة والسلام وادع يهود المدينة وعاهدهم وكون بذلك وحدة وطنية متفقة حسب الظاهر على الذب عن المدينة والدفاع عنها .

٢ - البدء فى توطيد العلاقة الخارجية بالمحيطين الأقربين ، وهذه حكمة سياسية منه صلى الله عليه وسلم ، فبعد أن اطمأن على وحدة الجبهة الداخلية وترابطها . بدأ بالخطوة الثانية وهى انشاء علاقات مع القبائل ذات الشأن القاطنة حول المدينة ، اذ أنه لن يستطيع التصدى لقريش وهى العدو الأقوى الا اذا أمن جانب القبائل المحيطة بالمدينة واطمأن على ولائهم له ، أو على الأقل حيادهم .

٣ - أخذ صلى الله عليه وسلم بالتصدى لتجارة قريش لرد ما أخذته من المسلمين المهاجرين ، وما كان صلى الله عليه وسلم ليقدم على هذه الخطوة الا بعد أن اطمأن على شيئين :- أولها : تماسك الجبهة الداخلية حسب ما ظهر له ، وثانيهما : ولاء أو حياد القبائل المحيطة بالمدينة .

٥ - اظهار القوة أمام الأعداء مهما كانوا من الكثرة ، ومهما كانوا من القوة ، وعدم الخنوع أو الشعور بالضعف والوهن اذ لا ضعف مع الايمان فان النبى صلى الله عليه وسلم لما تبين له أن قريشا علمت بتعرضه لعيرها ومحاولته لصد تجارتها ، وأنها قد استنفرت قوتها ، وأعلنت الحرب عليه ،

ما كان ذلك ليخيفه ، أو يدعوه الى العودة الى المدينة . على الرغم من أنه ما خرج لحرب وما كان معه من متطلبات الحرب وآلاتها ما يدعوه الى خوضها مع قريش اللهم الا ذخيرة الايمان وأنعم بها من ذخيرة ، ثم كان هذا طبعه دائما مع قريش ، ما كانت لتخيفه بقوتها أو ترهبه بأحزابها وأعوانها حتى اذا أنهكتها الحروب ، وحدت يدها طلبا للسلم رغبة منها بانهاء الحرب لبى طلبها وبادلها رغبتها صلى الله عليه وسلم .

٥ - المرونة فى المفاوضات السلمية وعدم التشدد فى الأمور غير الجوهرية فانه صلى الله عليه وسلم تساهل مع قريش فى مفاوضات الحديبية الى أبعد حد ، وخرج على أصحابه بطبع غير مألوف لهم . حيث أنه لم يلق بالا لاعتراضهم ، وحاول اقناعهم حيث أن الأمر بتدبير من الله ، وأنه لذلك وجد فى نفسه العزم على المضى والمرونة مع قريش فى المفاوضات ما لم يكن الأمر جوهريا أو فيه اعاقة لمسار الدعوة الاسلامية .

٦ - وجوب الوفاء بما تعقده الدولة الاسلامية من معاهدات ، ولو ترتب على ذلك ضرر ببعض الأفراد فالمصلحة العامة ألزم . وان أمكن التحفظ فى المعاهدات حتى لا يتضرر فرد من المسلمين فان ذلك يكون واجبا ، وهذا عائد لرأى ولى أمر المسلمين فان نقض الطرف الآخر المعاهدة فانه يحق للدولة الاسلامية أن تنقضها من جانبها .

٧ - المبادرة الى ارسال الرسل والسفراء الى زعماء الدول غير الاسلامية متى تهيأت الظروف لذلك بالطرق السلمية ، وقبول وفادة الدول الأخرى ، واضفاء الحصانة عليهم بما يكون له أثر طيب في نفوسهم نحو الاسلام والمسلمين ، وعدم الاستهانة بما قد يحصل لدعاة الاسلام ومثلى ولى الأمر من اهانة وأذى فان من الأسباب التي دعت النبي صلى الله عليه وسلم لغزو الروم قتلهم أحد سفرائه كما سبق بيانه .

٨ - عدم حمل الناس على الدخول في الاسلام بالقوة . اذ لا اكراه في الدين هذا مع ضرورة ازالة كل العوائق التي قد تقف في سبيل الدعوة ولو بالقوة المسلحة ان احتيج الى ذلك فان على رئيس الدولة الاسلامية ابلاغ الدعوة الى جميع الشعوب وازالة ما قد يكون حاجزا دون وصولها . أما أن يرغمهم على الدخول في الاسلام فانك لا تهدى من أحببت .

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى ان يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم ، وان يجعله مفيدا لكل مطلع وباحث ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين .

المراجـــــــــع

القرآن الكريـــم

١ - ابو يوسف — القاضي ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم - ت ١٨٢ هجريه - كتاب الخراج - المطبعة السلفية .

٢ - ابن هشام — محمد بن عبد الملك بن هشام ت ٢١٣ هـ السيرة النبوية - مكتبه ومطبعة شقرون .

٣ - ابي عبيد — ابو عبيد القاسم بن سلام - ت ٢٢٤هـ كتـــــاب الاموال - تحقيق الفقي القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٤ - ابن سعد — محمد بن سعد - ت ٢٣٠هـ - الطبقات الكبرى - دار صادر - بـــيروت ١٩٦٠ م .

٥ - ابن حنبل — احمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ - مسند الامام احمـد - المكتب الاسلامي بيروت .

٦ - ابن ماجه — ابو عبد الله محمد بن يزيد - ت ٢٧٣ هـ - سنن ابن ماجه - دار احياء الكتب العربية .

٧ - ابو داود — سليمان بن الاشعث السجستاني - ت ٢٧٥ هـ - سنن ابي داود - طبعة محمد علي .

٨ - ابو الفرج — علي بن الحسين بن محمد - ت ٣٥٦ هـ - الاغاني مكتبة صادر بيروت - ١٩٥٤ م .

٩ - ابو يعلى — محمد بن الحسين الفراء - ت ٤٥٨ هـ - الاحكام السلطانية - مكتبة الحلبي .

١٠ - ابن قدامه — ابي محمد عبد الله بن احمد بن قدامة ت ٦٢٠هـ المغني ومعه الشرح الكبـــير - المكتب الاســلامي بـــيروت .

١١ - ابن الأثير — عز الدين ابو الحسن علي الجزري ت ٦٣٠ هـ الكامل في التاريخ - دار الكتاب العربي .

١٢ - ابن الأثير — أسد الغابة في معرفة الصحابة - دار الشعب .

١٣ - ابن تيميه — تقي الدين احمد بن تيميه ت ٧٢٨ - السياسه الشرعيه في اصلاح الراعي والرعية - دار الكتاب العربي .

١٤ - ابن سيد الناس — ابو الفتوح محمد بن محمد بن يحيى المشهور بابن سيد الناس ت ٧٣٤ هـ - عيون الاثر في فنون المغازي والسير .

١٥ - ابن القيم — شمس الدين ابو عبد الله الشهير بابن القيم ت ٧٥١ هـ - زاد المعاد في هدى خير العباد مصطفى الحلبي .

١٦ - ابن القيم — اعلام الموقعين عن رب العالمين - دار الكتاب الحديث - .

١٧ - ابن كثير — عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير - ت ٧٧٤ هـ - تفسير القرآن العظيم - طبعة دار احياء الكتب العربية - القاهرة .

١٨ - ابن كثير — - البداية والنهاية - طبعة السعادة بمصر .

١٩ - ابن خلدون — عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - ت ٨٠٨ هـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - دار الكتاب اللبناني .

٢٠ - ابن طولون — شمس الدين محمد بن علي بن طولون - ت ٩٥٣هـ اعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين .

٢١ - ابن الفراء ابوعلى الحسين بن محمد - رسل الملوك ومن يصلح للرساله والسفارة .

٢٢ - ابو زهرة محمد ابو زهرة - العلاقات الدولية فى الاسلام الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٤م.

٢٣ - ابو هيف على صادق ابو هيف . القانون الدولى العام - دار منشأة المعارف الاسكندرية سنة ١٩٧٢م .

٢٤ - الاهدى على بن حسين بن على الاهدى - مكاتيب الرسول - دار المهاجر بيروت .

٢٥ - البخارى أبوعبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ت ٢٥٦ هجرية - صحيح البخارى - دار احياء الكتب العربية القاهرة .

٢٦ - البيهقى ابو بكر احمد بن الحسين بن على البيهقى ت ٤٥٨ هـ - السنن الكبرى - مجلس دائرة المعارف النظامية - حيدر اباد - ١٣٤٤ هـ .

٢٧ - البغوى محمد بن الحسن بن مسعود البغوى - ت ٥١٦ هجريه - تفسير البغوى بهامش تفسير الخازن - مطبعة الحلبى .

٢٨ - باشميل محمد احمد باشميل - غزوة بنى قريظة - مؤسسة الرساله - .

٢٩ - الترمذى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى ت ٢٧٩ هـ - سنن الترمذى - الطبعة الوطنية حمص ١٩٦٥م.

٣٠ - الجصاص ابوبكر احمد بن على ت ٣٧٠ هـ - أحكام القرآن - دار الكتاب العربى .

٣١ - جواد جواد على المفصل فى تاريخ العرب فى الاسلام مطبعة الزعيم بغداد - ١٩٦١م .

٣٢ - جمال — احمد عبد القادر جمال - بحوث ودراسات في القانون الدولي العام - مكتبه النهضة المصرية .

٣٣ - جماعة من المستشرقين — المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى .

٣٤ - جول — جول لابوم - تفصيل آيات القرآن الحكيم .

٣٥ - الحلبى — على بن برهان الدين الحلبى ت ١٠٤٤ هـ - السيرة الحلبية المكتبة الاسلامية .

٣٦ - الحوت — محمد بن السيد درويش الحوت - اسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب - المكتبة التجارية بمصر .

٣٧ - الحسينى — محمد الحسينى حنفى - المدخل لدراسة الفقه الاسلامى - الدار القومية للطباعة والنشر .

٣٨ - حميد الله — محمد حميد الله الحيدرآبادى - الوثائق السياسية في عهد النبوة والخلافة الراشدة دار الارشاد بيروت سنة ١٩٦٩م .

٣٩ - خلاف — عبد الوهاب خلاف . السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية - المطبعة السلفيه .

٤٠ - خلاف — علم أصول الفقه - دار الانصار - القاهرة .

٤١ - خدورى — مجيد خدورى - العلاقات الدوليه في الاسلام - مؤسسة الرسالة .

٤٢ - الخضرى — محمد الخضرى بك - تاريخ التشريع الاسلامى - المكتبة التجارية .

٤٣ - خطاب — محمود شيت خطاب الرسول القائد - دار الفكر .

٤٤ - دحلان — احمد زينى دحلان ت ١٢٨٧ هـ السيرة النبوية والآثار المحمدية - بهامش الحلبيه - المكتبة الأسلامية .

٤٥ - دراز | محمد عبد الله دراز - دراسات اسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية .

٤٦ - الدقس | محمد كامل سلامه الدقس - العلاقات الدولية في الاسلام على ضوء الاعجاز البياني في سورة التوبة - دار الشروق .

٤٧ - الزرقاني | محمد بن عبد الباقي الزرقاني - شرح الزرقاني على المواهب اللدنيه للعسقلاني - مطبعة الازهر المصرية سنة ١٣٢٥ هـ .

٤٨ - الزحيلي | وهبه الزحيلي - آثار الحرب في الفقه الاسلامي المكتبة الحديثة سنة ١٩٦٥م .

٤٩ - زيدان | عبد الكريم زيدان - احكام الذميين والمستأمنين في الاسلام - مؤسسة الرسالة .

٥٠ - زيدان | مجموعة بحوث فقهية - مكتبة القدس بغداد سنه ١٩٧٦م .

٥١ - السمهودي | ابو الحسن على نور الدين بن عبد الله ت ٩١١ - وفاء الوفا باخبار دار المصطفى - طبعة الاداب والمؤيد القاهرة ١٣٢٦ هـ .

٥٢ - السهيلي | عبد الرحمن السهيلي ت ٥٨١ - الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام دار الكتب الحديثة .

٥٣ - الساعاتي | احمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني - الطبعة الأولى .

٥٤ - سلطان | حامد سلطان - القانون الدولي العام في وقت السلم - الطبعة الرابعة ١٩٦٩م دار النهضة العربية .

٥٥ - سلطان — حامد سلطان - احكام القانون الدولي في الشريعة الاسلامية - دار النهضة العربية سنة ١٩٧٤م .

٥٦ - سالم — عطية محمد سالم - تتمة اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن - تأليف محمد الامين الشنقيطي طبعة المدني .

٥٧ - سرور — محمد جمال الدين سرور - قيام الدولة العربية الاسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم دار الفكر العربي .

٥٨ - الشيباني — محمد بن الحسن الشيباني ت ١٨٩ هـ - شرح السير الكبير املا السرخسي - شركة الاعلانات الشرقية .

٥٩ - الشوكاني — محمد بن على الشوكاني ت ١٢٥٠ هـ - فتح القدير - مصطفى الحلبي القاهرة ١٩٦٢م .

٦٠ - الشوكاني — نيل الاوطار - طبعة مصطفى الحلبي القاهرة .

٦١ - الشريف — احمد ابراهيم الشريف - مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول - دار الفكر العربي .

٦٢ - الصعيدي — عبد المتعال الصعيدي - السياسة الاسلامية في عهد النبوة - دار الفكر العربي .

٦٣ - الطبري — ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ - جامع البيان في تفسير القرآن - دار المعارف القاهرة ١٩٥٨م .

٦٤ - الطبري — تاريخ الأمم والملوك - دار القاموس الحديثة .

٦٥ - الطبري — اختلاف الفقهاء - دار الكتاب العربي .

٦٦ - الطبرانى — ابو القاسم سليمان بن احمد اللخمى ت ٣٦٠ هـ المعجم الصغـــــير .

٦٧ - العسقلانى — احمد بن على بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ فتح البارى فى شرح صحيح البخارى . المطبعة السلفية .

٦٨ - العسقلانى — الاصابة فى تمييز الصحابة - مكتبه المثنى ببغـــداد .

٦٩ - علان — محمد بن علان الصديقى الشافعى ت ١٠٥٧ هـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، دار الفكر .

٧٠ - عودة — عبد القادر عودة : التشريع الجنائى فى الاسلام مقارن بالقانون الوضعى دار العروبه القاهـــرة سنة ١٩٦٣ م .

٧١ - عماد الدين — عماد الدين خليل - دراسات فى السيره - دار الفكر العربى .

٧٢ - عبد الباقى — محمد فؤاد عبد الباقى - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم - دار احياء التراث العربى .

٧٣ - الغزالى — محمد الغزالى - فقه السيره - دار الكتـــب الحديثـــة .

٧٤ - الغزالى — هذا ديننـــــا . دار الكتب الحديثة .

٧٥ - عثمان — عبد الكريم عثمان ت ١٣٩٤ هـ النظام السياسى فى الاسلام - مؤسسة الرسالة .

٧٦ - غانم — محمد حافظ غانم - مبادئ القانون الدولـــى العام - مطبعة النهضــــة .

٧٧ - الفيروزبادى — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى - القاموس المحيط - دار الكتب الحديثة .

٧٨ - فياض — محمود فياض - الفقه السياسى عند المسلمين المكتب الفنى للنشر .

٧٩ - القرطبى — ابن عبد البر النميرى القرطبى ت ٤٦٣ - الاستيعاب فى معرفة الاصحاب - مكتبة المثنى ببغداد .

٨٠ - القرطبى — ابو عبد الله محمد بن احمد الانصارى القرطبى ت ٦٧١ - الجامع لاحكام القرآن - دار الكتب المصرية ١٩٦٧م .

٨١ - قطب — سيد قطب ت ١٩٦٥م فى ظلال القرآن دار الشروق .

٨٢ - قطب — الجهاد فى سبيل الله - الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية .

٨٣ - الكاسانى — علاء الدين ابى بكر بن مسعود الكاسانى ت ٥٨٧ بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع .

٨٤ - مسلم — مسلم بن الحجاج القشيرى ت ٢٦١ صحيح مسلم مختصر المنذرى - المكتب الاسلامى دار العروبة .

٨٥ - الماوردى — ابى الحسن على بن محمد الماوردى ت ٤٥٠ هـ الاحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة الحلبى واولاده .

٨٦ - المقريزى — تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥ هـ - امتاع الاسماع بما للرسول من الاتباع والاحوال والحفدة والمتاع - تحقيق محمد شاكر القاهرة سنة ١٩٤١ م .

٨٧ - المودودى — ابو الاعلى المودودى - نظرية الاسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور - مؤسسة الرسالة .

٨٨ - منصور — على على منصور - الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام - القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ .

٨٩ - المنجد — صلاح الدين المنجد - المجتمع الاسلامى فى ظل العداله الاسلامية - دار الكتاب الجديد .

٩٠ - النيسابورى — ابو الحسن على بن احمد الواحدى النيسابورى ت ٤٦٨ هـ - اسباب النزول - دار الباز .

٩١ - النبهان — محمد فاروق النبهان - نظام الحكم فى الاسلام

٩٢ - هيكل — محمد حسين هيكل - حياة محمد صلى الله عليه وسلم - مكتبه النهضة المصرية .

٩٣ - الواقدى — محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ - كتاب المغازى .

٩٤ - ولفنسون — اسرائيل ولفنسون - تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام - مطبعة الاعتماد .

٩٥ - اليعقوبي — احمد بن ابى يعقوب المعروف باليعقوبي ت ٢٩٢ هـ - تاريخ اليعقوبي - المكتبة الحيدرية .

٩٦ - ياقوت — شهاب الدين عبد الله ياقوت الحموى ت ٦٢٦هـ معجم البلدان - دار بيروت للطباعة والنشر .

فهرست الموضوعات

الموضــــــوع	رقم الصفحة
الأفتتاحيـــــــة	١
خطة البحـــــث	٦
المقدمـــــة :	١٢
أولا : تعريف الدولة	١٢
تعريف الدولة في الفقه الاسلامي	١٣
عناصـــر الدولة	١٤
العنصر الأول : الشعب	١٤
العنصر الثانى : الاقليم	١٧
طرق اكتساب الأقليم	١٨
العنصر الثالث : السلطة	١٩
شكل النظام والسلطة	٢٠
نشأة الدولة	٢٢
الصورة الاولى	٢٢
الصورة الثانية	٢٢
ثانيا : مصادر السياسة الدولية فى الاسلام	٢٥
القرآن الكريم	٢٦
الســـــنة	٣٠
الاجتهـــــاد	٣٣
مصادر الأحكام فى القانون الدولى	٣٥
المصدر الأول : الاتفاقيات الدولية	٣٥
المصدر الثانى : العرف الدولى	٣٥
المصدر الثالث : مبادىء القانون العامة التى اقرتها الأمم المتحضـــرة	٣٥
المصدر الرابع : القضاء الدولى	٣٦
الباب الأول :	٣٧
الفصل الأول : القواعد الأساسية التى تحكـــم العلاقات الدولية فى الاســـلام	٣٩
أولا : العـــدل	٣٩
ثانيا : المعاملة بالمثـــل	٤٣

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
ثالثا : الوفاء بالعهد	٤٥
رابعا : نصرة الضعفاء	٥٠
خامسا : تكريم الاسلام للانسانية واعتبار الناس أمة واحدة .	٥٤
سادسا : حرية الاعتقاد	٥٨
الفصل الثاني : المعاهـــدات	٦٤
تعـــريف المعاهدات	٦٤
مشروعية المعاهـــدات	٦٥
شروط الوفاء بالمعاهدات	٦٨
الشرط الأول	٦٨
الشرط الثاني	٦٨
الشرط الثالث	٦٩
الشرط الرابع	٧٠
الشرط الخامس	٧١
الشرط السادس	٧٢
الشرط السابع	٧٣
الفصل الثالث : الرسل والسفراء في الاسلام	٧٥
أولا : تاريخ التمثيل السياسي وحكمه في الاســـلام	٧٥
ثانيا : موقف الاسلام من امتيازات الممثلين السياســـيين :	٨٤
(أ) الحصانة الشخصية	٨٤
(ب) الاعفاء من الخضوع للقضاء	٨٦
(ج) الحصانة المالية	٨٨
(د) حرية التنقــل	٨٩
ثالثا : صفات السفـــراء	٩٠
رابعا : الأصل في العلاقات بين الدولـــة الاسلامية وغيرها من الدول	٩٣
الباب الثاني : الدولة الاسلامية من حين نشأتها الى صلـــح الحديبيـــة	١٠٠

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الفصل الأول : سياسته صلى الله عليه وسلم مـع اليهود المجاورين للمدينة .	١٠٢
الوضع السياسي في المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم	١٠٢
سياسة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود	١١٠
بدء الصراع بين المسلمين واليهود	١٢١
الدافع الحقيق لليهود وراء كراهية نصر المسلمين في بدر	١٢٣
اجلاء بني قينقاع عن المدينة	١٢٥
أثر الجلاء على وحدة المدينة السياسية	١٢٦
بدء الصراع مع يهود بني النضير وسياسة النبي صلى الله عليه وسلم معهم	١٢٨
موقف بني النضير من انتصار المسلمين ببدر	١٢٨
الاتفاق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبني النضير	١٣١
نقض بني النضير للاتفاق	١٣٢
جلاء بني النضير	١٣٤
بدء الصراع مع بني قريظة ، وسياسته صلى الله عليه وسلم معهم	١٣٦
نقض بني قريظة للعهد	١٣٧
تأكد النبي صلى الله عليه وسلم من نقض العهد	١٣٨
موقف النبي صلى الله عليه وسلم من بني قريظة بعد نقضهم العهد	١٣٩
اعلان الحكم وتنفيذه	١٤١
الفصل الثاني : سياسته صلى الله عليه وسلم مع العرب المجاورين للمدينة .	١٤٤
محالفة بني ضمرة	١٤٤
نص الكتاب	١٤٥
محالفة جهينة	١٤٦
محالفة بني مدلج	١٤٦

رقم الصفحة	الموضوع
١٩٦	آثار غزوة خيبر
١٩٨	ثانيا : مراسلة ملوك الأمم وأمرائها
٢٠٢	كتابه صلى الله عليه وسلم الى هرقل
٢٠٤	نص الرسالة
٢٠٤	هرقل يتحرى حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام
٢٠٦	موقف قيصر من الرسالة
٢٠٨	الرد على الرسالة النبوية
٢٠٨	الرسالة الثانية الى هرقل
٢٠٩	الرد على الرسالة النبوية
٢١٢	رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى كسرى
٢١٢	نص الرسالة
٢١٣	موقف كسرى من الرسالة
٢١٥	رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك الحبشة
٢١٦	نص رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى النجاشى الأول
٢١٧	استطالة النجاشى الى الاسلام
٢١٨	الرد على تلك الرسالة
٢١٩	الرسالة الى النجاشى الثانى
٢١٩	موقفه من الرسالة
٢١٩	الفرق بين أسلوب الرسالتين
٢٢٠	رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الى المقوقس
٢٢١	نص الرسالة
٢٢١	حاطب يعظ المقوقس ويذكره بمصير الحكام الطغاة
٢٢٣	رد المقوقس على الرسالة
٢٢٤	رسائله صلى الله عليه وسلم الى الامراء العرب
٢٢٦	رسالته صلى الله عليه وسلم الى ملكى عمان
٢٢٧	نص الرسالة
٢٢٧	عمرو فى حوار مع عبد
٢٣١	آثار الرسائل
٢٣٣	أثر هذه الغزوة

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث : نقض الصلح وفتح مكة	٢٣٦
وفاء النبى صلى الله عليه وسلم بالعهد	٢٣٦
كيف نقضت قريش العهد	٢٣٧
موقف قريش من هذه الأحداث	٢٤٠
موقف النبى صلى الله عليه وسلم	٢٤٢
محاولة قريش تلافى نتائج ما فعله حلفاؤها	٢٤٤
توجيهه صلى الله عليه وسلم لفتح مكه	٢٤٧
دخوله صلى الله عليه وسلم مكة	٢٥١
خطبة الفتح والعفو عن أهل مكة	٢٥٢
آثـــار فتح مكة	٢٥٣
الباب الرابع : سياسة النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفتح الى أن انتقل الى الرفيق الأعلـــــــى	٢٥٦
الفصل الأول : سياسته صلى الله عليه وسلم مع الروم	٢٥٨
أولا : موقف الروم من الاسلام والمسلمين	٢٥٨
ثانيا : استنفار المسلمين لغزو الروم	٢٦٢
(أ) أسباب الغزو	٢٦٢
(ب) الخروج الى تبوك	٢٦٥
(جـ) آثار غزوة تبوك	٢٦٦
الفصل الثانى : سياسة النبى صلى الله عليه وســلم مع المشركــــين .	٢٧٠
أولا : آثار غزوة تبوك بالنسبة للعرب	٢٧٠
الصلح مع ثقيـــــف	٢٧٠
كتاب الصـــــــلح	٢٧٢
ثانيا : اعلان البراءة من المشركين	٢٧٣
تكليف على باعلان البراءة من المشركين فى موســــــم الحج	٢٧٣
النص القــــــرآنى	٢٧٤
ما تضمنه هذا النص الكريم	٢٧٧
الفصل الثالث : وفـــــود العـــــرب	٢٨٠

الموضـــــوع	رقم الصفحة
استقبال الوفــــود	٢٨١
اسكان الوفـــــود	٢٨٤
اجازة الوفـــــود	٢٨٥
الخاتمـــــــــة	٢٨٧
أولا : بيان استقلال السياسة الخارجية للدولة الاسلامية	٢٨٧
ثانيا : بيان معالم السياسة الخارجية للدولة الاسلاميـــة في عهد النبـــوة .	٢٩٠
المراجـــــــع	٢٩٣